تاريخ المصريين ٢٣٠

تاريخ الجيش المصرى فى عصور ما قبل التاريخ

د. عز الدين إسماعيل أحمد



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

إهـــــــداء ٢٠٠٦
الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



تاريخ الجيش المصرى
فى
عصور ما قبل التاريخ

تأليف

د. عز الدين إسماعيل أحمد



٢٠٠٣

الاشـــراف الفنى

محمود الجزار

تقـــــديم

يسرنى أن أقدم للقارىء الكريم هذا الكتاب « تاريخ الجيش المصرى فى عصور ما قبل التاريخ » الذى كتبه الدكتور عز الدين اسـماعيل أحمد ويقدم عرضا شاملا لحياة مصـر العسـكرية والاجتماعية فى عصر ما قبل التاريخ .

والكتاب ينقسم الى ثمان فصول ٠٠ الفصل الأول ، ويتحدث عن أهمية وأسلوب دراسة التاريخ العسكرى وتاريخ فن الحرب ، والثانى عن نشأة الحضارات القديمة بالمنطقة ، والثالث بعنوان : « عناصر ومؤثرات القوة الذاتية فى مصر » ، والرابع عن : « دراسة عن تاريخ بدء الحيـاة فى مصر » ، ويتعرض فيه لتكوين مصر عبر عصور ما قبل التاريخ .

أما الفصـل الخامس فهو دراســة عامة عن الأحـوال الاقتصادية فى مصـر من زراعة ورعى وصـناعة ، ويتعرض فى الفصل السادس للأحوال السياسية والاجتماعية فى مصر ، وظهور مملكتى الشمال والجنوب وتوحيد القطرين ، ويتحدث أيضا عن فئات المجتمع المصرى خلال عصور ما قبل التاريخ .

وقد خصص الباحث الفصل السابع لدراسة عامة عن الأحوال الدينية فى مصر ، أما الفصل الثامن والأخير تحدث فيه عن الأحوال

العسكرية فى مصر ، وأسباب وأشكال الصراع مع الاشارة الى أمثلة تاريخية قديمة ، وتنتهى الدراسة بمجموعة من الملاحق ، ملحق للوثائق وملحق للخرائط وملحق الصور والأشـــكال وأخيرا ملحق المراجع .

وأملى أن ينتفع بهذه الدراسة الباحث المتخصص والقارىء المثقف .

رئيس التحرير

د . عبد العظيم رمضان

الفصل الأول

أهمية وأسلوب دراسة التاريخ العسكرى وتاريخ فن الحرب

تمهيـــــد :

التـــاريخ ذاكرة البشر والأمم ، وأمـه بلا تاريخ كانســـان بلا عقل ، فنسيان التاريخ فى حقيقة الأمر ما هو الا فقدان للذاكرة ·

والحرب ظاهرة اجتماعية سياسية معقدة تدرس من خـــلال عدة علوم يأتى على رأسها العلم العسكرى الذى يبحث فى قوانين الصراع المسلح ومدى تاثـــرها بالظروف والعوامل السياســـية والاجتماعية والاقتصادية والمعنوية المحيطة بها بالاضافة الى خضوعه لسنة التطور · ويعتبر التاريخ العســـكرى جزءا أساسيا من العلم العسكرى ، وهو يهدف الى تحديد القواعد القياســـية العامة التى صـــاحبت الحروب والحمـــلات الحربية والوقعـــات والمعـــارك خلال حقبة تاريخية أو مرحلة معينة · ويمكن تحديد هذه القواعد العامة من تكرار الظواهر المماثلة فى عدة معارك أو حروب ، ويجب أن تدرس هذه القواعد العامة فى ترابط تام مع الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والمعنوية السائدة وقتها ·

وكثيرا ما تسمع عبارة ان « التاريخ يعيد نفسه » وهى مقولة غير علمية أكاديميا ــ اذا أن أحداث التاريخ قد تتشـــابه ولكنها لا تتطابق ، وهذا يعنى أنه اذا توافرت الآن ــ أو فى أى وقت

من الأوقات ـ الظروف والعوامل التى أدت الى وقوع حدث ما فى الماضى فان هذا الحدث قد يتكرر فى جوهره وتأثيراته مرة أخرى ، وان اختلفت وسائل وصور وقوعه • والفترة الزمنية ما بين وقوع الحدث وتكراره ـ وهى يطلق عليها مصطلح « دورة التاريخ » التى قد تطول أو تقصر تبعا لعدة أسباب يأتى فى مقدمتها عدم استيعاب البشر أو الأمم لتاريخ من سبقوهم ، وعدم استفادتهم من خبراتهم وتجاربهم ، لذلك يحضنا الدين على الاستفادة من تاريخ وخبرات من سبقنا من الأمم ، فيقول الحق تبارك وتعالى فى قرآنه الكريم

(كذلك نقص عليك من أنبـاء ما قد سبق ، وقد آتيناك من لدنا ذكـرا) (١) •

بل ويأمرنا الحق تبارك وتعالى بالدراسة العملية والميدانية لتاريخ من قبلنا فى قوله تعالى :

(قل سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبـة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين) (٢) •

ـ ولقد اهتمت الدول العصرية والمتقدمة بدراسة التاريخ العسـكرى واعتنت به عناية فائقة ، ادراكا منها بصـلته المباشرة بأمنها القومى ، وتقدمها وازدهارها فالولايات المتحدة الأمريكية ـ على سـبيل المثـال تدرس مادة التاريخ الحربى فى منشأتهـا التعليمية ـ سواء المدنية أم العسـكرية ـ تحت اسـم دراسة واستخدام التاريخ الحربى « أما بالنسبة لما كان يسمى سـابقا بالاتحاد السوفيتى ، فانه يتبع اسلوبا تحليليا عند تعرضه لدراسة معركة معينة ويتلخص هذا الأسلوب فى البدء بدراسة الأساليب

---

(١) المصحف الشريف : (سورة طه ـ اية رقم (٩٩) •

(٢) المصحف الشريف : (سورة الروم ـ آية رقم (٤١)

أو النظريات القتالية التى كانت متبعة قبل هذه المعركة ثم يتعرض للمعركة بالشرح والتحليل للوصول الى الدروس المستفادة منها ويختتم الموضوع بسرد الأساليب القتالية الجديدة التى تم استخلاصها من دراسة هذه المعركة (بمعنى تحويل الدروس المستفادة الى قوانين قتال أو قواعد خدمة للميدان) .

لذلك يجب أن ندرك أن دراسة التاريخ لا تقتصر على مجرد سرد الحوادث بل يجب أن تصاحبه عملية تحليل وتفسير لهذه الأحداث فلا يقف الباحث عند مجرد سرد الخبر ، بل يجب أن يضمنه رأيه المتعمق والذى يمكن أن يتحول الى فلسفة للتاريخ يعمد اليها الباحث التاريخى كثمرة لما بذله من جهد يمكن الاستفادة منه فى الحاضر والمستقبل ، وان يستشف منها ما سوف يقع من أحداث كما لو كنا نقرأ نقلا عن الماضى فى كتاب المستقبل والحقيقة أن التاريخ الحربى هو وعاء الخبرة البشرية ، وهو علم له أصوله مادام الانسان يعمل فكره فى تلك الخبرة البشرية التى تظهر بوضوح وتصل الى أوج عنفوانها عندما تندلع نيران الحروب بين المجتمعات البشرية المتضادة .

وتهدف دراسة التاريخ العسكرى الى تفهم مواقف القتال بطريقة نقدية تركز الضوء بصفة خاصة على الظواهر المتكررة والتى تقود الى استنباط قوانين الصراع المسلح الملائمة لاعداد الدولة للحرب لدعم أمنها القومى ، واستمرار نموها وتقدمها .

كما تهدف دراسة التاريخ العسكرى الى توسيع المعرفة لدى القادة والضباط فى مجالات الاستراتيجية ، والفن التعبوى ، وفن القتال (التكنيك) .

وتعتبر مقارنة النظريات الحديثة مع الخبرات المستخلصة من ادارة المعارك والعمليات وقت الحرب من أفضل الدروس التعليمية

سواء فى التدريب العملى للقوات أو أثناء الدراسة النظرية بالمنشآت التعليمية العسكرية ٠

اولا : تعريف ومنهج التاريخ العسكرى

تعريف التاريخ :

هو علم مستقل بذاته ، وهو جزء رئيسى من العلم العسكرى ، يختص ببحث ودراسة الحروب الماضية للخروج بالدروس المستفادة والخبرات المكتسبة والتى تصلح للحروب المقبلة ، أى أنه بعبارة أوجز يبحث فى الماضى للوصول الى المستقبل ٠

منهج علم التاريخ العسكرى :

١ ـ تاريخ الحرب (الحملات والعمليات والوقعات والمعارك) ٠
٢ ـ تاريخ القوات المسلحة والأفرع الرئيسية والأسلحة المقاتلة والتشكيلات والوحدات ٠
٣ ـ تاريخ الأسلحة والمعدات والتجهيزات العسكرية ٠
٤ ـ تاريخ الفكر العسكرى (النظريات العسكرية) ٠
٥ ـ تاريخ مشاهير القادة العسكريين (السير) ٠
٦ ـ التأريخ الحربى (تدوين التاريخ) ٠
٧ ـ بحث المصادر التاريخية العسكرية (التحقيق) ٠
٨ ـ التوثيق التاريخى العسكرى ٠
٩ ـ علم الآثار العسكرية ٠
١٠ـ علم الاحصاء العسكرى ٠

١ ـ تاريخ الحروب :

(الحملات والعمليات والوقعات والمعارك) يختص بدراسة الأهـداف السياسـية وطبيعة الحروب ويكتشف أسـباب نشوبها وجذورها ، وكذا قوات وخطط المتحاربين ، كما يدرس ، تطور أعمال القتـال ويستعرض النتائج السياسية والاقتصادية والعسكرية للحرب ، ويحلل أسباب الانتصارات والهزائم ، ويحدد دور الحرب فى تطور المجتمع •

٢ ـ تاريخ القوات المسلحة والأفرع والأسلحة :

يدرس القوة القتالية للقوات وتنظيمها وتسليحها وجـداول المرتبات ، كما يدرس أعمال قتالها ويشـمل هذا التاريخ جميع المستويات اعتبارا من القوات المسلحة (الجيش) فالتشكيلات ، فالوحدات والوحدات الفرعية • وهذا الفرع من التاريخ له أهمية خاصة فى نشر التقاليد العسكرية والروح القتاليـة بين الجنـود وضباط الصف فى الوحـدات والتشكيلات وتنمية روح الشجاعة والاعتزاز بالوحدة أو التشكيلات •

٣ ـ تاريخ الأسلحة والمعدات :

يهتم هذا القسم بتتبع ظهور وتطور وسائل الصراع المسلح (الأسلحة القاطعة من خناجر ـ وسيوف وغيرها ـ وسائل الحصار ـ البنادق ـ الرشاشات ـ الدبابات ـ الصواريخ بأنواعها ـ الخ) •

وهذا القسم من التاريخ يسـاعد على تتبع تطور سـلاح معين وتحديد اتجاهات تحسينه • واتجاهات التطور المقبلة والأنـواع الحديثة منه •

٤ ـ تاريخ الفكر العسكرى :

يدرس هذا القسم تطور الآراء والأفكار العسكرية بالنسبة لجوهر وطبيعة الحروب ، وكيفية الاعداد لها وادارتها ووسائل بناء القوات المسلحة وباقى المسائل التى تعالجها نظريات العلم العسكرى ـ وهو ما يطلق عليه أحيانا مصطلح « تطور النظرية العسكرية » .

٥ ـ تاريخ مشاهير القادة العسكريين (السير) :

سواء سير ذاتية ناتجة عن يوميات القادة أو مذكرات ووثائق ، أو سير مؤلفه عنهم بعد وفاتهم .

٦ ـ التدوين التاريخى (التأريخ العسكرى) :

عبارة عن تتبع سير الأحداث وتفسيرها والتعمق فى الأسباب وتحليل النتائج للخروج بالدروس المستفادة لمعرفة الأخطاء واظهار أفضل الحلول فدراسة الخطأ تؤدى الى التعرف على الصواب ـ وهو يهدف الى تعريف الدارس بالأسباب الحقيقية للنجاح أو الفشل فى أى عملية عسكرية .

٧ ـ بحث المصادر التاريخية العسكرية :

وهو الفرع المختص بالبحث والتنقيب عن هذه المصادر وتبويبها وشرح مختلف المصادر والوثائق المستخدمة فى اعداد التاريخ الحربى وتاريخ فن الحرب .

٨ ـ التوثيق التاريخي العسكرى :

وهذا الفرع مرتبط بالمصادر ، وهو يبحث في المبادىء والقواعد لاختيار ونشر المصادر وتحديد قواعد وأسس اعداد وحفظ دقة هذه الوثائق ·

والتوثيق ينقسم الى (٣) أقسام :

١ ـ توثيق علمي : وهو كل ما يمكن نشره ·

٢ ـ توثيق علمي دعائي : وهو كل ما يمكن نشره للشعب ·

٣ ـ توثيق تعليمي آكاديمي : وهو كل ما يساعد على دراسة التاريخ من وثائق ·

٩ ـ علم الآثار العسكرية :

وهو أحد الأفرع الخاصة للتاريخ العسكرى ـ وأحد أقسام علم الآثار العام ـ وهو يهتم بدراسة نشاط الأفراد فى المجال العسكرى فى الماضى بناء على المصادر المادية الموجودة مثل الأسلحة ومعدات القتال والملابس والنصب التذكارية الخ ·

١ ـ علم الاحصاء العسكرى :

وهو العلم الذى يبحث فى النواحى الكمية والنوعية ووضع معايير للأحداث والظواهر التى تساعد على استخلاص الحقائق بالاعتماد على متوسطات حسابية صادقة الى حد كبير ·

دراسة جوهر التاريخ العسكرى

بدأ التاريخ بتدوين حوادث وأخبار مفردة ، أو ترجمة لحاكم ، أو تخليدا لقائد عظيم ، وهو يعتبر من أهم الميادين العسكرية التى اهتم بها الانسان • ويختلف تدوين التاريخ عن « تأليف التاريخ » •

فالتدوين : عبارة عن مجرد نقل أحداث وأخبار عن معركة أو موقعة وهو ما يسمى « التاريخ » •

أما تأليف التاريخ : فهو تفسير لطبيعة الحرب وأسبابها وتسلسلها مع تحليلها والخروج منها بالعبر والدروس المستفادة ، وذلك بتوضيح اسلوب المؤرخ العسكرى فى معالجة الأخطاء واظهار أفضل الحلول • ويمكن تشبيه التاريخ العسكرى بالنسبة لصنعة الحرب ، بالتشريح الطبى بالنسبة لمهنة الطب ، فكلاهما يضفى على الممارس خبرة تجنبه مواطن الزلل وتدرأ عنه احتمالات الوقوع فى نفس الخطأ مرتين ، كما أنها تفتح أمامه آفاقا عريضة للابتكار والتطور والتجديد فى مختلف مجالات التخطيط للحروب ، وأساليب ادارة معاركها وعملياتها بما يحقق الهدف المنشود بأقل تكلفة وفى أسرع وقت (تحقيق مبدأ الاقتصاد فى القوى) •

فكل مشاهير القادة على امتداد تاريخ الصراع البشرى كانت انجازاتهم فى مسارح الحرب وليدة اهتمامهم البالغ بدراسة معارك الماضى والمامهم بكل دقائق الحروب وتفاصيلها • وعلى مر تاريخ الصراع البشرى ، نجد أن مشاهير القادة قد اتخذوا جميعهم قرارا واحدا يتلخص فى اختيار طريق الاقتراب الذى لا يتوقعه الطرف الآخر ليقينه بأنه لا يصلح لسير الحملات الميكانيكية أو حتى الأفراد المترجلين رغم ما قد يمثله من وعورة وصعوبة ، فمثلا :

قرار معركة « قادش » الذى اتخذه رمسيس الثـانى . هو نفس قرار معركة فيرونا الذى اتخذه الاسكندر الأكبر ، هو نفس قرار معركة اليرموك الذى اتخذه خالد بن الوليد ، هو نفس قرار معركة عكا الذى اتخذه نابليون بونابرت ، هو نفس قرار معركة القدس الذى اتخذه اللورد اللنبى فى الحرب العالمية الأولى .

أهمية دراسة التاريخ العسكرى :

يتميز التاريخ العسكرى عن التاريخ العام بوجود خطط محددة يمكن تعميم خبراتها واستنباط الدروس المستفادة منها ، بعكس التاريخ العام المتعدد الخطط والايقاعات والنماذج .

فدراسة أسباب الخطأ ونتائجه تعطى التصويب العملى ، ويصبح الهدف من دراسة التاريخ العسكرى هو الوقوف على الأسباب الحقيقية للنجاح أو الفشل فى أى معركة أو عملية أو حرب .

فقبل نهاية الحرب العالمية الثانية قامت ادارة التاريخ الحربى بوزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) بتشكيل لجنة تكونت من ٤٩ ضابطا . ١٨١ عالما ، وأناطت بهم مهمة كتابة تاريخها العسكرى واستغرق انجاز هذا العمل ١٤ عاما أتموا خلالها تأليف ٢٧ مجلدا ، وكذلك كان اهتمام الاتحاد السوفيتى وبريطانيا بتدوين تاريخها العسكرى .

ولعل أقرب مثال فى منطقتنا العربية ، هو ما فعلته اسرائيل فى أعقاب حرب رمضان / أكتوبر ١٩٧٣ من تشكيل لجنة (اجرانات) للتحقيق فيما أسموه « بالتقصير » الذى أحاط بالأداء

الاسرائيلى فى هذه الحرب وخرجت هذه اللجنة بتوصيات تجنب اسرائيل الوقوع فى نفس الأخطاء التى وقعت فيها عام ١٩٧٣ ٠

وعلى مستوى جمهورية مصر العربيـــة شكلت لجنــة كتـابة التاريخ عقب حرب رمضان / أكتوبر ١٩٧٣ وقد صـــــدرت بعض المؤلفات فى هذا الموضـوع عقب الحرب مباشرة لسـد الاحتياجات السريعة لاشباع رغبة القائمين بدراسة الحقائق التاريخية ، ولو اننا نحتاج لما هو أكثر من ذلك عمقا بدراســـة تاريخنا العسكرى على مر العصور التاريخية بدلا من الثقافة التاريخية التى تركها فينـا الاستعمار البريطانى قبل رحيله عن مصر من الاقتصار عن دراسة تاريخ الحرب العالمية الأولى والثانية وتجاهل حروب الجيش المصرى فى العصور الفرعونية ، وروعة الفن الحربى فى العصور الاسلامية ، وحروب الجيش المصرى الحديث فى عهد محمد على والتى وجه اليها الاستعمار العديد من الاتهامات كذلك يجب الاهتمام بتاريخنـــا المعاصر والجولات العربية الاسرائيلية على مدار ربع قرن من الزمان (١٩٤٨ ـ ١٩٧٣) ٠

هدف دراسة التاريخ العسكرى :

يتعذر على دارسى التاريخ العســـكرى ، أن يحيـــط بالهدف اذا ما تغاضى عن الالتزام بالاسلوب السليم فى دراسة الموضوع ، بل أن الضرر قد يصبح أفدح اذا ما تمادى الدارس فى الخطا الى الدرجة التى تقوده الى الخروج وباستنتاجات ودروس خاطئة ٠

فتاريخ الحروب هو عبارة عن دراسة أســباب وأحداث نتائج هذه الحروب ، كذلك تاريخ تطور طرق وأســاليب أعمــال القتال

والعمليات والصراع المسلح بصفة عامة ، وذلك من خلال وجهه النظر التاريخية ، مع مراعاة مستوى تطور المجتمع وأحوال الحياة ٠

أما تاريخ فن الحرب فهو يختص بدراسة طرق وأشكال وأعمال القتال فى مرحلة تاريخية معينة ، بواسطة قوات مسلحة معينة ، فى حرب معينة وذلك فى ارتباط وثيق مع اتجاهات التطور المختلفة ٠ لاستنتاج التطورات المحتملة لفن الحرب ٠

يقسم التاريخ العسكرى الى مراحل زمنية طبقا لمراحل تقسيم البشرية ، وتبعا لاختلاف المدارس التاريخية العسكرية ٠

فالمدرسة الشرقية ، تقسم تاريخ البشرية طبقا للعوامل الاقتصادية والاجتماعية الى المراحل التالية :

(أ) نظام امتلاك العبيد ٠

(ب) نظام الاقطاع ٠

(جـ) نظام الرأسمالية ٠

(د) نظام الاشتراكية ٠

أما المدرسة الغربية ، فتقسم تاريخ البشرية الى المراحل التالية :

(أ) العصر القديم :

(ب) العصور الوسطى ٠

(جـ) العصر الحديث والمعاصر ٠

أما المدرسة العربية الاسلامية ، فتقســـم تاريخ البشرية الى المراحل التاليـــة :

(أ) العصر القديم (ما قبل الاسلام) ٠

(ب) العصور الاسلامية ٠

(جـ) العصر الحديث والمعاصر ٠

يجب أن تتناول الدراسة المتعلقة بأنشطة الأطراف المتصارعه فى مسرح الحرب أو أرض المعركة النقاط العشر التالية :

(أ) الظروف السائدة محليا ودوليا من جميع الأوجه والأنشطه المختلفـــة ٠

(ب) الهدف من الحرب أو العملية أو المعركة ٠

(جـ) طبوغرافية وديموجرافية المسرح ومناخه ٠

(د) المقارنة العددية والنوعية بين أطراف الصراع وأساليبهم القتاليـــة ٠

(هـ) خطط الأطراف المتصارعة ٠

(و) سير القتال ٠

(ز) النواحى الادارية والفنية ، ومدى دعمهـــا أو عرقلتها للصراع ٠

(ح) نتائج المعركة أو الموقعة أو العملية أو الحرب ٠

(ط) الدروس المستفادة والخبرة المكتسبة ٠

(ى) مبادىء الحرب التي اهتم بتطبيقها أحد طرفى الصراع فتحقق له النصر وأغفل عنها الطرف الآخر فلحقت به الهزيمة ٠

اسلوب دراسة التاريخ العسكرى :

(أ) الدراسة العاجلة :

بمجرد توقف القتال ، يأتي دور التاريخ العسكرى يجمع كل الوثائق ويسجل كافة الدقائق والتفاصيل ، ثم يستخلص منها الدروس والعبر لنشرها على الجميع حتى يتبينوا الأسباب الحقيقية للنجاح أو الفشل فليتزموا بالأولى ويتجنبوا الثانية ٠

لذلك فان أى دراسة للتاريخ العسكرى لاتستهدف هذا الغرض تصبح دراسة خاطئة قد تقود الى استنتاجات وخلاصات غير صحيحة ٠

وفيما يتعلق بالدروس المستفادة ، ونظرا لأهميتها البالغة على الصراع الدائر بين طرفى النزاع فانها تتطلب الاسراع بتعميم الخبرة المكتسبة منها حتى يتجنب القادة والقوات ما حدث فيها من أخطاء ٠ أو يتعرفوا على ما ابتكره العدو من تطوير أو تجديد فيدرأوا عنهم الخسائر الفادحة أو الفشل فى المعارك التالية ٠

(ب) الدراسة المتانية :

تأتى هذه الدراسة بعد انتهاء الحروب ، حيث (فى التاريخ العسكرى وفن الحرب) يبدأ الضباط والعلماء فى الفحص والتحقيق للوثائق والقرائن الخاصة بأطراف الصراع ٠ وتستفيد هذه

الدراســة من الاحاطة الجيدة بالموقف الســائد محليــا وعالميا بين وأثناء نشوب الحرب موضع الدراسة حتى تأتى الاستنتاجات ملائمة للواقع ومنطبقة على القرارات والفرص المتاحة أمام مختلف الخصوم والصـــعوبات التى اعترضت طريقهم فى تســير دفة الصراع فى مصرح العمليات ٠

وعموما ـ فانه مهما تعددت أساليب دراسة التاريخ العسكرى يجب أن يظل الهدف من هذه الدراسة هو الوقوف على الأســباب الحقيقية للنجاح أو الفشل فى أى معركة أو عملية أو حرب ، وذلك لاستغلال جوانبها الايجابية وتجنب نواحيها السلبية ٠

على حين يهتم القانون الدولى العـــام بتحديد مدى شرعيـــة أو عدوانية الحروب ، ويهتم علم الســـياسة بنتائج هذه الحروب وأثرها على المتغيرات المحلية والدولية ، نجد أن مجـــالات اهتمام التاريخ العسكرى تتسع لتشكل تصنيف خططها وأساليب ادارتها ، وسير أحداثها ثم حصر نتائجها وانجازاتها ٠

ولا يكتفى التاريخ الحربى بذلك ، بل يمد اهتمامه الى آفاق المستقبل ليستشف شكل وطبيعة المعارك المقبلة ٠

فحروب اليوم لا تقتصر على مجرد القتال فى مسرح أو مسارح العمليات فحسب بل تتعدى ذلك الى حلبــة أوســـع من الصراع السياسى والاقتصادى والاجتماعى بحمى وطيسه قبل وأثناء وبعد الصراع المسلح بوسائل النيران ، ولا يقل عنه أثرا بل قد يزيد ٠

ـ لابد من وضع الهدف من الحرب فى ذهن القائد المخطط لأن عدم وضوح الهدف سوف يقوده الى استنتاجات خاطئة ، والدليل على ذلك ما نلمسه اليوم من بعض الكتاب الأجانب عند حديثهم عن

الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة (خريف ١٩٧٣) واتهامهم لنا بالتقصير لعدم التقدم نحو أعماق سيناء لتحريرها (أو الاستيلاء على خط المضايق على أقل تقدير) ثم يستخلص هؤلاء الكتـــاب من ذلك الخطأ ـ فى زعمهم ـ عدة دروس بعيدة فى جوهرها عن الحقيقة ، بسبب اغفالهم أن الهدف الاستراتيجى للحرب كان محددا بعنصرين هما :

(أ) اشعال أزمة الشرق الأوسط كى تصل الى قمة اهتمامات العالم بعد أن احتجبت فى القاع ·

(ب) تحدى نظرية الأمن الاسرائيلى ، وتحطيم نظرية الردع الاسرائيلية ·

ـ لن تستقيم دراسة أى معركة أو موقعة أو عملية حربية دون ربط خططها وسير أحداثها بطبوغرافية المسرح الذى دارت أحداثها فوقه ، ذلك لأن الأرض عامل مؤثر على الصراع ونتائجـــه (فهى تعاون المقاتلين وتزود عنهم تارة وقد تعيقهم وتعترضهم تارة أخرى) تبعاً لاختلاف طبيعتها وتباين تضاريسها ومناخها ·

كما تؤثر الجغرافيا العسكرية على طبيعة الحرب عن طريق مســـاحات وأبعاد مسارح العمليات والأعماق الاستراتيجية للدول المتحاربة حيث تنتهج الدول ذات المساحات الشاســـعة أساليب مختلفة عما تنتهجه الدول ذات المساحات المحدودة ، وهنا يظهر سبب اصرار اسرائيـــل على نقـل المعركة بسرعة خارج أراضـــيها · فى مقابل قبول العرب الارتداد الى خطوط خلفية كأسلوب سليم لاستدراج العدو الى أرض وظروف مناسبة لملاقاته عليها ·

وتختلف طرق وأســاليب القتال فى مســارح العمليات الصــحراوية الجبلية عنها فى الغابات والمدن ، كما ان تعدد أنواع مســارح العمليات يتطلب أنواعا متعددة من التســليح والعتاد الحربى ونوعا خاصا من التدريب والمهارة القتالية .

ـ قد يصادف الدارس خلال تأملاته للمعارك والحروب ، ان هنــاك فئة قليلة غلبت فئة كبيرة ، مما يجعله يتســاءل عن جدوى مقارنة القوات الا أن تأثير التفوق النوعى على التفوق العددى أمــر يعرفه المتخصصون فى التاريخ العســكرى ـ لأنه غالبا أرجح فى كفة ميزان المقارنة لصالح الجانب الأقل كما والأكثر كيفا ـ سواء كان سبب التفوق الكيفى عقيدة دينية صــادقة ، أو روح معنوية عالية ، أو تدريب قتالى ممتاز أو معدات قتالية متطورة وفعالة . وكليا ركائز أكيدة للكفاءة القتالية العالية .

لذلك كانت الدراســة الشــاملة للتركيب التنظيمى . والتســليح ، والروح المعنــوية ، والتدريب لمختلف الوحــدات والتشكيلات الميدانية ذات فائدة كبرى فى مقارنة الكفاءة القتالية للخصــوم بالاضــافة الى ضرورة الاحاطة بأســاليبهم ونظرياتهم القتاليــة .

فخير للدارس أن يبذل جل اهتمامه فى تحصيل ذلك ، عن تشتيت جهده فى حفظ أمور لا طائل من ورائها مثل أسماء الهيئات ، وأرقام الوحــدات والتشــكيلات والأزمنة والتوقيتــات ومختلف البيانات والأرقام .

ـ ولقد توصل العلماء خلال القرن الماضى الى حصر مبادىء الحرب التى تشكل كافة العناصر الأساسية للنجاح ولتحقيق النصر

وكان الاعتماد الأول فى حصر تلك المبادىء على التاريخ العسكرى وفن الحرب على مدى التـــاريخ · وقد حـــدث بعض الاختلافات الثانوية بين المدارس العســكرية فى ترتيب أسبقيات هذه المبادىء بالاضافة الى بعض الاختلافات الطفيفة فى مبدأ أو اثنين منها ·

فالمدرسة العسكرية الغربية تختلف فى ترتيب أســـبقيات مبادىء الحرب تبعا للمدرسة الأمريكيـــة والانجليزية والفرنسية والألمانية ·· الخ وقد تبلورت جميعها فى حلف شمال الاطلنطى ، وكذلك المدرســة العســكرية الشرقية وان كانت اختلافاتها طفيفة الا أنهــا تظهر بوضــوح فى المدارس المختلفة مثـــل : بولنــدا ، ورومانيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وقد تطورت فى حلف وارسو ·

ويجب أن ننوه فى هذا المجال ، بأنه لا يوجد أوجه اختلاف جوهرية سواء فى المدرسة الغربية أو المدرسة الشرقية فى الحرب التقليدية فقد اتفقت كلتا المدرستين بأفرعهما المختلفة على تحديد مبادىء الحرب فى الآتى :

(أ) المحافظة على الغرض ·
(ب) العمل التعرضى ·
(جـ) السيطرة (وحدة التبادل ـ التعاون) ·
(د) الحشـــد ·
(هـ) الاقتصاد فى القوى ·
(و) المنــاورة ·
(ز) المفاجــأة ·
(ح) الأمن (السلامة) ·

وترجع أهمية مبادىء الحرب لدارسى التاريخ العسكرى الى كونها تشكل له الخلاصة المنشودة من الدراسة التاريخية ، فهى المقياس الواقى لتحديد نجاحه أو فشله فى حصر النتائج المرجوة منها ، فاذا ما وجد نفســـه قادرا على حصر مبـادىء الحرب التى أحسن أحد الأطراف تطبيقها فحقق بها النصر ، أو أغفل عنها الطرف الآخر فلحقت به الهزيمـة فانه يكون بذلك قد حقق الهدف المنشود من دراسة التاريخ العسكرى ٠

ثانيـا : تعريف ومنهج فن الحرب :

تعريـــف :

يعتمد على تجميع الحقائق والأحداث للحرب الماضية ، ثم تحليل طرق تحضـير وادارة هذه الحروب لتوضيح الاتجاهات الرئيسية فى تطوير الاستراتيجية والفن التعبوى وفن القتال (التكتيك) ٠

وتساعد نتائج خبرة الماضى على استنتاج قوانين فن الحرب والتنبوء الصحيح لاتجاهات التطور التالى للنظريات العسكرية ، وبناء القوات المسـلحة فيما بعد الحرب بناء على ما يسـتجد من الأسلحة ووسائل الصراع ٠

ـ اعتـــاد كل مؤرخ فى الوقت الحالى أن يتكلم عن المعركة أو الموقعة بعد تجزئتها الى مواقع أو معـارك ويقصد بهـا التاريخ العسكرى وتاريخ فن الحرب ويصحبها مع بعضها البعض وان من يتكلم عن فن الحرب وحده يبدو جريئا لحد التهور فلم يعد أحد اليوم يؤمن بالعبقرية العســكرية وقد انحرف بعض المؤرخـين العسكريين أمام طوفان الحروب ودراسة قرارات القادة العسكريين والأخطاء التى وقعوا فيها والدروس المستفادة منها (مثل الرسوم

القديمة وما تتميز به من بساطة ساذجة وألوان زاهية والتى كانت صورا لحضارة قديمة تمر بعملية تحليل) •

ـ ان التقسيم البسيط للمدرسة الغربية لفن الحرب بأقسامه الثلاثة هو استراتيجية التكتيك ، والى قسم فرعى ثالث ظهر فى العصر الحديث وهو الشئون الادارية فالتكتيك هو فن استخدام الأسلحة فى الموقعة الحربية بطريقة أكبر تأثيرا ، أما الشئون الادارية فهى تشمل الاعداد والتحرك ، ان كلا من التكتيك والاستراتيجية يختص كلاهما بتفاعل العوامل العسكرية ولذا فكلاهما يختلف عن طبيعة العلوم التطبيقية كالهندسة والفلك والطب والاجتماع مثلا •••• الخ •

أما الاستراتيجية فهى التفاعل المجرد النابع من تصادم الارادات وهى الفن الذى يمكن الانسان (بصرف النظر عن التكتيك) (فن القتال المستخدم) من السيطرة على المشكلات التى تنتج عن أى صدام بين الارادات ثم تبعا لذلك يستخدم التكنيك(الاسلوب) بأكبر قدر من الكفاءة كذلك فان أحد مفاهيم الاستراتيجية أنها فن الحوار بين اراداتين متضادتين تستخدمان القوة فى حل خلافاتهما •

ـ ان الاستراتيجية لا يمكن أن تكون نظرية محددة وانما هى أسلوب للتفكير بغرض تقنين الحوادث فى نظام الأسبقيات ثم اختيار أكثر الطرق تأثيرا • وتبنى الاستراتيجية على التكتيكات أساسا فقد يكسب طرف تكتيكا ويخسر المعركة استراتيجيا ، ومن هذه أمثلة كثيرة أولها حرب العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ حيث انتصرت فيه القوات الانجليزية/الفرنسية/الاسرائيلية تكتيكا وأدى الى هزيمة استراتيجية و (سياسية) مخيفة ومن هذا كان التجاهل الاستراتيجى هو الخطأ المميت فى القوات المهاجمة •

– مما سبق نجد انه يجب على دارسى تاريخ فن الحرب ان يدرس الخطة وما تشتمل عليه ، ففى مقابل كل فعل مفترض يجب ان تسحب الاستراتيجية رد فعل العدو التى قام بها • وقد يكون رد الفعل هذا دوليا أو قوميا ونفسيا أو سياسيا أو اقتصـــاديا أو اجراءات رد الفعل الجانب الآخر على هذا العمل بحيث تكون هذه الخطة بناءا واحدا متماسكا • هل احتفظ بمقدرته على متابعة الخطة بالرغم من مقاومة الطرف الآخر وكيف انه تعرض لمخاطـر الانتكاسة وأوصله الى صراع يدور على المسرح العالمى وكيف أنه ازداد تعقيدا وكيف كان الضغط الذى يمارسه الحلفاء أو حتى الدول المحايدة حاسما •

فنجد أن ألمانيـا خسرت حربين نتيجة لفشلهـا فى استيعاب وفهم هذه النقطة حيث أنها دفعت انجلترا الى أن تقف ضدها عندما غزت بلجيكا ، كما دفعت أمريكا الى نفس الموقف بسبب حـرب الغواصات كما يجب على الدارس لتاريخ فن الحرب أن يملك التقدير الصحيح لتأثير الموقف الدولى على حرية الطرفين المتصارعين فى العمل •

– كان ينبغى أن تكون الاستراتيجية العسـكرية التقليدية مفهوما تاريخيا أكثر من غيرها الا أنها فى الواقع ليست كذلك . فغالبا ما كانت قواعد الاستراتيجية تنزوى فى الركن بسبب ما كان يحدث من تطورات أكثر أهمية وقتها فى دراستها من غيرها • وكانت الاستراتيجية العسـكرية التقليدية دائما تحد الى حد ما من اطار الحرب الشاملة • فمثلا يوجد هناك بصفة مستمرة عنصر اقتصادى ومالى ، وهناك دائما عنصر سياسى هام ذو طبيعة عقائدية فى العادة :

ونادرا ما وقع صراع لم تلعب فيه هذه العوامل دورا ما ٠٠ فهذا هو الاطار العام والذى يعتبر أساسا واجب الحكومة أو الحاكم وقد اختلف الدور الذى لعبه الجيش داخل هذا الاطار ٠ وبالرغم من أن الجيش كقاعدة عامة يعتبر أكثر العوامل أهمية الا انه كان العامل الحاسم فعلا فى أوقات معينة وملائمة فقط ولهذا السبب فان دور القوات المسلحة كان الدور المميز فقط فى الحالات التى تكون فيها القوات المســـلحة قادرة بنفسها على تحقيق النتيجة (احراز النصر) ٠

ـ وعلى هذا فان دارس تـاريخ فن الحرب يجـد أن العوامل الضرورية فى الاستراتيجية العسكرية التقليدية تتمثل فى القدرة على تفهم متغيرات فن الحرب أسرع من تفهم العدو لها ٠ وبذا يصبح فى وضع يمكنه من التنبؤ بما سيكون لهذه العوامل الجديدة من تأثير وقد ساعدت هذه المتغيرات فى بعض الأحيان ، كما انها أعاقت فى أحيان أخرى ـ وفى كل مراحل القتال اختل توازن الرجال وقتها لأن طرق الحل القديمة فقدت صلاحيتها ، وحتى طرق الحل الجديدة التى بدت على السطح وكأنها الاجـابة الكاملة عادة ما تكون مؤثرة لفترة محدودة فقط ، لذلك فان المفتاح الرئيسى للاســـتراتيجية العسكرية هو فهم العملية التى تتطور بها قدرة القوات المسلحة على احراز الحسم ٠

ـ ان الحسم العســكرى بمعناه الحرفى هو نتيجة الموقعة الحربية الناجحة وهو ما يعرف بالاستراتيجية فى الموقعة الحربية ولقد كانت هناك عوامل عديدة ومختلفة من المواقع الحربية ، ولكن يمكن تبسيط الموقعة الحربية فى صيغة بسيطة نسبيا بتصوير ان هناك ما يشبه (جدارين) بشريين من المتحاربين يواجهان بعضهما البعض ٠

لذا فان استراتيجية الموقعة الحربية هى فى جوهرها شىء بسيط غير معقد الا أن أدواتها بشر وليست آلات رغم أن البشر ما هم الا آلات نافعة والجيش عبارة عن مجموعة منظمة ، يربطهم معا الانضباط والثقة المتبادلة وعلى ذلك فان الموقعة الحربية تمكن من الحفـاظ على الترابط النفسى بين القوات وتدعيمه ، وفى نفس الوقت تمزيق ترابط العدو النفسى ، والعامل النفسى ذو أهمية بالغة فى دراسة تاريخ فن الحرب ـ وهنا يمكن القول بأن الحسم قد يتحقق أحيانا بالوسـائل العسـكرية فقط نتيجة الاسـتراتيجية المتفوقة ، ولكن بدون موقعة حربية كبرى والمعنى الحرفى للكلية ٠

ـ ان الدراسـة لتطور تاريـخ فن الحرب فى الماضى توضح ازدياد أهمية المناورة بسبب خفة الحركة العاليـة التى طرأت على القوات الحديثة بسبب خفة الحركة ووسائل المواصلات السريعة ٠

وكذلك فان توفير القوات الجـوية والقوات المنقولة جـوا أعطى عمقا كبيرا للموقعة الحربية البرية ، وجعل حدوث الموقعة الحربية فى منطقة بعيدة وليس على أول الجبهة شيئا ايجابيا ٠

ـ وعلى هذا يمكن لدراسى تاريخ فن الحرب دراسة النقاط الموجزة من هذا التحليل القصير ٠ تفصيليا وليس الخروج بالدروس المستفادة ٠

(أ) تزاوج العامل الرئيسى فى العمليات بصفة أساسية بين الحركة من جهة وبين القوة من جهـة أخرى ، وتوفر كـلا منهما أو احداها فى طرف عن طريق الطرف الآخر ٠

(ب) ان عملية التطور محكومة الى درجة كبيرة بالعوامل التكتيكية ، ويمكن تلخيص هذه العوامل التكتيكية ، والتى تعتمد على التسليح والمعدات وأساليب القتال فى الآتى :

١ ـ القدرة الهجومية لطرف عن الآخر •

٢ ـ القدرة الدفاعية لتميز امكانيات دفاعية لطرف عن آخر •

٣ ـ خفة الحركة الاستراتيجية (أى خفة الحركة قبل الموقعة الحربية) •

٤ ـ خفة الحركة التكتيكية (أى خفة الحركة أثناء الموقعة الحربية نفسها) •

(جـ) ان دراسة حجم القوات المتيسرة بالمقارنة بالمكان يعتبر عاملا هاما لدارسى تاريخ فن الحرب •

(د) دراسة الفترات التى كانت العمليات غير قادرة خلالها على الوصول الى الحسم وتحول الاهتمام الى الاستنزاف فكانت النتيجة عبارة عن مجهود رئيس حربى ضخم وانهاك للمحاربين •

(هـ) اعتمادا على الأهمية النسبية للعوامل السابقة فان دارس تاريخ فن الحرب يجب عليه أن يعرف اذا ما كانت العمليات خفيفة الحركة ولكن غير حاسمة أو كانت خفيفة الحركة ولكن غير فعالة هل كانت ممتدة على مسافات طويلة أو ثابتة فى منطقة محدودة •

ـ ان استراتيجية العملية متغيرة باستمراره وان وضعها فى الاعتبار للقادة دارسى تاريخ فن الحرب وفهم دمينكانيكية استراتيجية العمليات لن تفاجئهم متغيراتها وخاصة اذا استطاعوا ان يفهموا هذه

التغييرات ، أسرع وأدق من فهم العدو لها وخاصة اذا كانت هناك الخلفية العملية فى تاريخ فن الحرب ودراســـة عاملة لتاريخ استراتيجية الحروب وان اختيار سير العمل الذى يجب أن يقوم به القائد هو مجال من مجالات الاستراتيجية وان هذا الاختيار هو الذى يجب اتباعه أثناء أى عملية ٠

ـ وهنا يجب أن نلقى نظـرة سريعة مختصرة على المناورات الرئيسية التى تشملها العمليات الحربية ٠

(أ) عندما تكون موارد طرف متفوقة على طرف آخر والقوات الضاربة للطرف الأول كافية ، تدار الحملة هجوما وسوف يكون هدفها موقعة حاسمة ٠

هذه هى الاستراتيجية الهجومية التى تستخدم الاقتراب المباشر وأهدافها حشد أقصى الموارد ضد القوات الرئيسية للطرف الآخر ٠

(ب) اذا لم يكن تفوق طرف واضحا تماما عن الطرف الآخر أو اذا قل عنه فاحتمال أن يؤدى العمل الهجومى الى تحقيق شىء نتيجة للظروف التكتيكية فهناك بديلان محتملان هما :

١ ـ انهاك الطرف الآخر بالعمل الدفاعى يتبعه هجوم مضاد وهذه هى الاستراتيجية الهجومية/الدفاعية المباشرة ٠

(جـ) اذا كانت الموارد العسكرية المتوفرة غير كافية لتحقيق النتيجة المطلوبة فان العمل العسكرى سوف يلعب دورا مساعدا فقط ، وعندئذ سوف تصبح المناورة جزءا من استراتيجية شاملة وبذا يتحقق الحسم بالمزج المناسب بين العمل السياسى والاقتصادى والدبلوماسى ٠

ـ مراحل دراسة تاريخ فن الحرب :

أولا : مرحلة الدراسة :

ظهر تاريخ فن الحرب كنوع خاص من التاريخ العام للمجتمع الانســـــاني ليفتح مجـالات البحث المتخصص فى تطور الأعمال الحربية · واحتل هذا العلم مكانة مرموقة بين سائر العلوم بل وتصدرها فى بعض مدارس الفكر العسكرى المعاصر بسبب سرعة معدل التقدم والتطور في المجالات العسكرية عنه في باقى المجالات الأخرى مما جعله رائدا لأنشطة التقدم والتطور فى باقى العلوم الانسانية ·

وتعمل دراسة تاريخ فن الحرب لاستخلاص خبرة حرب معينه على مرحلتين متميزتين تختلفان فى الهدف والتوقيت والأسلوب ·

(أ) **المرحلة الأولى للدراسة** : تبدأ مع دراسة الحرب أو حتى قبلهـــا وتنتهى معها ولهذا فهى بالضرورة دراسة عاجلة وتسمى دراسة معاصرة ·

(ب) **والمرحلة الثانية** : تبدأ بانتهاء الحرب وتستمر مهما توالت الأيام والقرون ولهذا فهى بالضرورة دراسة متأنية وتعد دراسة تاريخية معتمدة على المصادر ·

المرحلة الأولى للدراسة .

وتهتم الدراســـــة فى المرحلة الأولى بسرعة تحليل الحوادث لتعميم خبرة القتال الدائر والتأكد من وصول الدروس المستفادة منها الى الجيوش والتشكيلات والوحدات لينتفعوا بها فى الحرب

أو العملية أو المعركة الدائرة حتى يعززوا أوجه النجاح ويجنبوا الوقوع فى نفس الخطأ مرتين • وتعتبر الملاحظات الشخصية البناءة والآراء الايجابية المتزنة لمن أسهموا فى التخطيط والقتال مصادر اضافية ، الى جانب الأصول التاريخية من وثائق وخرائط وجداول وسجلات ويوميات وتقارير • ومن المتفق عليه أنه كلما بعدت الشقة بين وقوع الحادث والادلاء بالشهادة كلما قل الاعتماد عليها كمصدر للتسجيل وبالمثل فكلما كان الشاهد متورطا فى خطأ أو فشل فسوف تأتى شهادته محاولة للتبرير أكثر منها سردا للوقائع وقد تذهب الى القاء الخطأ أو اللوم على الغير فتتحول من شهادة أمام التاريخ الى دفاع ضمير أمام الشعب •

وبهذا تقل قيمتها حتى تنعدم وفى حالات النصر والنجاح يعمد بعض القادة والرؤساء الى المبالغة فيما أسهموا به من نشاط على حساب حجب أو تهوين أنشطة الآخرين كما قد يبالغوا من قوة العدو تضخيما لنصرهم لكل ما سبق ينبغى أن نؤخذ هذه الشهادات بالحذر والروية الواجبين ، وأن تقارن ببعضها البعض لاستبعاد الجزء الزائف أما التوجيهات والتعليمات وأوامر القتال والخطط والجداول والمخططات والخرائط والنشرات والسجلات واليوميات والتقارير فكلها ذات أهمية بالغة فى دراسة واستخلاص خبرة الحروب وخاصة بعد التأكد من أنها وثائق أصلية لم يدخل عليها تبديل أو تنسيق يبعد بها عن الحقيقة والواقع •

ـ عند تقييم ودراســة طبيعة ومستوى الحديث ـ حرب أو عملية أو معركة ينبغى الاعتماد أساسا على الوثائق الرسمية للدولة وعلى توجيهات وتعلميات القيادات العليا والأفرع الرئيسية للقوات المســلحة ، كما يلزم الاهتمام أيضــا بدراسة الوثائق والمعلومات المتوفرة عن الخصم أو الخصــوم وكل ما صــدر فى

المكتبات المحلية أو العالمية من مطبوعات أو مقالات عن نفس الحادث ويساعد الأرشيف العسكرى على حفظ كميات هائلة من الوثائق التى يلزم ترتيبها وتصنيفها بطريقة منظمة وتصويرها بالميكروفيلم حتى يسهل التعرف عليها ، وأخذ صور منها للدراسة التفصيلية كلما استدعت الحالة ذلك ٠

وبمجرد الوصول الى دروس مستفادة أو خبرات مستنبطة من الحادث سواء كان حربا أو عملية أم معركة تمس عناصر التاريخ العسكرى فى القيادة العامة وما دونها من مستويات بالاشتراك مع عناصر العمليـــات بتوزيع تعميمات وملخصات الخبرة على القوات لتستفيد من هذه الدروس والخبرات فى القتال الدائر فتعزز بها أوجه النجاح وتتجنب أوجه الفشل ٠

ـ المرحلة الثانية للدراسة :

فتبدأ مع انتهاء الحرب وتجرى بطريقة أكثر تأنيـــا وصـــولا للبحث عن الخبرات الحقيقية وكل ما يتعلق بالجوانب السياسية والاقتصـــادية والاجتماعية والمعنوية والعسكرية من الصراع بهدف الوصول الى الخبرة المكتسبة ونقلها الى العسكريين والعاملين فى مجالات الأمن الوطنى من المدنيين على أوســـع نطاق مع تبسيط ما يفيد منها الشعب والأمة وتزويده بها لرفع مستواه الثقافى وضمانا لاسهامه وانتمائه فيما قد يلى من صراعات ٠

وهناك خطوط هامة يلزم الاسترشاد بها فى مجال الدراسة الثانية للصراع المسلح يمكن اجمالها فيما يلى :

(أ) البحث عن الدروس المستفادة المستنبطة من مقارنة وجهة النظر لمختلف الأطراف المتصارعة وليس الاقتصار على طرف واحد فحسب ٠

(ب) تجنب المغالاه فى تقرير نجاح قواتنا وحلفائنا والاستهانة بالعدو وتحقير شأنه بدافع من الوطنية الجارفة ، أو البغضاء التى نكنها له ٠

(جـ) الاندماج مع الظروف والزمان والمكان الذى وقع فيه الحدث وقياس الانجازات بمقايسها فى ذلك الوقت وليس بمقايس الحاضر ٠

وينطبق ذلك بصفة خاصة على الحروب والعمليات والمعارك التى بعدت بها السنين أو القرون ، وتغيرت الظروف والأساليب والأدوات تغيرا جذريا أو كبيرا ٠

ثانيا : عناصر الدراسة لتاريخ فن الحرب :

ـ وفيما يتعلق بدراسة أنشطة الأطراف المتصارعة فى مسرح أو أرض المعركة فانها يجب أن تتناول بالقدر الكافى كل العناصر التالية :

(أ) الظروف السائدة محليا ودوليا : قبل اشتعال هذه الحرب أو تلك المعركة لتحديد دوافعها الحقيقية ، وأطراف معسكرى الصراع والأطراف المحايدة ، وأثر كل ذلك على سير القتال ٠

(ب) الهدف من الحرب أو العملية أو المعركة : ويعتبره علماء التاريخ العسكرى بالغ الأهمية فعلى هذا سيتحدد نجاح أو فشل الدراسة نفسها ٠

فليس من المنطقى أن تسوق من أوجه القصور ما لم يكن العدو نفسه ينشد تحقيقه ، ولا يستساغ أن تهمل الحديث عن انجازات كان العدو يعتبرها حجر الزاوية فى النجاح ٠

(ج) طبوغرافية/ديموجرافية ومناخ المسرح :

ان الأرض بتضاريسها وهيئاتها وموانعها الطبيعية وكل ما هو مقام فوقها من انشاءات وتجمعات سكانية ذات تأثير مباشر وأكيد على سير القتال ٠

وهذا يجل دراستها بالتفصيل أمر لا خيار للدارس فيه حتى تتصف دراسته بالواقعية ، ان الجزم بسلامة التحركات الحربية والادارية فى أرض المعركة لا يتأتى بدون دراسة الأرض ٠ كما أن للمناخ تأثيرا على أنشطة القوات المتصارعة وحجم انجازاتها ، بل وقد يتسبب المناخ فى الفشل بأكثر مما تسببه باقى العوامل المؤثرة الأخرى ٠

وتؤثر الجغرافية العسكرية على طبيعة الحرب عن طريق أبعاد ومساحات المسارح وأعماق الدول المتحاربة ٠ فالدولة التى يتوفر لها عمق استراتيجى كبير تكون أقدر على انتهاج أساليب قتال لا تقدر عليها الدول ذات الأعماق الصغيرة والمسارح المحدودة ٠ ولعل الصراع العربى الاسرائيلى أفضل دليل على ذلك ٠ وفى المسارح الصحراوية الجبلية تختلف طرق وأساليب القتال عنها فى الغابات أو المناطق المبنية ، كما أن تعدد أنواع المسارح يتطلب أنواعا متعددة من الأسلحة والمعدات وأحجاما مختلفة من التنظيمات والتشكيلات ، وأساليبا متغيرة للتدريب واكتساب الخبرة القتالية ٠

(د) القوات المتضـــادة :

المقـارنة العددية والنوعية للأســـلحة والمعدات والأفـراد والأساليب والعقائد الحربية ذات الأهمية الخاصة بهذه المقارنة يمكن اصدار الحكم الصـــائب على تطور القتال وانجازاته دون الاجحاف بأحد الأطراف أو اعطاء خصمه أكثر مما يستحقه فنجاح الأسطول البريطانى فى تدمير طوابى الاسكندرية صيف عام ١٨٨١ لا يعود فى حقيقته الى مهـارة غير عادية من الأميرال « سيمور » لو كانت طبيعة السـاحل أتاح له تدميرها وهى على مسـافة أمن كافية من النيران الساحلية .

وكان انتصار السلطان سليم العثمانى على السلطان قنصوه الغورى المملوكى بمرج دابق عام ١٥١٧ مرجعه توفر أسلحة البارود لدى الأول مقابل الأسلحة البيضاء لدى الثانى .

(هـ) خطط الأطراف المتصارعة : للكشف عن مظهر وجوهر الأعمال القتالية المخططة ومدى انطباقهـا أو خروجهـا على النظريات والقواعد التقليدية للعمليات البحرية والمعارك العسكرية ، وسمات الابتـــكار فى استخدام الموارد والامكانيـات على أفضـل الوجوه بالاضافة الى مقارنة المساحات والابعاد مع تلك المتفق عليهـا فى مدارس الحرب المختلفة ، وكذا كفاءة الأفراد والنيران والمعدات والأسلحة لدى الطرفين المتحاربين وموقفهما الجوى والبحرى والدفاع الجوى على جبهات تركيز الحد الرئيسى وفى جبهات المجهود الثانوى والخروج من كل ذلك بنقط القوة والضـــعف فى خطط الأطراف المتحاربة بالتفصيل .

(و) سير القتال بصرامة ومهامه المتتالية حتى نهاية المعركة أو العملية أو الحرب للوقوف على توقيتات انجاز هذه المراحـل

والمهـام ، ومدى مطابقتها مع التوقيتات الموضـــوعة فى الخطط أو تجاوزها • وأسباب ذلك • وكذلك تحديد مدى الالتزام بالخطط الموضوعه مسبقا ، وأسباب الخروج عنها ، مع البحث عن البدائل وطرق الحل المفتوحة حيال كل موقف طارىء ، وأكثر ما ينفذه القادة والرؤساء من قرارات لتطوير القتال نحو النجاح أو الفشل •

(ز) النواحى الادارية والفنية ومدى دعمها أو عرقلتها القتال الدائر وحجم ونوعية وتوقيت الامدادات المرسلة الى جبهات القتال وتلك التى قد تحملها جسور الامداد الجوى أو البحرى الى مسارح الحرب من الدول الصديقة أو الحليفة ، وتأثير كل ذلك على موقف القتال فيها •

(ح) نتائج المعركة أو العملية أو الحرب على المستوى المحلى والاقليمى والدولى وفى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثانوية والمعنوية والعسكرية •

(ط) الدروس المستفادة والخبرات المكتسبة التى تشـــكل حجر الزاوية فى تطور وتعديل الأســلحة والمعدات والأســاليب والتنظيمات الحربية للوصول بها الى أعلى درجات الفاعلية والكمال •

(ى) مدى تطبيق مبادىء فن الحرب وأثر ذلك على نتائج الصراع المسلح وعواقبه •

٤١ ــ ويعتبر باحثى تاريخ فن الحرب أن الدراسة التى تهمل أحد أو بعض النقاط العشرة سالفة الذكر سوف يكون ضررها أكثر من نفعها ، خصوصا اذا ما قادت الدارس الى استنتاجات خاطئة أو قفزت به الى نتائج غير سليمة لا تقوم على ركائز قوية من التحقيق والمقارنة والتحليل والشمولية •

ثالثا : الدراسات العليا (الدراسات المتقدمة) :

٤٢ ـ بعد أن يملك دراسى التاريخ العسكرى القدرة الذاتية على هذا العرض فالتحليل يمكنه أن ينتقل الى معالجة الدراسات المتقدمة التى تعتمد على عقد المقارنات وكشف أوجه الشبه والاختلاف بين المعارك والعمليات الحربية والحروب وصولا من كل ذلك الى مناقشة الظواهر المتكررة التى تحدد القواعد القياسية العامة لاستنباط قوانين الصراع المسلح التى تصلح لاعداد الدولة وقواتها المسلحة وفق أحدث الطرق وأفضلها لأمنها الوطنى وتنشيط عملية نموها وازدهارها • أما اعادة عرض ديناميكية المعارك والعمليات الحربية للحروب السابقة مع تطور أساليب وأسلحة أو معدات حديثة لم تكن مستخدمة وقت حدوثها تعتبر المرتبة العليا فى دراسة التاريخ العسكرى والذين أنهوا دراسة التاريخ العام وبذلك تصبح دراسة التاريخ العسكرى وسيلة للحصول على الخبرة والعبرة من الحروب الماضية وليست غاية لاستعراض المعلومات بحفظ الحوادث التاريخية عن ظهر قلب دون فهم حقيقى لمدلولها ومغزاها ، لأن هذه الدراسة المتأنية الشمولية هى الوسيلة المضمونة نحو فهم أفضل لأسباب النجاح أو الفشل فى الصراع المسلح وهى السبب الى تعزيز النجاح وعدم الوقوع فى نفس الخطأ أكثر من مرة •

وان الوصول الى استنتاجات وخلاصات سليمة سوف يساعد دائما على فهم أعمق للتاريخ العسكرى •

٤٣ ـ الأسس المنهجية لدراسة تاريخ فن الحرب :

الأسس المنهجية هى مجموعة أساليب البحث عند تطبيقها بالنسبة لموضوع عام أو موضوع محدد وعند دراسة تاريخ فن الحرب يجب الاسترشاد بالاتجاهات الرئيسية لأسلوب البحث المعاصر •

(أ) الحرب ظاهرة اجتماعية وتاريخية :

ان الحرب ليست مســـألة خالدة ، بل هي ظاهرة حتمية للصراع بين المجتمعات المتعارضة والطبقات المتصارعة والتي تنبع من محاولة طبقة (أو مجتمع) استغلال طبقة (أو مجتمع) أخرى وفرض سيطرتها عليها .

والحرب هي استمرار للسياسية ولكن بوسائل أخرى أشد عنفا . ولدراسة طبيعة الحرب بطريقة علمية يجب استخلاص الآتى :

١ ـ أهداف الحرب .

٢ ـ الطبقات أو المجتمعات التى اشتركت فى الحرب .

٣ ـ الأحوال الاجتماعية والاقتصادية التى واكبت الحرب .

٤ ـ السياسات التى أدت الى الحرب .

وهناك رأى ينادى بوجوب معرفة القوى المحركة التى أدت الى اشعال حربين عالميتين والتهديد باشعال حرب ثالثة نووية . الطبيعة العـادلة أو العدوانيـة للحرب ، وهى التى تحدد التأثير التقدمى أو الرجعى على تطور المجتمع البشرى ، وتنقســم الحروب من حيث طبيعة الأهداف الى حروب عادلة وغير عادلة وهى مسألة نسبية لكل طرف من الأطراف .

ـ والحروب العادلة هى حروب التحرير والحروب الوطنية والتى تدار لتحرير الشعوب أو تحرير أرض محتلة وهذه الحروب بصفة عامة تؤدى الى زيادة دفعة التطور التاريخى للمجتمع الانسانى .

والحروب غير العادلة هي تلك التي تشن بهدف الاستيلاء على أراضي الغير أو استغلال شعوب أخرى أو لاخماد حركات التحرر الوطني والثورات الشعبية ·

(ب) اختلاف الايدولوجيات هو المصدر الرئيسي للحروب في العصر الحالي :

طالما أن هناك اختلاف في الايدولوجيات ، والتي غالبا ما تسعى الى استغلال الشعوب ومصادر ثرواتها والسيطرة عليها فسوف يستمر خطر الحرب ، ففي العصر الحالي أدت أطماع الدول العظمى الى اشتعال الحرب فالغايات السياسية للمحاربين هي التي تحدد كما أشعلت الدول العظمى في مختلف أنحاء العالم الكثير من الحروب المحلية التي استهدفت اخماد حركات التحرر الوطني والثورات الوطنية التي قامت ضد الاستغلال الأجنبي أو المحلي وذلك بهدف الاستيلاء على أراضي الغير (الحروب الاسرائيلية العربية الأربعة) أو استعباد الشعوب الأخرى · (الحرب الروسية/ الأفغانية) وقبلها (الحرب الأمريكية في فيتنام) وفي نفس الوقت فان الدول العظمى ليست هي القوة المحركة الوحيدة في العالم ، حيث تقف في مواجهتها حركة التحرر الوطني العالمي المستمرة في النمو ، والتي يمكن أن تؤدى الى تخلخل ميزان القوى العالمي ·

(ج) ارتباط دور الجيوش والحروب بدور الملكية الخاصة والطبقات والدول :

الجيش هو الأداة الرئيسية للحرب والسياسة في أيدي الطبقة الحاكمة ولقد تميزت مختلف الجيوش بالطبيعة الطبقية لدولها ويظهر ذلك في نظام استخدام القوى البشرية · وتنظيمها ، أسس ومبادىء التدريب ، والعلاقات السائدة ، والدور القياسي للطبقات داخل المجتمع ·

وفى الدول التى تحاول فرض سيطرة معينة داخل الجيش تتحول هذه الجيوش فى آخر المطاف الى وسيلة سيطرة فى أيدى الطبقات الحاكمة لاخماد حركات التحرر الوطنى وتتطلعات شعوب تلك الدول ·

(د) الحرب تخضع لقوانين معينة مثل باقى الظواهر الاجتماعية :

ان الصراع المسلح ـ مثل جميع الظواهر الاجتماعية ـ وتطور القوانين المسلحة ووسائل وطرق وأشكال ادارة الحروب (والعمليات والمعارك هى وسائل لا تحدث صدفة ولكنها تخضع لقوانين معينة · وفى عالمنا المعاصر لا يوجد علم واحد يمكنه الاحاطة بكل جوانب الحرب · ولهذا فان الحرب هى موضوع دراسة شاملة تقوم بها علوم السياسة والفلسفة والاقتصاد والعلم العسكرى ·

ويدرس العلم العسكرى ظواهر الصراع المسلح وقوانينه الموضوعية ويحدد طرق تعميق النصر بوسائل العسكرية · ويبحث العوامل التى تؤثر على سير الحرب مستفيدا فى ذلك كله بالمعلومات والبيانات التى توفرها باقى أنواع العلوم ·

والتاريخ العسكرى كأحد المكونات الرئيسية للعلم العسكرى وتاريخ فن الحرب هو أهم مكوناته ·

(هـ) التغيير المستمر لطرق ادارة الصراع المسلح والعمليات والموقعات والمعارك :

يوضح تاريخ فن الحرب اعتماد طرق فن الحرب على مستوى وطرق الانتاج ويظهر ذلك من اعتماد التسليح والتنظيم والتكوين والأساليب على مستوى الانتاج وطرق المواصلات فى المرحلة المعينة فقد أدى الاستخدام الواسع لمدافع الماكينة والمدفعية فى الحرب العالمية الأولى الى ظهور ما أطلق عليه اسم « حرب الخنادق »

(الحرب الثانية) كما أدى الاستخدام الواسع للقوات المدرعة الميكانيكية بالتعاون مع الطيران فى الحرب العالمية الثانية الى ظهور أشكال وطرق متطورة لادارة الصراع المسلح . وأخيرا فان الأسلحة ومعدات القتال الحديثة شديدة التفجير وخاصة الصواريخ والأسلحة النووية والحاسبات الالكترونية والرادار وباقى المعدات والأجهزة الالكترونيــة قد أدت جميعا الى أحداث تطـورات جذرية فى طرق وأشكال الصراع المسلح .

(و) تأثير القوانين الموضوعية للصراع المسلح على تطور فن الحرب :

يهدف التاريخ العسكرى ـ قبيل كل شيء ـ أى اظهار القوانين الموضوعية للصراع المسلح و « وتحديد » ـ أثيرها على التطور الى فن الحرب ، والقوانين الموضوعيــة هى التى تتحــكم فى تطور فن الحرب من خلال العوامل الشخصية أو الذاتية :

أن معرفة القوانين الموضــوعية (المبادىء) تساعد على تجنب الأخطاء فى العمل ويمكن منهــا التنبوء بســـير الأحداث وتنفيذ الاجراءات فى الوقت المنــاسب لاحبـــاط أعمال العدو ، واتخاذ القرارات الجريئة الصحيحة والتحكم فى ســـير الأحداث وفرض الارادة على العدو .

ومعرفة القوانين الموضوعية لتطور فن الحرب يجعل من الممكن بصحة فهم مستواه الحالى التنبوء باتجاهاته فى المستقبل وتساعد القادة على حــل المســـائل الهامة المتعلقة ببنــاء القوات المسلحــة واستخدامها فى الحرب .

---

(١) جيمس نيكولاس : مذكرات فى التاريخ العسكرى وفن الحرب ، ترجمة مختار الأيوبى ، دمشق ، دار الوادى للطبع والنشر ، ١٩٨٨ ، صص ٢١ ـ ٤٤ ، ٨١ ـ ١٠٢ .

الفصل الثانى

« نشأة الحضارات القديمة بمنطقة الشرق الأوسط »

تمهيد :

لا يخفى على المشتغلين بعلوم التاريخ والتأريخ ، قديمه ووسيطه وحديثه ، أن المؤرخ يجد متعة كبيرة فى البحث عن الحقيقة المجردة للأحداث والمعارك والأشخاص مهما كلفته هذه المهمة من متاعب ومشاق ، ومهما وقفت أمامه المصاعب والعوائق ، ومهما بعدت به الشقة للوصول لهدفه . فالبحث التاريخى متعة مجردة . يجد فيها المؤرخ سعادة غامرة . فالمجهول أمامه هو المراد الحقيقى ، فلولا هذا المجهول ما وجد المعلوم . ولا يتصور انسان مدى الانبهار الذى يعيشه المؤرخ عندما يصل الى ضالته المنشودة ، فانها بالنسبة له قمة النجاح .

ـ والبحث فى أحداث ما قبل التاريخ هى أمنية كل مؤرخ وباحث ، انها رغبة كامنة فى الأعماق ، لا تنافسها رغبة أخرى . فعندما يجد المؤرخ نفسه أمام مهمة من هذه المهام الصعبة ، فانها تمثل له الحلم الذى يراوده بين الحين والحين . وعند ذلك فانه يشمر عن ساعد الجد ، ويعد نفسه وأوراقه وأدواته لرحلة ممتعة عبر أحقاب تاريخية مجهولة للبشر والبشرية ، وهو فى هذه الرحلة يقترب بحذر شديد ، وبعقل واع وفكر متقد ، ومنهج تاريخى

موضـوعى ، يضـع فيه جل جهده لبيان الحقيقة مهما كلفته من تضحيات ومتاعب ٠

— وقبل أن نخوض فى موضوعنا الرئيسى وهو نشأة الحضارات القديمة بمنطقة الشرق الوسيط لا بد أن نوضح أن علماء الآثار قد اتفقوا بادىء ذى بدء على اطلاق أسماء أهم المعادن المعروفة على العصور التاريخية البارزة منذ القدم وأهمها :

أولا : العصر النحاسى ، ويمتد ما بين ٤٠٠٠ ق٠م ، حتى عام ٢٠٠٠ ق٠م ٠

ثانيا : العصر البرونزى : ويمتد ما بين ٢٠٠٠ ق٠م . حتى عام ١١٥٠ ق٠م ٠

ثالثا : العصر الحديدى ويمتد ما بين ١١٥٠ ق٠م الى عصر الصلب ٠

ولقد مرت الحضارات القديمة فى الشرق الوسيط ، وهى حضارات الآشوريين والمصريين والفينيقيين والحبشيين خلال تلك العصور ، وكان انتقال احداها من عصر معدنى الى عصر معدنى آخر يلاحقه تطور حضارى كبير ، كان له أكبر الأثر فى تطور شامل بعيد المدى (١) ٠

---

(١) عبد الرحمن فهمى (دكتور) : الجيش فى مصر القديمة ، القاهرة ، ادارة الشئون العامة للقوات المسلحة ، ١٩٦٨ — ص. ٨٩ ٠

« مفهوم ومدلول كلمة الصراع »

ـ قبل أن نخوض فى الحديث من نشأة الحضارات ، لابد لنا من توضيح مفهوم كلمة الصراع لأن قيام هذه الحضارات لم ينشأ من فراغ ، بل أنه سبق ذلك عمليـــات من الصراع بين البيئة والانسان • لذلك تميزت حركة التاريخ من البداوة الى الحضـارة بالصراع ، لأن التناقص بين جوهريهما واضح ، فان الصراع ملحمة قديمة قدم التاريخ البشرى بل تكاد تكون قد اقترنت بوجود الحياة على ظهـر الكرة الأرضية • ولقد اكتسبت هذه الكلمة مفهومهـا ومعانيهـــا وميادينها المتباينة خـلال المراحل والأحقاب التاريخية المختلفة التى مر بها العالم منذ وجد الانسان ، وبدأت معه أولى صور الحياة ـ وقد اكتسبت فى كل حقبة مفاهيم أكثر ، ومعانى أعمق وميادين أوسع ، جعلت منها الكلمة التى لها رنينها عندما تذكر ، ولها ثقلها ووقعها وأهميتها عندما تحدث •

ـ فالصراع بدأ بين الانســـان وبين الطبيعة المحيطة به من أجل البقاء (الحيوان ـ المنـاخ ـ النبـات) ، ثم بينه وبين قرينه الانســان ، ثم اتســع هذا الصراع ليكون بين الأسر ، ثم بين الجماعات ، ثم بين العشائر ، ثم ليكون بين القبائل ، ثم ليكون صراعا بين القرى ، ثم بين المدن ، ثم بين الشعوب ، ثم بين الأمم ، الى أن أصـــبح الصراع فى عصرنا الحاضر صراعـا بين التكتلات السياسية والاقتصادية والعسكرية •

ـ ويتسع مفهوم الصراع ليشمل صراعات من نوع آخر وفى ميادين مختلفة ، فهناك الصراع الديني ، والإيديولوجي ، والسياسي والعسكرى ، والاقتصـادى والاجتماعى ، والثقافي ، والعرقى ،

والصراع بكل أشكاله وأساليبه له أهدافه الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والعسكرية •

وكما اختلفت مفاهيم الصراع ومدلولاته وميادينه وأهدافه ، فقد اختلفت أيضـــا أساليبه ووسائله تبعا لكل عصر ، فالصراع بمعناه المعاصر يختلف بطبيعته عن سابقه فصراع الأمس غير صراع اليوم وان لم يختلف جوهر المعنى (١) •

كيف بدأ الانســان حياته جامعـــا على ظهر الأرض (البليوسين (Pliocene

ـ انقرضت تدريجيا الحيوانات الكبيرة الثديية برغم قوتها العظيمة ولم تستطيع مقاومة القوى الطبيعية التى استطاع الانسان أن يتغلب عليها • اذ طور الانسان فى نفسه المقدرة على مواجهة تلك الحيوانات التى كانت تنافسه فى السيطرة على الأرض • وبهذا أصبح تقدمه ساحقا لا يعرف الرحمة ، فاختفت الزرافة والفيل من شمال وادى النيل فى بداية العصور التاريخية • على الرغم من أن الأسلحة التى استعملها الذين عاشوا فى عصر ما قبل التاريخ كانت أسلحة بدائية كذلك تسبب الملوك المحبون للصيد فى بلاد الشرق القديم فى القضاء على الفيلة الآسيوية من سهول أعالى الفرات منذ بضعة آلاف من السنين •

ـ وهكذا نرى فى هذا المثل انتصار للانسان ، فان تفوقه لم يأت الا بطيئا جدا ، وعلى مراحل تدريجية • واستطاع العلم

---

(١) عز الدين اسماعيل أحمد (دكتور) : تحركات القوى العظمى فى افريقيا ، (انظر كتاب محاضرات الدورة الاعلامية التثقيفية عن افريقيا خلال الفترة ما بين ١٩٨٦/١١/٢٢ ـ ١٩٨٦/١١/٢٥) القـــاهرة • الجمعية الافريقية ، ١٩٨٧ ، صص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ •

الحديث أن يتتبع تطور تلك المراحل على مدى آلاف من السنين ؛ ونستطيع أن نرى بجلاء وخطوة بعد أخرى ، كيف ازدادت مقدرة هذا الانسان فى الدفاع عن كيانه بين العناصر المتنافسة على الحياة ، وتحصين نفسه أمام قوى الطبيعة ، وقد ازدادت الى حد كبير عندما أصبح هذا الانسان أول المخلوقات بل والوحيد من بينها الذى أمكنه صنع الأدوات · ولقد استخدم الانسان ذكائه لا لسد جوعه بما يجده من مواد غير حية فحسب ، بل استعمل هذا الذكاء لتشكيل بعض أنواع الجماد (الحجارة مثلا) لتصبح أدوات تساعده فى السيطرة على دنياه التى حوله وما فيها من كائنات حية أو غيرها ·

- - -

ـ وتقدمت خبرة الانســـان فى صناعة الأدوات والآلات ، وتدبير الحيل الآلية وكانت مقدرته فى صـــناعة الأدوات السبب الرئيسى فى تطور مركز هذا الانسان فى الحياة الانسانية · ولكى ندرك هذا التأثير يجدر بنا أن نتلفت أولا حولنا ثم ننظر الى الوراء ، فاننا جميعا نعرف أن أجدادنا لم يستمعوا فى حياتهم الى جهاز الراديو أو رأوا الطائرة عندما كانوا فى سن الطفولة · وان قليلا جدا من بينهم من استقل سيارة فى يوم من الأيام · وعاش آباء هؤلاء أكثر أيام حياتهم بغير ضوء كهربائى أو تليفون فى منازلهم · وكان أجدادهم مضطرين لقطع مسافات شاسعة فى عربات السفر التى تجرها الجياد · ومن بين هؤلاء من مات دون أن تكتحل عيناه برؤية القاطرة · فقد اخترعت هذه الأشياء الواحدة تلو الأخرى ووصلت الينا · وكل واحد من هذه الاختراعات يستند الى ما كان قبله ، ولولها لكان من المستحيل أن تتحقق اذا لم تسبقها أبحاث أقدم منها · واذا تعمقنا قليلا فى دراسة تاريخ الجنس البشرى فانه يسهل علينا أن نتصور اليوم الذى عاش فيه الانسان وكان من المستحيل عليه عمــل عربة ســفر أو أى نوع من العربات لأن العجلة لم تكن قد اخترعت بعد ولأن أحد لم يستأنس الجواد البرى

كما لم يكن ميسورا لأحـد من الناس أن يكتب شـيئا لأن الكتابة لم يكن قد اخترعها أحد . وبالتالى لم تكن هناك كتب أو أى ــ معرفة بالعلم وهكذا كان أقدم البشر مضطرين لأن يتعلموا كل شيء بأنفسهم عندما بدأوا فى تلك الحالة كان سبيلهم الى ذلك التجربة البطيئة والمجهود الطويل . لقد مرت أجيال طويلة على هذا الانسان ولكنه لم يحقق شيئا من هذه الاختراعات بل لم يفكر فى أنه فى استطاعته أن يتمكن من انتاجها ، ثم جاء الوقت الذى بدأ فيه يخترع كل أداة من هذه الأدوات مهما كانت بسيطة لأنه لم يكن هناك شيء منها . وهكذا نرى قصة تاريخ الانسان هى ــ الى حد ما ــ قصة الانتصـار على الموارد المادية باسـتعمال حيل مختلفة وأدوات وأشياء آلية ، واذا ما أدخلنا فى حسابنا النتائج التى ترتبت على اختراع هذه الأدوات فى النواحى الاجتماعية والسياسية والفنية والدينية . لقد كانت قطعة الحجر التى استصلحها هذا الانسان البدائى ليستعملها كسلاح فى قبضة يده رمزا مميزا للعصر الحجرى قبل مائتى ألف سنة مضت . كمـا أصبح البخار أو الاسـطوانة الكابسـة فى الآلات التى تدار بالبترول . وخاصـة الطائرات والصواريخ والأقمار الصناعية هى رمز عصرنا الحاضر .

ــ ولكن لا يعلم أحـد من العلماء فى أى مكان تمت جميع المراحل التى ساعدت على تكوين الانسان ، أو بعبارة أخرى المكان الذى تمت فيه عوامل النشوء ــ والبعض يظن أن ظهور الانسان الأول كان فى أفريقيا ، كما أن هناك أدلة على أنه نشأ فى آسيا . وكان ظهور الانسان فى هذا الزمن البعيد الذى يسميه الجيولوجيون باسم البليوسيين **Pliocene** أى منذ بضع ملايين من السنين . وكان فى نشـأته الأولى لا يكاد يختلف عما حـوله من الحيوانات الأخرى التى عاش بينها .

وقد استطاع الأثريون فى غرب أوروبا أن يجمعوا من مصادر متعددة ما مكنهم من كتابة قصة مفصلة جدا لحياة الانسان قبل ظهور المصادر المكتوبة ، وجاءت الاكتشافات الحديثة فى أفريقيا وآسيا وشرق أوروبا فأيدت الى حد كبير النتائج التى وصل اليها زملاؤهم العلماء . وهكذا أظهرت الأبحاث فى كل المناطق التى كانت ميدانا للبحث تشابها هاما فى نتائج مراحل التقدم الانسانى نحو الحضارة . ولكن كيفما كان الأمر فمن الواضح أن مثل هذا التقدم لا يمكن أن يحدث فى وقت واحد أو على وتيرة واحدة فى أمكنة مختلفة من العالم .

فعلى سبيل المثال استطاع كل من سكان مصر وغرب آسيا من اختراع الكتابة قبل أن يعرف غربى أوروبا أية طريقة للكتابة بثلاثة آلاف سنة . كذلك استعمل المصريون وسكان غربى آسيا الأدوات المعدنية وكانت لهم صلة تجارية بغيرهم من الأمم بواسطة السفن ، فى الوقت الذى كان فيه الأوروبيون ما زالوا يبنون منازلهم مستعينين بأدوات من الحجر . ولم يعرفوا على الأرجح أية وسيلة من وسائل الملاحة غير الزورق المنحوت من جذع الشجرة .

ـ ومع هذا فهناك أمر اتفق عليه الباحثون وهو أن مراحل الحضارة القديمة التى كانت أساسا للحضارة العالمية لم تنشأ فى قارة أوروبا بل انها تطورت فى الناحية الشرقية من البحر المتوسط فى كل من مصر وغرب آسيا . ولكن من الأسلم بل ومن الأفضل أن نتتبع قصة الحضارة الخاصة بالانسان فى أقدم عصوره فى كل بلاد البحر المتوسط بدلا من تتبعها فى قطر واحد لأن هذه الشعوب عاشت حول هذا البحر ، ثم انتشروا منه الى داخل القارات فذهبوا شمالا الى البحر الشمالى وعبروا الجزر البريطانية وانتشروا جنوبا عبر أفريقيا فى المنطقة التى نسميها الصحراء الكبرى ، واتجهوا أيضا نحو الشرق حتى اجتازوا الخليج الفارسى .

كانت أراضي منطقة البحر المتوسط عندما ظهر الانســـان مختلفة مما هي عليه الآن ، فكانت الغابات الشامخة على ضفتي مجاري الأنهار في أوروبا • وكانت تملأ كثيرا من وديانها المتسعة • وكانت تغطي أيضا أجزاء من هضبة الصحراء الكبرى التي كانت أكثرها في تلك الأيام منطقة خضراء وفيها المياه الكافية وكانت أفراس النهر ذات الحجم الهائل تتمرغ على شواطيء تلك الأنهار كما كانت الحيوانات المتوحشة الأخرى تهاجم من يعترضها خلال النباتات الكثيفة على جانبي الأنهار • كان الناس يسيرون عراة خلال الغابات يجمعون قوتهم اليومي من بين جذور النباتات والحبوب والفواكه البرية حينما يعثرون عليها وينصتون بحذر الى صـوت حيوانات الصيد الصغيرة التي عساهم يحصلون عليها بمساعدة عصيهم الخشبية • لأنه يجب أن نفترض أنهم استعملوا مثل هذا الســلاح الخشبي لأن الغابات كانت ملأى بفروع الأشجار الجافة التي سقطت على الأرض •

ـ وأحس انسان هذا العصر بأنه في حاجة الى تهذيب فروع الأشجار التي سقطت على الأرض ليجعل منها أداة أو سلاحا لتأدية غرضه • وفي فترة من فترات التطور البدائي لهذا الانسان تطورت أيضا اشاراته الصوتية المعبرة عن الخوف أو الجوع أو العطش التي كانت أبسط نوع من أنواع الكلام • بعد ذلك عرفوا النار عندما أصاب البرق شجرة فالتهبت • كانت خطوة كبرى يوم عرف الانسان الأول كيف يشعل النار ، فاستطاعوا أن يعدوا طعامهم ويدفئوا أجسامهم ، ثم جعلوا نهاية حرابهم الخشبية أكثر صلابة بوضعها في تلك النار ، ونتيجة لذلك تعلموا صناعة الســكاكين من عظام الحيوانات •

ـ وقد أوضـــحت لنا هذه الأدوات الحربية وبقايا أجســام الأوائل التي عثر عليها في الطبقات الجيولوجيـــة في صـــورة

لا تقبل الشك مدى الزمن الطويل الذى مضى على الانسان منذ ظهوره فى هذه الدنيا • وكان من رأى المؤرخين حتى وقت قريب أن التاريخ الانسانى كان قصيرا نسبيا • ومع كل هذه الصعاب وبرغم ما كان يعوق طريق الانسان فى سبيل البقاء فقد كان ذلك الانسان الذى عاش فى عصر البليستوسين أسعد حظا من أخيه الذى جاء بعده ، ذلك انه كان يعيش فى جو دافىء معتدل حيث كان جمع القوت أمرا سهلا ميسورا •

ــ ولقد مر الانسان الأول بالعصر الجليدى الكبير • ففى نهاية العصر البليوسينى السابق كان هناك عمليات تكوين فى الجبال وحركات أرضية • ولما كانت هذه العمليات مرتبطة بتغيرات مناخية هامة تأتى على أثرها فان نتائجها كانت دائما وخيمة العاقبة • تلك التغيرات جعلت المناخ يصبح أشد برودة وأكثر رطوبة مما كان عليه منذ آلاف السنين ، وتساقطت الثلوج بكثرة وخاصة على قمم الجبال وبدأت تلك الثلوج تتراكم وتنتشر حول مراكز سقوطها • وفى النهاية تكونت طبقــات هائلة من الثــلج فوق الأرض تقدر مساحتها بنحو ١٢ مليون ميل مربع •

ــ وتسمى أقدم الآلات التى صنعها الانسان باسم الباليوليثية (Peleoliths) ويسمى الآثريون الوقت الذى صنع فيه الانسان هــذه الأدوات بالعصر الباليوثينى أو العصر الحجرى القديم وهو الذى اتفق مع كثير من فترات العصر الجليدى الأعظم • ومن أهم الأدوات التى تميز هذا العصر نوع من الفؤوس هو أقدم الآلات اليدوية الثقيلة وهو كما أسماه الأثريون بقبضة اليد • وقد عثر على كثير منها فى كثير من المناطق حول البحر المتوسط • كما وجدت أدوات أخرى معدلة استخدمها الانسان الباليوثينى كمخارز ومقاشط ونصال وسكاكين وأسنة ومقاطع ومطارق •

ـ وينتمى انسان العصر الباليوثينى الى المجموعة التى يطلق عليها علماء الأجناس اسم « جامعى الغذاء » وهم البدائيون الذين يأخذون ما تهبهم الطبيعة ولا يعملون شيئا ليزيدوا الانتاج الذى يأتيهم من الطبيعة · فكان الرجال يجلبون الى بيوتهم اللحوم التى حصلوا عليها من الصيد ، أما النساء فكن يجمعن الفاكهة والحبوب التى يجدونها نامية بريا ·

ولم يكن هؤلاء الناس يعيشون فى أماكن ثابتة ، بل يتحركون عادة من مكان لآخر لجمع الغذاء · وهكذا أصبحت الكهوف والمآوى الصخرية عاملا هاما لتقدم الانسان الذى عاش فى ذلك العصر · وذلك عند حفر طبقات تلك الكهوف ودراسة ما تركه ذلك الانسان منذ اليوم الذى عاش فيه فى تلك الكهوف ·

ويوم أن استلقى انسان العصر الباليوليثى لينام ليلا فى مغارته كان يستطيع أن يغلق عينيه ويرى فى مخيلته صورة الحيوانات الهائلة التى كان يتبعها طوال النهار ، كما كان يسترجع فى ذهنه صورة أشجار غريبة تذكره أشكالها بحيوان من الحيوانات ، أو انه كان يرى وهو يتقلب صورة كتلة بارزة من الصخر تشبه فى هيئتها شكل الحصان وهكذا ظهرت فى عقله فكره المشابهة تدريجيا (الحيوان والشجر التى تشبهه والجواد والصخرة المستديرة التى تماثله) واستمر هذا التفكير وبدأ يلاحظ أنه يجب عليه أن يعمل على زيادة مشابهة الصخرة البارزة بيديه لتصبح أكثر مشابهة للحصان ، ثم استطاع أن يقلد شكل شىء معين بتشكيل شىء آخر يشبهه · وبهذه الطريقة أمكن لعقله أن يعى التقليد · وفى هذه اللحظة ولد الفن ودخلت نفس الانسان فى عالم جديد جميل مملوء بنور لم يضىء حياته من قبل · كان جسمه يتطور منذ عصور ، ولكن هذا الاكتشاف الجديد الذى وصل اليه وهو

أنه يستطيع أن يخلق أشكالا جميلة مستوحاة من الصور التى فى ذاكرته جعلت عقله يرتفع الى مستوى عال جديد ٠

ـ ومن الأشياء التى عثر عليها الباحثون بعض رسوم على أحجار صغيرة صنعها أناس مبتدئون محاولين أن يتعلموا فن الرسم ٠ وهذه الرسوم السريعة تشبه التمرينات الحديثة فى العلوم المختلفة٠ وقد عرفنا الكثير عن هذا العصر الانشائى من حياة الانسان فى عصور ما قبل التاريخ من المجموعات الهامة من الأعمال الفنية التى اكتشفت فى الأماكن الباليوليثية ٠ وتميز هذا الفن من ناحية شكل الحفر والنقش على العظم والعاج والقرون وكذلك الرسم على قطع من الحجر يمكن حملها ٠ وكان هناك بعض الأشياء المفيدة فى الاستعمال مثل رامية الحراب وخطاطيف الصور واللوحة التى يضع عليها الفنان ألوانه ، بينما كان البعض الآخر لمجرد الفن فقط مثل الرسوم المحفورة على ألواح من الحجر الجيرى أو قطع متفرقة من العظم أو العاج ٠ وتبدو النقوش والرسوم الكبيرة التى تزين جدران الكهوف والمساكن الصخرية أجمل مظهرا ، ولكنها ليست أكثر أهمية من الأشياء الأخرى ٠

ـ وقد ذكر بعض الباحثين أنه توجد على الصخور التى فى الهواء الطلق فى شمال افريقيا من الجزائر عبر الصحراء شرقا الى أعالى النيل رسوم مماثلة وعمل هذه الرسوم غاية فى الجمال ٠ ولكن يضارعها فى الروعة معرفة الرجل الباليوليثى للألوان ٠ فقد استعمل منها الأحمر والأصفر والأسود وكانت الألوان الجافة المسحوقة تحفظ فى أنابيب صغيرة مصنوعة من العظام المفرغة وقد عثر على بعض منها فى الكهوف ٠ وقد ذهب الانسان الباليوليثى فى حضارته الى أبعد من ذلك اذ أنه عندما اعتدل المناخ فى أوروبا أختفى الانسان الباليوليثى واختفت معه صناعاته ومن الجائز أن تغير المناخ سبب تغيرا فى الحيوانات والنباتات ٠

وفي وقت ما في العصر الجليدي بدأت الأمطار التي طالما سقطت بكثرة على شمال أفريقيا تتوقف عن الهطول . وبالرغم من أنه لم يعرف بعد السبب الحقيقي في قلتها وندرة سقوطها فان نقصان المطر كان سببا في جفاف هضبة الصحراء الكبرى بالتدريج ، واختفت تدريجيا بعد ذلك نباتاتها التي جفت . وبعد بضعة آلاف من السنين تحولت الهضبة الأفريقية الشمالية الى الصحراء الجرداء التي تعرفها الآن (١) .

ـ ان تاريخ تطور الانسـان والحياة مهما كان ناقصا حتى الآن يتيح لنا أن نلمح كيف نشأ العقل عن طريق تقدم غير منقطع في تطور صاعد خلال سلسلة الحيوانات الفقرية حتى الانسان . وهو يوضح لنا أن قوة الفهم تابعة لقوة العمل ، أى أنها تكيف يزداد دقة وتعقيدا ومرونة بصفة مطردة بين شعور الكائنات الحية وبين شروط الوجود التي هيئت لها . وهنا لا بد أن تستنتج أن عقلنا بالمعنى الضيق الذى تدل عليه هذه الكلمة قد قدر له أن يكفل ادماج جسمنا في بيئته على الوجه الأكمل ، وأن يتصور العلاقات بين الأشياء الخارجية ، وأخيرا أن يفكر في المادة . فسنرى أن العقل الانساني يشعر أنه في مجاله الخاص به طالما تركناه وسط الأشياء الجامدة الصلبة التي تجد فيها أفعالنا نقطة ترتكز عليها كما تجد فيها صناعتنا أدواتها للعمـل (٢) . ان التطور البشرى للانسان كان نتيجة حتمية لانسجام العقل وأعماله في الموجودات الجامدة المحيطة به وكمية احتياجات الجسد . كل ذلك كان عاملا مؤثرا في عملية التطور التي أدخلت البشرية الى مرحلة ظهـور الحضارات في أماكن شتى من العالم .

---

(١) برستيد ، جيمس هنرى : تاريخ الشرق القديم ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٥ ص ص ٩ ـ ٣٤ .

(٢) برجسون ، هنرى : التطور الخالق ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ ، ص ٥ .

لقد استطاع الانسان أن يغير الطبيعة الموجودة حوله بتطوير بيئته وبناء عالم المدنية الخارجي وهو فن من الفنون التى صنعها الانسان ولكن الفن نفسه هو الطبيعة ٠ وهو فى حد ذاته ـ أى الانسان ـ يمثل جزءا من الطبيعة ، ولكن تدفعه قواها الى القيام **بأعمال تنطوى على ذكاء هذا الانسان ، ومن ثم كانت الحضارة (١) ٠**

ـ ويرى توينبى أن مولد أى حضارة لا يرجع بالضرورة إلى تفوق جنس معين ، أو الى ظروف ملائمة بشكل غير عادى ، وانما يعزى مولد الحضارة الى ظروف قاسية بشكل غير عادى ٠ هذه الظروف القاسية الشاذة ، تشكل ما يسميه توينبى (التحدى) والمجتمع الذى يواجه التحدى ، يجمع قواه ليرد على هذا التحدى ، فاذا ما نجح فى مواجهة التحدى وتغلب عليه تتحسن قواه الداخلية وقدراته الخلاقة الى درجة تؤدى الى مولد الحضارة (٢) ٠

معنى ومدلول كلمة الحضارة : Civilization

ـ كلمة الحضارة تعنى الاقامة الثابتة وحياة الاستقرار فى **القرى أو المدن ، أى الحيـــاة بأحسيسها واشراقهـــا وتقاليـدها** وتطلعاتها ، فهى اذن المؤشر الذى يميز بين شعب وشعب وتاريخ وتاريخ ، لذلك تفاوت مستوى وعمق الحضارة قديما عنه فى العصور الوسطى عنه فى العصور الحديثة ، كذلك تفاوت هذا المستوى بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب ٠

وكلمة الحضار ، لها جانبان :

(أ) الجانب المادى ٠ (ب) الجانب المعنوى ٠ فالجانب المادى يعنى الجانب الذى يتصل بفنون العمارة والبناء والزخارف

---

(١) لويس ، جون : الانسان ذلك الكائن الفريد ، ترجمة د٠ صالح جواد الكاظم ، القـاهرة ، الهيئة المصرية العـامة للكتاب ، ١٩٨٦ صص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ٠

(٢) توينبى أرنولد : الفـكر التاريخى عند الاغريق ترجمة لمعى المطيعى ، القاهرة ، الهيئة العـامة للكتاب ، ١٩٩٠ ، ص ١١ ٠

والأدوات والصناعات أى الجانب الظاهرى (الشكل) من الحياة من بيئة طبيعية ومنشآت انسانية ، وهياكل انتاجية ، وما يرتبط بهـــا ٠

أما الجانب المعنوى فهو يعنى الجانب العلمى أو الثقافى ، والمقصود به التهذيب والتقويم ، ويشكل ما يتصل بالروح والفكر والعقل والمشـــاعر فهى تعنى الحياة الروحية والفكرية والعملية والأدبية والفنية (١) ٠

ـ اذن فالحضارة لا تعنى الشق المادى وحده ، ولا الشق المعنوى وحده انمـا هى تكامل الأثنين معـا ٠ ولقد تميزت حركة التاريخ من البـداوة الى الحضـارة بالصراع وهو ما أشرنا اليــه مع بداية الحديث عن نشـأة الحضارات القديمـة ، التى لم تنشـأ من فراغ بل كانت محصلة لصراع عنيف وتحد كبير ٠

والحقيقة أن الانسان هو الوحيد بين الكائنات الحية الذى يدرك معنى الزمن وقيمته ، فالانسان اذن هو الكائن الوحيد ذو التاريخ ، وهو الكائن الحى الوحيد الذى يصنع التاريخ ٠ لذلك فالانسان باعتباره كائنا اجتماعيا لا غنى له عن دراسة ماضيه أى تاريخه فينبغى عليه أن يعرف تاريخ تطوره وتاريخ أعماله وأثاره ٠ ومن هنا وجب علينا دراسة تاريخ الحضارات البشرية القديمة التى صنعها هذا الانسان (٢) ٠

أقدم الحضارات القديمة :

ان أقدم الحضارات التى شدت اهتمام الباحثين والمؤرخين فى منطقة الشرق الوسيط هى حضارات :

---

(١) ابراهيم القوديرى (دكتور) : حركة التاريخ من البداوة الى الحضارة ، بيروت ، دار النهار للطبع والنشر ، ١٩٥٤ ، صص ٥ ـ ٦ ٠

(٢) سعيد رزق حجاج ، زين العابدين شمس الدين نجم : منهاج البحث التاريخى ، القاهرة ، مطبعة الحسين الاسلامية ، ١٩٨٨ ، ص ١١ ٠

الحضارة المصرية (وهى موضوع دراسة مستقلة ستأتى فى نهاية القسم) •

أولا : الحضارة البابلية والآشورية •

ثانيا : الحضارة الحيثية والسامية الغربية •

ثالثا : حضارة كريت •

رابعا : الحضارة الفارسية •

أولا : الحضارة البابلية والآشورية :

ـ وهى الحضارة الثانية الفيضية العظيمة التى ظهرت فى الأزمنة القديمة ، فى سهل كلديا الفيضى بين مجـرى نهرى الفرات ودجلة الذى وفر لساكنيه نظاما ملائما للرى شبيها لما حدث فى مصر • واليوم بعد أن دمر سوء الحكم رخاؤه ، يتطلب الأمر كد الخيال ليدرك أن بابل كانت حينا من الدهر شبيهة بمصر ، كأحد مخازن غـلال العالم الرئيسبة حيث كانت المحاصـيل تؤتى ثمارا مائتين أو ثلاثمائه ضعفا ، وكانت الأرض حتى بعد الحصاد الثانى تهيىء العديد من المراعى

وحاضره الملك التى كانت على شواطىء الفرات وأصبحت من فجر الألف سنة الثانية مقرا عظيما للامبراطوزية كانت لحجمها الشاسع أعجـوبة الأزمان القديمـة • وكان محيط دائرة السور الداخلى زهاء أربعين ميلا يقول أرسطو « ان بابل أمة أكثر منها مدينة » ولقد أضيفت الى مواردهـــا الزراعية الثراء المستمد من صناعات النسيج ومن تجارة رائجة •

ـ ومنذ الألف سنة الثانية ، كانت بابل سـوق الشرق ومركزا عالميا ، اجتذب الى أسـواقه وأرصفته محاصـيل الهنـد وايران وكانت ملتقى طرق التجارة عبر الطرق الصـحراوية الى الفرات من أقطار البحر المتوسـط الى الغرب والطريق الطبيعى لتوسع بابل كان مجاله أعلى النهر لأن سهل كلديا كانت تكتنفه من الجنوب ومن الغرب الصحراء ومن الشرق هضبة ايران ، وفى الألف سـنة الثالثة • كان سرجون الأكادى مؤسس أول مملكة سامية قد اجتاح آشور وبلاد ما بين النهرين وتوغل حول شمال الصحراء حتى سوريا وكنعان • وعلى هذا فمنذ زمن مبكر تجاوز البابليون حدود حضارة سهل فيضى لتكون احدى حضارات البحر المتوسط • ولو أنهم عندما بلغوا البحر ، لم يستخدموه الا قليلا ، وخلال ألفى سنة كان حكام وادى دجلة والفرات يتطلعون صوب الغرب الى مياه البحر المتوسط كهدف لطموحاتهم •

كانت ثقافة بابل وآشـور التاريخية سامية ولو أنه قبـل هبوط الساميين من بلاد العرب • أنشأت القبائل الوطنية مدينة تعرف بالسومرية (سومر ـ كلديا الجنوبية) ووضـعوا أسس الدين واللغة والقانون والرى والحيـاة المتحضرة التى ظلت أمـدا طويلا بعد أن وطد الساميون سيادتهم •

وقطـع الجواهر هو فن مهره البابليون ، وكان قد بلغ فى الأزمنة السـومرية درجة عالية من الكمال • وكانت النقوش تحفر بالكتابة وبالصور ، وبعد ذلك بالخط المسمارى ، حروف (رءوس سهام) وانا لنقرأ عن المشاهدات الفلكية ووضع كتب النحو والمعاجم وانشاء مكتبة ملكية • وفى أواخر الألف سنة الثالثة أو فى بكور الثانية نجد أسرة تعرف بالأسرة البابلية الأولى ، ومقرها بابل ، ومنذ ذلك الحين سارت عاصمة آسيا الغربية • والدين له كل

الخطر فى تاريخ بابل ، وكانت طائفة الكهنة تستحوذ على ثروة وسلطان عريضين • وكان الملوك يعتمدون كثيرا على خطواتهم وحتى فى أيام سيطرة آشور لم يكن المغير يستطيع أن يستوثق من دولته فى بابل الا بتقديم فروض الاحترام لمردوك •

— كان « حمورابى » ، أعظم ملك فى هذه الأسرة ، فهو الذى ركز العبادات الدينية المحلية فى كلديا فى عبادة « مردوك » الاله — الراعى لبابل ، كما نظم « حمورابى » المذهب الادارى للامبراطورية وأخضع « عيلام » الى الشرق ، « وآشور » الى الشمال وبسط سيادته على سواحل البحر المتوسط ، وتقدم الأدلة على ثقافة عصره ، ومن الآثار الأدبية العظيمة التى تضم الواح عقود ورسائل ملكية ولكن أهم أثر تذكارى لحكمه هو مدونة القوانين التى كشف عنها فى السنوات الأولى من هذا القرن علماء الآثار الفرنسيون فى « سوسى » • وفى هذه المدونة — أحكام الاستقامة التى وضعها حمورابى — الملك العظيم — نظمت فى دقة وأحكام القانون المدنى فى بابل ويشمل الملكية والعقود والزراعة والتجارة وأعمال المصارف والزواج والتبنى والأرث • وكذلك سير المرافعات القضائية • وتشهد على المنزلة الهامة التى كانت بابل قد وصلت اليها فى تجارة الأمم • وهى تكون مذهبا محكما لقانون الدولة • لو أن آثارا منها ترجع الى ما جرت عليه العادات الأولى مثل قانون حكم الله والقصاص بالمثل (العين بالعين) وهى تمثل تقدما عظيما بالقياس الى قانون العادات فى المجتمعات الأولى • وقد حرم الانتقام بسفك الدم وقصر تطبيق شرعية المثل بالمثل على اجراءات المحاكم المقررة ، والناس من كل الطبقات الغريب والمولود فى البلاد على السواء تنتظمهم حماية القانون •

— ومن الطرافة بمكان بألغ أن تقرأ كيف أن أمثال هذه المسائل الحديثة كالاعفاء من الخدمة العسكرية وثبات الملكية

والتعويض عن التحسينات الزراعية ورقابة تجارة الخمور ، وودائع المصارف ، والمسئولية عن ديون الزوجة والحقوق الشرعية للنساء والأطفال نظمها هذا الحكم البابلي في ختام السنوات الألف الثالثة ق٠م وبامتداد الحضارة البابلية الى سوريا وفلسطين فان مدونة القوانين (حمورابي) والقانون الذى جاء بعد ذلك مستندا اليها وضعا طابعها على تشريع الساميين الغربيين ٠ وظلت المدونة نفسها نافذة المفعول زمنا مريرا فى العهد المسيحى وأثرت بعد ذلك على شرائع الفاتحين المسلمين ٠ وغدا يبرز البابليون كقوة تعمل على بسط الحضارة فى آسيا الغربية ، وانتشرت فى كل ربوع الشرق لغتهم وعملتهم ومعايير أوزانهم ، وكانت نساؤهم يستمتعون بمركز قانونى توفرت فيه الكرامة لهن ٠ وكان فى قدرة الانســان أن يمتطى متن دابته فى أمان من الخليج الفارسى الى البحر المتوسط تحت حماية قوانين حمورابى ٠

ـ بتقادم أعوام السنوات الألف الثانية . حل الوهن بمملكة بابل ونهضت فى الشمال ســلالة جديدة تصعد نحو العظمة على شواطىء دجلة حول « نينوى » ٠ وهذا الشعب هم أبناء آشــور أو الآشوريون وهم مستعمرون ساميون من بلاد بابل ، ومن رعايا حكامها فى بادىء الأمر أصبحوا غزاتها حوالى سنة ١٣٠٠ ق٠م ٠

لقد كان البابليون شعبا من الزراع والتجار ٠ وكان الدين أجل قدرا فى أوضاعهم العامة من فن الحرب ٠ أما الآشوريون فعلى النقيض كانوا منذ البداية الى النهاية سلالة حربية ٠ وكان ملوكهم قادة تحت امرتهم اشراف عسكريون ٠ ولما كانوا أكثر شعوب الشرق الأخرى غلظة وقوة فان تاريخهم هو ســـجل حروب وغزوات ، وما اكتسبوه من ثقافة استعاروه من بابل ٠ وكان التقدم الوحيد الذى حققوه هو البناء بالحجر كما كانــوا يبنون بالآجر ، وتسجل

الثيران المجنحة والألواح المنقوشـة فى المتحف البريطـانى قصة متواصلة عن الحروب الوحشية ٠

– كان الآشوريون مخلصـون فى تعصب لدينهم ، وكانت معظم انتصاراتهم باسم الههم « آشور » ولمجده . ولكن لم يكن للكهنة الا أثر قليل فى استشـاراتهم ، وكان أمراؤهم أول من استبدل الاقتراع السنوى بجيش دائم ، وكانت انتصـاراتهم الحربية ترجع الى حد عظيم الى ادخال الفرسان لشد آزر المركبات ، ويشهد على قدرتهم على تنظيم الامبراطورية طبقات الموظفين المحكمة ، وفرض جزية سنوية ثابتة على الأقاليم ٠ وبلغت قوتهم أوجها فى ثلاث حقب فى تاريخهم فى القرن الثانى عشر ق٠م ، ومرة أخرى فى القرن التاسع ق٠م ، ثم فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن السابع ق٠م ٠

– فى القرن التاسع قبل الميلاد نزل سوط الجيوش الآشورية على سوريا وكنعان وأطاح بمملكة اسرائيل ووصـل الى شواطئ البحر المتوسط ٠ وسقطت السامرة مقر حكم المملكة الشمالية التى حاصرها « شالمنسر » الرابع أمام سرجون عام ٧٢١ ق٠م ٠ واجتاح « سنحاريب بن سرجون » بعد ذلك بعشرين عاما مملكة يهوذا وهدد مصر بالغزو ، وكيف أن الغزو نهض به بعد جيل من الزمان خليفته « أسرحدون » الذى امتدت امبراطوريته من هضبة ايران حتى صحراء ليبيا والشرق الأدنى وشملت أيضا مرتفعات ميديا وجزيرة قبرص ٠ وأعقب موته عام ٦٦٨ ق٠م تدهور قوة آشور فقبل ختام القرن هوت بها الحال الى عقد تحالف مع الميديين والبابليين الذين استردوا استقلالهم فى عهد « نابوبلر » ، « وبسقوط » « نينوى » عام ٦١٢ ق٠م توارت امبراطورية آشـور من التاريخ وسرعان ما طوت رمال بلاد ما بين النهرين سجلاتها ٠

– أما قوة بابل فقد بلغت ذروتها فى عهد « نبوخذ نصر » (٦٠٥ – ٥٦٢ ق٠م) الذى أخضع سوريا وبيت المقدس وحمل أهل يهوذا الى الأسر فى بابل سنة ٥٨٦ ق٠م ٠

وقد جعل أبنيته ومعابده وقصوره وجنانه المعلقة من بابل احدى عجائب الدنيا السبع ٠

– تميز الفرس وهم زراع أولوا نشاط ينزعون للحرب قاموا ضد أسيادهم الميديين تحت امرة زعيمهم « قورش » وبعد ١٤ عاما (٥٣٩ ق٠م) يغزو بابل ، وتمر ألفا سنة من السيادة واذا الامبراطوريات السامية الكبرى تكون قد عوت ولون آخر من الحضارة الجديدة من أصل آرى يبسط سلطانه على الشرق ٠

وقد أدى امتداد سلطان الامبراطورية البابلية وسيادتها التجارية فى آسيا الغربية الى انتشار ثقافتها على مساحة أعظم مما كانت عليه الحال مع مصر ، وكانت تلك الثقافة أدبية وليست فنية ، ولو أن قطع الأحجار الكريمة وصناعة النحاس والتطريز وما الى هذه الفنون ازدهر فى بابل وغدت حلل بابل مضرب الأمثال فى أرجاء العالم القديم ٠

وكانت العمارة الوطنية من الأجر ولا شكل لها ، نسبيا ، وكانت المعابد هى أبنيتهم الرئيسية ، تقوم على منصات مستطيلة وترتفع فى طبقات متتابعة الى علو عظيم ٠

– استخدم الآشوريون بعد ذلك أحجارهم الوطنية وزينوا قصورهم بتماثيل هائلة وبالرسوم البارزة بروزا واضحا والتى يشهدها كل زائر للمتحف البريطانى ٠ وتنهض ثلاثة عناصر فيما يتعلق بتأثير الثقافة البابلية على أهم حضارات الأزمنة القديمة

أولها : تأثيرهـا على الثقافة العبرية ، وثانيها : تأثير علم الفلك الكلدى على الفكر العلمى الاغريقى فقد سجل الكلديون مشاهدات دقيقة عن مواقع الأجرام السماوية لمدة تزيد على ألفى عام • وتعرفوا على الكواكب السيارة وسموها ، كما صنعوا المزولة (وهى أداة تبين بظلها الانقلابين والاعتدالين) ولقد عرف الاغريق هذه المعطيات وعلى غرار هندسة المصريين التجريبية • وثالثها : كان للحضارة البابلية تأثير صادق فى حياة العالم الغربى الصناعية والتجارية • وقد لاقت العملة والمقاييس البابلية فى الألف سنة الأولى انتشارا واسع النطاق فى آسـيا وعالم البحر المتوسـط • وهكذا لعبت الحضارة البابلية والآشـورية دورها فى تاريخ البشرية كواحدة من الحضارات القديمة •

ثانيا : الحضارة الحيثية والساميون الغربيون :

ـ رأينا كيف ان الثقافة السامية وضعت طابعها على المنطقة واستغرقت حضارة السومرين الأوائل فى وادى دجلة الفرات • وكانت الحال على هذا المنوال في الأقاليم المحصورة بين بلاد ما بين النهرين والبحر المتوسط • كانت لغة ودين وثقافة سوريا وكنعان سامية منذ أزمنة بعيدة ويمكن تمييز الآتى :

١ ــ الساميين الجنوبيين فى بلاد العرب واثيوبيا •

٢ ــ الساميين الأواسط فى كنعان •

٣ ــ الساميين الشماليين الآراميين فى سوريا •

٤ ــ الساميين الشرقيين فى بابل وآشور •

ولكن جميعهم على الســـواء كانوا أولاد بيت سـامي واحد وأواصرهم المتبادلة تبرز بوضوح ٠

ـ يحيـــط الغموض بأصل الحيثيين ونقوش كتابتهم التي اتخذت أشكال صـور لم تفسر بعد وتاريخهم يزخر بالمشـاكل التي تنتظر حلا ، ويبدو أنه من المحتمل أن بعضهم ، ان لم يكونوا جميعا ، كانوا يتحدثون بلغة هندية ـ أوروبيـة ودخلوا آسيا الصغرى من الدانوب الأدنى ، وجمعوا معهـم ثقـافة ولغة خاصتين بهـم وأتت عليهما بالتحديد بعد ذلك المؤثرات السامية التي كانت سائدة في أرجاء الشرق الأوسط ، وكان أول مركز لما استعمروا من أراضي هضبة كبادوكيا (بلاد القباذة) حيث كشف عن الكثير من الآثار الحيثية ، ثم اتسع نطاقها حتى شمل قلقيلية وشمال ســـوريا وشعوب غرب آسيا الصغرى ٠ وحدث هذا بين عامي ١٧٠٠ ـ ١٢٠٠ ق٠م ، ويظهر أنهم في حوالى هذا التاريخ فقدوا سيادتهم على آسيا الصغرى والطرق الى تجارة البحر المتوسط والبحر الأيجي ٠ وربما كانت ترتبط هذه الحوادث بالغزوات الشمالية في منطقة بحر ايجة وسقوط سيادة كريت البحرية ٠ ومنذ هذا الوقت فصاعدا حول الحيثيون السوريون وأسياد آسيا الصغرى الجدد نشـــاطهم الى الشرق والجنوب الشرقي ، وقد اجتذبتهم موارد ما بين النهرين الغنية ٠ ومن مركز رئاستهم الجديد في « قرقيش » في أعالى الفرات أصبحوا يسيطرون على الطرق البرية العامة بين الشرق والغرب ، وتعاملوا على قدم المسـاواة مع مصر ولعدة أجيال رأسوا تحالف أوصد الطريق أمام توسع الساميين القاطنين ببلاد ما بين النهرين صوب الغرب ، وفي القرنين التاســع والثامن ق٠م انحدرت قوتهم تحت وطأة جيوش آشور وأوقع بهم ضربة قاضية الملك كودمسس ملك ليديا في الغرب قبل مجيء الفرس بزمن وجيز ٠

الحضارة الفينيقية :

واذا تجاوزنا الولايات السورية ـ وهى سامية دون نزاع ـ التى كانت تقع على طريق القوافل من آشور الى البحر المتوسط وأصابت حظها من الثقافة من مصر بصفة جزئية ولكن أساسا من البابليين • فاننا نصل الى الأراضى الساحلية فى كنعان الشمالية حيث كان يستوطن ، على الأقل منذ سنوات الألف الثالثة الفينيقيون الساميون • وكانت حياتهم بأجمعها تتركز فى التجارة البحرية • ولما كانوا يستحوذون على رقعة من الأرض ضيقة • فى موطنهم ، فقد أقاموا الحصون والمحطات التجارية بمحاذاة الطرق العامة الداخلية وخاصة حول شواطىء البحر المتوسط • وكانت صيدا فى الأزمنة الأولى هى المدينة الفينيقية الهامة •

وفى حوالى القرن الثانى عشر ق•م تخلت عن مركزها لصور • وانا نقرأ فى العهد القديم من التحالف الذى عقد فى القرن العاشر بين داود وسليمان وحيرام أمير صور • وكان الفينيقيون يسكنون دول ـ المدن تحت حكومة ملكية ، وبهذا كانوا يستبقون ، ولو فى نتائج جد متباينة دول ـ المدن فى العالم الهلينى • ويقع عصر القوة البحرية الفينيقية العظيمة وجلائل أعمالها التجارية بين سنتى ١٢٠٠ و ٨٠٠ ق•م فى أعقاب سقوط قوة « منمويا » البحرية فى البحر المتوسط وقبل نهوض اليونان • وقد كانت سفن فينيقية التجارية العظمى تبحر صوب الغرب الى ما وراء جبل طقارات (جبل طارق) فى عرض المحيط الأطلنطى • واستوطنوا تارشيش (طرطوس ـ (Tartessus على مقربة من قادش (Cadix) وجالوا ساحل مراكش بحرا وتوغلوا أيضا صوب الشمال الى البحر الأسود ، وأينما أبحروا كانوا يقيمون

المستعمرات ، فى صقلية واسبانيا وأفريقيا وأقدم ما جاءت به المدونات كانت « أوطيقا » فى أفريقيا الشمالية (حوالى ١١٠٠ ق٠م) وأبعدها صيتا كانت « قرطاجنة » وبترادف الزمن نبذت قرطاجنة اعتمادها على المدينة وطنها « صيدا » وبسطت سيادتها على الأراضى التى تجاورها فى أفريقيا وأنشأت مستعمرات لها ووضعت حكرا على التجارة فى مياه البحر المتوسط القريبة ٠ ولا تزال باقية بين أيدينا مدونات اغريقية ترجع الى القرن الخامس لرحلة قام بها « جنو القرطاجنى » الى ساحل أفريقيا الغربى ٠

ومنذ القرن السابع ق٠م كانت قرطاجنة مشتبكة فى صراع تجارى لا ينقطع مع المدن الاغريقية فى صقلية وفى الغرب استمر حتى القرن الثالث ق٠م ٠ عندما استدعت الحالة مجابهة قوة روما المتصاعدة ٠ وقد وجد الفينيقيون فى مناجم الفضة فى اسبانيا مصدرا لثروة هائلة ٠ وكان أحد نتائج هذا الكشف هو انخفاض قيمة الفضة بالنسبة لقيمة الذهب ٠ وقد كانت حتى ذلك الزمن من الصعب العثور عليها فى آسيا وأفريقيا كمعدن له قيمة كبيرة ٠

وقد احتكر الفينيقيون أيضا حينا من الزمن صبغ الأرجوان الذى يستخرج من الرخويات البحرية ٠ وبعد القرن الثامن ق٠م فقدت فينيقية استقلالها ٠ وفى زمن لاحق أمدت أسيادها الجدد ــ الفرس ــ بالأسطول ٠ وكنا نسعد لو كان لدينا مزيد من المعرفة عن الاقتصاد الداخلى لهذه المدن العظيمة حيث كان تصادم المصالح مصدرا للقلق الدائم ٠ ومع كل ما وصلوا اليه من حذق فى التعدين وصناعة المعادن وجسارتهم فى البحار ، فان الفينيقيين لم يكونوا مبتكرين » ٠ لقد كانوا الوسطاء العظام فى زمنهم وكان عملهم ببساطة أن يوزعوا منتجات البلدان الأخرى على شعوب عالم البحر المتوسط ٠

ويدين سكان كنعان الساميون القاطنون جنوب فينيقية بأهميتهم التاريخية بما كان يربطهم من أواصر وثيقة مع العبريين ، بعد الفترة التى امضاها العبريون على تخوم مصر ، وانقاذهم على يد موسى (عليه السلام) في الأسرة التاسعة عشرة ، فقد تجولوا في صحراء سيناء الى أن استقروا في قادش في جنوب كنعان ، وسنرى كيف أن موسى (عليه السلام) كان قد أوجد أمة عبرية باقراره عبادة « يبهوه » كدين قاصر على الأسباط العبرية • وبعد ذلك ببضعة أجيال ، عندما دخل العبريون كنعان ، تشبعوا بثقافة السكان الأصليين ، وتحت التأثير الكنعانى • أبدلوا عادات البداوة بحياة زراعية مستقرة ، وفي ختام الألف سنة الثانية نجم عن الصراع مع الفلسطينيين ، قيام النظام الملكى فى عهد « شاؤل البنياميني » واستهلال حقبة قصيرة من الرخاء الدنيوى • وأخضع داود الشعوب التى تربطها وشائج القرابة ، مواب ، وأدوم ، وعون ، والممالك السورية الى الشمال ، وفي عهد خلفه سليمان نمت التجارة وصار للعبرانيين اتصال أكثر قربا بالثقافتين المصرية والبابلية ، وأصبحت الحياة أكثر ترفا وحجبت بساطة العادات القديمة بمدينة البلاط الحضرية ، وبموت سليمان (حوالى ٩٣٣ ق•م) أعلن الاسرائيلون الشماليون يقودهم سبط افرايم استقلالهم عن الجنوب (يهوذا) ودامت الملكية المنقسمة فى أقدار متقلبة مدة تزيد على مائتى عام • وقامت المملكة الشمالية ، وكانت أقوى المملكتين ، بدور بارز فى السياسة الدولية فى عهد « بيت عمرى » الذى سجلته الواح آشور ، ولكن كان من الواضح أن عمر المملكة كانت مسألة وقت ليس الا ، اذ أنهم وقعوا تحت وطأة جيوش الشرق • وفى سنة ٧٢١ ق•م سقطت السامرة أمام سرجون الآشورى ، وتوارت عن الوجود المملكة الأفرايسية • وأنقذ يهوذا فترة من الزمن اعتراف ملوكها بولائهم فى الوقت المناسب ، وفشل سنحاريب في مصر (٧٠ ق•م) الى أن حلت بابل محل آشور

كدولة دانت لها سيادة الشرق • ثم على يدى « نبوخذ نصر » حلت ساعة مصيرها المحتوم (٥٨٦ ق•م) واستطال زمن الشعب العبرى فى الأسر عند انهيار بابل ، الى أن حملهم قورش مؤسس الامبراطورية الفارسية على العودة الى استيطان موطنهم القديم (٥٣٨ ق•م) وكان فى هذا العهد أن العبريين ــ وقد أصبحوا على عقيدة دينية محضها الألم وشريعة تحددت تحت تأثير المعلمين الذين ينزعون الى النبوة ، ولو أنهم كان لهم شـأن يسـير فى المجالات الدولية الدنيوية •

ثالثا : « حضارة كريت » :

ألقينا نظرة شاملة على حضارة كل من بابل وآشور وكنعان وسوريا حتى النصف الأخير من القرن السادس ق•م عندما طوتها الامبراطورية الفارسية القوية بين حناياها • ولكن لا يزال علينا أن نتحدث عن سلسلة أخرى من حضارات قامت فى كريت وجزائر بحر ايجة وشواطئه •

ولقد سبق أن ألمحنا الى الغارات التى كان يشنهـا جوابو البحار على مصر فى زمن الأسرتين التاسـعة عشر والعشرين • نرى من كان من شعوب البحر هؤلاء الذين تسميهم الآثار المصرية (دار دنويين وأقيوشيين) وهما اسمان يقاربان اسمى درواniين (الطروادين) وآخائيين ، اللذين جاؤا من هومر وثمـة أطرافه خاصة يلمسها المتتبع لتاريخ هذه السلالات الايجية الأولى علاوة على طرافة الكشوف العجيبة الذى رفع النقاب عنها علماء الآثار فى السنوات القريبة ، فى أنهم كانوا السابقين الأولين للاغريق • فمنذ سبعين سنة أو اكثر لم يكن يعـرف الا النذر اليسـير أو لا يعرف متى على وجه التحقيق ، عن حياتهم وتاريخهم ، وكان الرائد لعلم آثار ايجة هو « هينريش شيمان » ــ Heinrich Scheimann

قد أثارت خياله وهو صبى فى حانوت تاجر فى المانيا ، القصص التى جاءت فى أشعار هومر ، فعلم نفسه الاغريقية وأصاب نجاحا فى العمل واكتنز مالا وفيرا وكان هدفه هو أن يحقق بالبحوث فى موقع طروادة الطومرى صدق قصص الالياذة وفى حصار طروادة (شمال غرب آسيا الصغرى) وفى ميسنيا (Mycenae) وفى طرونس Tiryns فى بلوبونيسس ازاح التراب عن معالم مدنية عظيمة يرجع تاريخها الى الألف سنة الثانية ق٠م ٠ وأقتفى العلماء من جميع الأمم خطواته ويأتى كل عام بمزيد على كنوز المعرفة الوفيرة التى كشف عنها على هذا المنوال ٠ عن حياة منطقة « ايجة » الأولى وثقافتها ٠ ويمكن هنا فقط أن نرسم الخطوط المجملة لبعض النتائج الرئيسية التى كشف القناع عنها ٠

فى غضون السنوات الألف الثالثة قامت فى جزيرة كريت حضارة باهرة متباينة الأشكال اتسع نطاقها على مدى الزمن حتى شمل جزر بحر ايجة « وروودس » و « قبرص » وشبه جزيرة اليونان والجزائر الايونية وتشعبت أفرع لها بعد ذلك فى سوريا الشمالية وصقلية وفى غربى البحر المتوسط وأدت الى التواصل مع فلسطين ومصر ٠ وأطلق عليها اسم منسوبة (Minoan) باسم منوس (Minos) واضع القوانين وصديق زيوس (Zeus) الذى جاء فى الأساطير الاغريقية ، وتوجد ذكرى سيادته على البحار محفوظة فى صفحات ثقوديدس (Thucydidos) .

ـ والسلالة التى قطنت كريت فى أزمنة ما قبل الهيلينية لم تكن آسيوية ولكنها من سلالات البحر المتوسط وتنتمى على ما يرجع كثيرا الى الأرومه غامقة اللون طويلة الراس ، قصيرة القامة الناحلة الجسم التى كان موطنها الأصلى فى شمال أفريقيا ٠ ان كريت كانت حلقة اتصال طبيعية بين أوروبا وآسيا وأفريقيا وأصبحت

على مر الزمن مركز امبراطورية بحرية تجارية قوية ، وكان لحضارتها لون متميز عن حضارتي مصر وبابل ، وبلغت ذروتها أولا عند استهلال الألف سنة الثانية (الفترة المنوية الوسطى الثانية) عندما كانت الأسرة الثانية عشرة تتولى الحكم فى مصر ومرة أخرى بعد ذلك ببضعة قرون (الفترة المنوية المتأخرة) فى وقت معاصر للأسرة الثامنة عشر المصرية • وعلى هذا فقد ظل ازدهارها متواصلا قرابة ٦٠٠ عام •

ولقد كشفت الحفائر الحديثة فى كنوسوس (Cnossus) وفايسطوس Phaestus وغيرهما من الأمكنة عن قصور ملكية رائعة تزخرفها النقوش البارزة المنحوتة والصور وتحوى كنوزا من صناعة المعادن من الذهب والبرونز والنحاس ودمى من العاج والصينى وجواهر محفورة وخزفا فى ابداع نادر ، وكلها تقدم الأدلة الكافية على المستوى العالى التى وصلت اليه الثقافة والتهذيب •

وقصر كنوسوس بما فيه من تيه الغرف ، طبقات بعضها فوق بعض والمجازات والساحات ، هو فى حد ذاته مدينة وهو قصر التيه الحق (اللبورنت) الذى كان فيه الأسرى ـ كما جاء فى الأسطورة واستبان الآن أنها سجلت صدقها التاريخى ـ يقادون فى ميدان مصارعة الثيران كقرابين للوحش المقدس الذى كان معبود كريت •• وكان نظام الصرف والمرافق الصحية خليقين بالقرن العشرين بعد الميلاد • وعندما استعرضت أمام عالم فرنسى أردية النساء فى صور أردية الحيطان هتف « انهن لباريسيات » • ولقد صورن فى لبوس محكم بذراعات مطرزة قصيرة وأردان واسعة وقمصان طوال الشق من الأمام ونطق صغار الصدار خيطت عند أعلى حوافها شرط أو اتخذت شكل ناقوس وبنيقان عالية كتلك التى كان يتخذنهن سيدات الحاشية فى انجلترا على عهد

« اليصابات » • وكانت شعورهن مجدولة فى حلقات ومجعدة ولها أربطة من الدانتيلا • وكن يلبسن قبعات مظلة تزينها شرط وورود ، وكان الرجال يحلقون شعر الوجه ولهم شعر طويل مضفور فى حلقات وله عقائص على الكتفين ويرتدون سراويل وأحذية عالية متينة ويتمنطقون بأحزمة عند الوسط ، وعلى غرار النساء يتزينون بالعقود والدمالج •

وكان مهندسو كريت المعماريون والبناءون بالحجر ينافسون أولئك الذين كانوا فى « ممفيس » وفى « طيبة » • وكان الكريتيون أول شعب عرف الكتابة لدى أوروبا وقد وجدت بعض النقوش التى تشبه الجيروغيليفية وحروف خطية على السواء بوفرة وعندما ثبت أن الجهود التى بذلت لتفسيرها انها حققت نجاحا ، فسنعلم المزيد من التاريخ المفصل لعالم البحر المتوسط الباكر • ومع هذا فانه قبيل منتصف السنوات الألف الثانية كانت ثقافة متناسقة الشكل قد مدت روافدها الى حد ما بعيد فيما يلى تخوم المنطقة الأيجية •

ومهما يكن من أمر فانه توجد أدلة واضحة على أنه فى تاريخ يقترب من ١٤٠٠ ق٠م حلت بكريت والمدينة المنوية بها جائحة أطاحت بها • وتقص أطلال « كنوسوس » المتفحمة قصتها ، ويرجع الكثير الى فعل الزلازل ، ولكن الغزاة الهمج من الشمال كانوا يتداعون فى جماعات متواليات على العالم الايجى ، وكانوا محاربين أجلافا يتفوقون فى العدة والسلاح وأخيرا معرفة الحديد ، ولم يعنوا كثيرا بالثقافة الرائعة التى أطاحوا بها ومن المحتمل جدا أن هؤلاء القوم الذين يتحدثون نقه هندو ــ أوروبية كانوا سلفا للاغريق الذين يعرفهم التاريخ • وجاء فى أعقاب هذا عصر ظلال استطال زمنه الى أن نجم عن امتزاج بقايا المدنيـة القديمة وعبقرية الأسياد الجدد ومولد ثقافة اليونان التاريخية •

- كانت شواطىء آسيا الصغرى الأيجية - كما سنرى وشيكا اغريقية منذ أبعد الأزمنة ، وعندما قامت المدن التجارية الغنية في القرنين الثامن والسابع ق٠م ، كانت هدفا طبيعيا لكل أمراء الأصقاع الداخلية ٠ ان آسيا الصغرى هضبة تنحدر منها الوديان الى الساحل الغربي تعزلها سفوح الجبال وقد جددت الطبيعة البلاد من جبال وسهول تاريخية ٠ ان المدن البحرية وقد عزلت الواحدة عن الأخرى ، وكانت فريسة سهلة للغزاة من الهضبة الداخلية ، وفي السنوات الألف الثانية كان الحيثيون ومن تبعونهم على الهضبة قد وسعوا نطاق سلطانهم حتى السواحل الايجية ٠ وفي القرن الثامن ق٠م ٠ اجتاح القمريون الرحل الهابطون من سهل السهوب (Steppes) في شمال البحر الأسود ، آسيا الصغرى وعملوا في المدن الاغريقية الكثيفة من البحر تخريبا ونهبا ٠ وقد دمروا مملكة فروجيا القديمة ، وضربوا دولة ليديا ضربة قوية ، وكانت ليديا من القرن الثامن الى السادس ق٠م الدولة الحاجزة بين العالم الاغريقي وامبراطوريات الشرق العظيمة ، وقامت أسرة ليدية جديدة تثقف أمراؤها بالثقافة الاغريقية وأعطوا الاغريق مقابل ذلك ما يميز في المعتاد بأنه اختراع الليديين المبتكر الوحيد ، العملة ذات الطابع التي حلت محل المعدن ذي الوزن الذي لا يحمل طابعا والذي كانت تتداوله الحضارة البابلية وغيرها من الحضارات الأولى ٠

- وفي حوالي عام ٥٦٠ق٠م أصبح «كروسس» ملكا على «ليديا» وطالما كان يخضع الاغريق على سواحل ايجة وآسيا ، فانه كان يحكمهم حكما متحررا ووضع تحت رعايته الدين والثقافة الاغريقيين ٠ وعندما قهر فورش الفارسي ميديا عام ٥٤٩ ق٠م شن « كروسس » دون أن ينتظر معاونة مصر وحلفائه الآخرين الهجوم على قورش وأفقدته الهزيمة مملكته (٥٤٦ ق٠م) ٠ وصحب سقوط

ليديا خضوع الأغريق الآسيويين وأصبحت امبراطورية فارس تمتد من الهند وكوش الى بحر ايجة ٠

رابعا : الحضارة الفارسية :

فى أزمنة ما قبل التاريخ ترك فرع من الأسرة الهنديةالأوروبية موطنهم الأصلى فى أرض السهوب شمال بحر قزوين وهاجر فى اتجاه جنوبى شرقى ٠ ولقد سار بعضهم عبر ممر خيبر الى البنجاب بينما استقر البعض الآخر فى شرق الهضبة الايرانية صوب الغرب الى المرتفعات التى تحف سهول ما بين النهرين وكلديا ، وبعد ذلك بألف سنة نجد الميديين الى الجنوب من بحر قزوين والبرثيين فى خراسان والبكتريين فى منحدرات الهند وكوش الشمالية والفرس فى الجبال التى تشرف على الخليج الفارسى الى الشمال الشرقى ٠ وكانت سلاسل جبال الهند وكوش وسليمان تعد حاجزا من جهة الهند ٠ ولقد أحضر هؤلاء الآريون معهم الحصان وهو من نتــاج سهول السهوب ولم يكن للبابليين أيام حمورابى عهد به ولكن استخدمه الآشوريون كعدة حرب ٠ ولقد حملوا معهم كذلك دينا متميزا ، يتناقض تناقضا يسترعى البال مع دين جيرانهم الساميين المستوطنين السهل وكان يختلف أيضا ــ على الرغم من أســاس مشترك دأب على المحافظة على نفسه بين الفرس الى يومنا ــ عن دين الآريين ذوى قرابتهم فى الهند ــ وبينما أخضعت العقيدة الهندية كل الآلهة الأخرى الى اله أعظم أوحد فان الدين الايرانى كان له مظاهر ثنائية ، وكان مجمع آلهتهم يتألف حول قوتين لها السيادة الواحدة ، وقوة الخير ، وهى ايجابية خالقة ومصدر النور والحياة ، والأخرى قوة الشر وهى الظلمة والموت وهى ســالبة ، وكانت القوتان تسميان على التوالى أهورا مزدا (أورمزد) « وأهرين » والصراع خارق العادة بين هاتين القوتين الآلهتين غدا ينعكس فى مجرى التاريخ البشرى ، وبين الاثنتين يقف الانسان وقد وهب

الحرية الخلقية التى يتوقف على استخدامها مصيره فى العالم الذى يقع فيما يلى اللحد • وكان الدين الايرانى ينزع الى آداب السلوك ، ولم تكن آلهته كآلهة الآريين الهنود ، معان مجردة تصورية • ولكنهم كانوا شخوصا خلقيين ولم يكن هدف الجهد الانســـانى الاندماج التألهى فى مطلق وحدة الوجود ، ولكن سعادة أبدية فى السماء حيث يحكم « أهورا مزدا » وما كانت الحياة الانسانية وما يلازمها من فروض اجتماعية وأفراح وأحزان بخدعة ، ولكنها المجال للعمل فى همة والقيام بالواجب الخلقى •

كان الفرس يتسامحون مع الديانات المحلية عندما لا تناصبهم العداء ومع هذا فان عقيدتهم انتشرت صـــوب الغرب بتوســع امبراطوريتهم وفى تقاوته كما نهض به « زرداشت » كان دون ريب عقيدة القلة أكثر من أن يكون عقيدة الكثرة ، وكان من شأنه بين أيدى المجوس ، وهم طبقة من الكهنة أن يتدهور الى فرائض رسمية بينما الجماهير تفسر تعليمه فى صيغ ديانة ما قبل « زرداشت » القديمة • وكان مرجـــع قوته الحقيقيـــة الى اصراره على المثـــالية الخلقية • لقد ولدوا (أى الفرس كما يعتقدون) حكاما للناس ، وكانـــوا أولى كبرياء ومسلك يتسم بالأبهة والفخامة محبين للولائم والصيد وذوى انسانية فى الحرب ولهم أفضال على الشعوب التى وانت لهم وعلى أهبة أن يقابلوا الأفكار الأجنبية بالتسامح • وعندما غزوا مقدونو الاسكندر فى القرن الرابع امبراطوريتهم كان يمكنهم أن يروا فى أشراف الفرس ، وهو فى الواقع ما كان حقا أسمائهم القدامى • ولقد أظهر الفرس فى الفن وفى العمارة القليـــــل من الابتكار ، وكانوا ينقلون عن النمـــاذج البابلية أما التجارة فقد حقروها لأنهـــا كانت غير خليقة بالرجل الحر وكانت الجندية والزراعة والفلاحة أعمالهم التقليدية ، وكان الكذب أعظم الجرائم شناعة •

ولقد اتخذت نهاية الامبراطورية الفارسية السمة التى أصبحت مألوفة في تاريخ الشرق ، الغزو بالتنظيم والاحتفاظ بالقوة احتفاظا لا يرحم فالتدهور فالسقوط تتابع كلها فى سلسلة منطقية ، ويمثل قورش المؤسس وأحد بناة الامبراطوريات العظام فى التاريخ فترة الغزو .

وعند موته عام ٥٣٨ ق.م كانت ممتلكاته تمتد من ايجة فى الغرب الى هند وكوش الشرق ومن قزوين فى الشمال الى صحراء العرب فى الجنوب . ولقد خلع ملك فارس على نفسه لقب « شاهنشاه » (ملك الملوك) . ولم يكن توكيده هذا لدعواه فى امبراطورية عالية دون أساس ، لقد كان قمبيز بن قورش - هذا الذى غزا مصر عام ٥٢٥ ق.م . والمستعمرة الاغريقية فى قورينا - ولم يحدث قبل ذلك بتاتا أن حضارة النيل تآلفت بحضارة الفرات فى دولة واحدة .

وتتركز الحقبة الثانية ، حقبة التنظيم فى شخص « دارا بن كشتاسب » (٥٢١ - ٤٨٦ ق.م) . ان « دارا » هو طراز الادارى الشرقى على مدى الزمان ، وكانت امبراطوريته شاسعة الأرجاء وهى مزيج من جميع الشعوب والأمم واللغات ولا تنتظمها وحدة سلالة أو دين أو مصالح مشتركة . وكانت تنقسم الى عشرين ولاية أو اقليم يحكمه نائب ملك ، ولكى تكون البلاد فى مأمن من خطر نشوب ثورة ، وضع « دارا » زمام السلطتين المدنية والعسكرية فى كل ولاية فى أياد مختلفة ، وكانت الوظيفة الخاصة لشخص عظيم الشأن فى « سوس » مقر الحكم الرسمى ، يحمل لقب « عين الملك » هى الاشراف على الولايات . وساعد على تركيز التحكم نهج رائع للطرق والمراكز . وكما كانت تجرى عليه الأمور فى الامبراطوريات الشرقية ، فان الشعوب الخاضعة كانت تحتفظ بدياناتها المحلية وعاداتها ونظمها ،بعيدة بعدا تاما عن تدخل

الحكومة المركزية وكانت علامة الخضوع دفع جزية سنوية ثابتة والتمييز لخدمة الميدان • وكان أشراف الفرس يعيشون تربطهم أواصر شـــخصية دقيقة بالحاكم أما الفرس المقيمون فى الأقاليم فكانوا يكونون مع ممثلين من السكان الوطنيين بمجلس الشـــورى للوالى • وعلى هذا ، كان يقوم بالرقابة على الوالى مجلسه وقائد الجيش والحكومة المركزية فى آن واحد ، ولقد أصبح هذا النهج الذى وضعه « دارا » النموذج الذى تحتذيه الملكيات الشرقية التى جاءت فيما بعد •

وضم دارا أيضـــا البنجاب وبــلاد العــرب الى الامبراطورية وعبر النبطس الى أوروبا وتقبل ولاء تراقيا ومقدونيا • وفى ختام حكمه الطويل كان يجمع جيشا لجبا ينهض باخضاع اليونان الحرة • وعلى مثال غيرها من دول الشرق اجتهدت فارس فى التوسع صوب الغرب الذى لاقت منه مصيرها المحتوم ولكن قصة الصراع الاغريقى مع فارس تتصل بفصل آخر •

كان خلفـــاء دارا طـوال قـرن ونصـف القرن بعد ذلك ٤٨٦ ـ ٣٣٨ ق٠م • معنيين على الأخص بالمحافظة على الامبراطورية التى عمل دارا على لم شملها ، وقد أدى الوهن الذى حل بالبيت المالك والثورات المتواصلة والأقاليم المتطرفة وخاصة فى مصر ، والصراع الطويل مع اليونان على انحلالها ، وقبيل انتصاف القرن الرابـع ق٠م • كانت تعتمد هيبة الفرس على معـاونة المرتزقة الاغريق وقادتهم • وأعقب موت آخر حاكم قدير وهو أوزدشير الثالث (آخوس) ففى سنة ٣٣٨ ق٠م حدثت فوضى أتاحت للعـدو فرصة فريدة ، اذا كان فيليب ملك مقدونيا قد دبر حرب انتقام من الغزو الفارسى لليونان فى القرن السابق • ففى عام ٣٣٤ ق٠م عبر ابنه الاسكندر السبنطس وأقام نفسه سيدا على آسيا الصغرى • وفى عام ٣٣١ ق٠م حقق أعظم انتصاراته فى جوا جميلا وبعد ذلك بعام

يموت آخر خلف لدارا ، وانتقل اللقب والامبراطورية جميعا الى الغازى المقدونى ـ ومن ذلك الوقت أصبح تاريخ الشرق الوسيط جزءا من تاريخ المدينة الهلينية (١) ٠

ومما سبق رأينا كيف تطورت حياة القدماء فى حوض البحر المتوسط والمناطق التى تقع شماله وشرقه وجنوبه حيث عثر رحال الآثار على أدوات كثيرة ودرسوها دراسة وافية ، على أن الحقيقة أن مجموعات آثار عصر ما قبل التاريخ تشهد بأن القدماء عاشوا جميعا فى جميع الأراضى المحيطة بالبحر العظيم وفى الأراضى التى تحيط به ٠ وهكذا كان البحر الأبيض المتوسط مركز التقدم فى الحياة وهو الأمر الذى بدا منذ أول ظهور الانسان (٢) ٠

وأخيرا ينبغى القول ان هذه الحضارات التليدة لم تنشأ من فراغ ، بل كانت كل منها نتيجة صراع طبيعى مرير مع الطبيعة أو مع غيرها من الحضارات التى سبقتها ، كان عامل القوة هو الذى حدد بقاء واستمرار تلك الحضارة أو تلك ، ولكن فى الوقت نفسه ينبغى التأكيد على انه ليس هناك حضارة واحدة يمكن أن تنسب اليها كافة الحضارات ، ان كل حضارة كانت نتاج أو وريثة حضارة سابقة امتصتها داخل بوتقتها فخرجت لنا فى اطار جديد ومسمى آخر ، بعد أن أضيفت اليها أشياء من صنع الانسان وهكذا توارثت الحضارات البشرية عبر التاريخ الى أن كانت حضارة القرن العشرين بكل ايجابياتها وسلبياتها ٠

---

(١) د٠ج٠ دى بورج : تراث العالم القديم ترجمة زكى سوس ، الجزء الأول القاهرة ، دار الكرنك للنشر والطبع ، ١٩٦٥ ، صص ٣٨ ـ ٥٧ ٠

(٢) برستد ، جيمس هنرى : مرجع سابق ، ص ٥٧ ٠

ولابد أن يكون الفصل الأول لهذا الميراث الحضارى العظيم للانسان الذى بقى على قيد الحياة ليس بسبب قوته ، فهذا أضعف بكثير ممن حوله ، وليس لأنه صيادا ناجحا • ولكنه كان الأفضل حين اكتشف الزراعة ؛ كما أنه لم يبقى على قيد الحياة بعد أن كيف نفسه مع بيئة كما تفعل الحيوانات الأخرى ، انما بقى وصمد وانطلق الى الأمام ونحو مستوى أعلى بسبب ذكائه الذى استخدمه ليكيف بيئته لمتطلباته الخاصة •

ان الانسان وحده هو الذى يملك تاريخا مستمرا ــ تاريخا من التقدم المتواصل والنمو ، وقبل مليون سنة وربما قبل مليونى سنة ظهر شيء جديد ، هو آلة حجرية أعطته شكلا اليد الانسانية صوت جديد هو الكلام •

الفصل الثالث

عناصر ومؤثرات القوة الذاتية فى مصر

يقصد بهذا العنوان هو تناول عناصر قيام الحضارة فى مصر ، سواء كانت هذه العوامل طبيعية أم بشرية • والمعروف أن مصر مع عصور ما قبل التاريخ ، وقبل أن تتواجد بها أية عناصر بشرية ، كانت فى حالة بدائية وبرية متوحشة ليس بها من مظاهر المدنية أو الحضارة شيء يذكر • وبرغم هذه الحالة البدائية للبيئة المصرية فى عصور ما قبل التاريخ ، الا انها اشتملت على المقومات الأساسية اللازمة لقيام حضارة عظيمة ، لم ينقصها الا جهد الانسان وكفاحه لاقامة تلك الحضارة • وقد ساعد على هذا التفاعل أن المصريين القدامى والذين استوطنوا تلك البيئة ، كانوا على جانب كبير من الهمة والفطنة ، فاستطاعوا استخدام تلك الميزات الطبيعية لديهم فى تعاملهم مع هذه البيئة الغنية بالموارد الطبيعية المختلفة ، فأقاموا حضارتهم العظيمة على مسرح البرية والتوحش (١) •

وقد ظل أثر الطبيعة المصرية واضحا فى احتفاظ الحضارة المصرية حتى الآن • بطابعها المصرى الأصيل ، فحياتها الزراعية لم تتغير كثيرا ، كما أن ألوان الحياة الأولى لا تزال باقية فى مزارعها وحقولها ، وكذلك فى كثير من نواحى حياة الناس التى لم تزال متأثرة بالطبيعة المصرية فى الأرض •

---

(١) محمد جمال الدين مختار (د•) واخرون : تاريخ مصر القديم ، القاهرة ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٩١ ، ص ١ •

وتنقسم عوامل ومؤثرات القوة الذاتية الى :

اولا : العوامل أو العناصر الطبيعية •

ثانيا : العنـاصر البشرية :

اولا : العوامل أو العناصر الطبيعية :

تمثل مصر بيئة جغرافية فريدة ، اذ يقتصر السكن والعمران بها على شريط محدد لا يتجاوز نسبة ٣٪ من مساحة البلاد ، حيث يتركز العمران ومظاهر الاستقلال الاقتصـادى الكثيف حول نهر النيل الذى تدين له الحضارة المصرية القديمة بالنشيء الكثير ، وقد أحيطت بهذه المساحة التى تضج بمظاهر الحياة النشطة والتى تمثل مركز احتشاد الحجم الأكبر للسكان ، بحدود واضحة تماما من الأراضى الصحراوية الجرداء الجافة ، اذ أنها لا تتدرج اقليميا أو نباتيا أو سكانيـــا ولا يقصـد بهذا التحديد التقليل من أهمية الصحراء الشاسعة التى تشغل معظم مســاحة البلاد نظرا لدورها الهام فى حياة البلاد الاقتصادية بما تحويه من معادن وثروات ، وكذلك دورها الهـام فى تحقيق الأمن للبـلاد بحمايتها من شر الغزوات والهجمات عبر تاريخها الطويل ، وتأثير ذلك على استراتيجية مصر وسياستها بالاضافة الى أن هذه الصحراء تخترقها العديد من طرق المواصلات التى تربط مصر بجيرانها من الدول التى تقع فى الشرق أو الغرب أو الجنوب •

واذا كان نهر النيل العظيم قد كفل ووفر للانتاج الزراعى أسباب النمو والازدهـار لمصر ، وكفلت الصحراء الشاسعة للبلاد الأمن والطمأنينة مما مكن للحضارة المصرية القديمة تميزها بالعراقة والنمو المفضل • فان موقع البلاد الجغرافى قد خلق من مصر مركزا تاريخيا هاما من مراكز الحضارة باعتبارها ملتقى الحضارات المختلفة

وعقدة طرق المواصلات العالمية بين القارات الثلاثة آسيا وأفريقيا وأوربا . لذلك كانت مصر مهدا صالحا لقيام حضارة متقدمة نشرت ثمارها في منطقة شاسعة من العالم القديم ، كما أنها تلقت بحكم موقعها من العالم الخارجي الذي تنقطع صلاتها به مما أثر فيها عندما غربت شمس حضارتها ، وأرادت أن تنطوى على نفسها . وهكذا نشأت مصر كما عرفها التاريخ والمؤرخون ـ نتيجة تفاعل عوامل طبيعية وبشرية معقدة تتصل حينا بظروف بيئتها ، وحينا آخر بحكم موقعها وظروفها السكانية .

(أ) الموقع الجغرافى :

لكل دولة موقعها المتميز الجغرافى على سطح الكرة الأرضية ، والذى يؤثر فى اتجاهات الدولة من حيث سلوكها السياسى وعلاقاتها بالدول الأخرى ، كما يؤثر فى طبيعة النشاط الاقتصادى والسكانى بها . وهناك ثلاث عناصر لدراسة الموقع الجغرافى سياسيا هى :

١ ـ الموقع الفلكى ٢ ـ الموقع البحرى ٣ ـ الموقع بالنسبة للدول المجاورة .

(أ) تقع مصر بين خطى عرض ٢٢° ، ١٠٠° ، ٣١° درجة شمالا وتقع بين خطى طول ٢٤° ، ٠٠/ ٣٦° درجة شرقا .

(ب) يحدد موقع مصر بين خطوط العرض السابقين طبيعة مناخها ، والذى ينقسم الى أربعة أقسام :

١ ـ مناخ البحر المتوسط المعتدل على الساحل الشمالى .
(حار جاف صيفا ـ دفىء ممطر شتاءا) .

٢ ـ مناخ شبه جاف فى منطقة القاهرة الكبرى وجنوبها •

٣ ـ مناخ شبه صحراوى من محافظة السويس وحتى محافظة المنيـــا •

٤ ـ مناخ صحراوى قارى من محافظة المنيا وحتى الحدود الجنوبية لمصر •

(جـ) أدى اختلاف المناطق والأقاليم المناخية الى تنوع النشاط السكانى ، وتباين الحاصلات الزراعية ، مع الوضع فى الاعتبار أن الاقليمين الأخيرين فقيرين نسبيا فى الانتاج الزراعى •

(د) الموقع الفلكى : بين خطى الطول السابقين ليس لهما تأثير فى الدراسة الجغرافية السياسية لمصر نظرا لتحديد التوقيت العالمى بخط جرينتش •

٢ ـ الموقع البحرى :

(أ) ساعد موقع مصر بالنسبة للبحار والمحيطات على تحديد طبيعة مصالحها السياسية وحالتها الاقتصادية •

(ب) **تطل مصر على بحـــرين دافئين من أهم بحـار العالم** بالنسبة للتجارة الدولية وهما البحر الأحمر والبحر المتوسط حيث يؤديان الى المحيط الهندى جنوبا والبحر الأسود شمالا والمحيط الأطلنطى غربا بما يوفرونه من خطوط المواصلات العالمية •

(جـ) ساعد الموقع الساحلى على البحرين الأبيض والأحمر على النمو الاقتصادى ، كما أنه أدى الى احتكاكها بالحضـــارات

القديمة ، ولو أنه يعيب موقعهـا البحرى قلة الموانى المنشـــطة للتجارة ، مما يقلل من استفادتها من هذه الميزة البحرية .

(د) أثر موقع مصر الساحلى على شخصية شعبها ، فاتصفوا بحب الاســـتطلاع وسـعة الأفق ، والنظرة الاستراتيجية للأمور والأحداث . والانطلاق الحضــارى ، والتفاعل مع التيارات الوافدة الملائمة للبيئة والناس .

(هـ) ألقى هذا الموقع الساحلى الممتد عبئا عسكريا على مصر لحماية سواحلها الممتدة ، وتأمين مرور تجارتها الدولية بها .

(و) يخترق نهر النيل أرض مصر من الجنوب الى الشمال وهو صالح للملاحة النهرية فى معظم أجزائه طوال العام مما ساعد على ربط أجزاء مصر ملاحيا ، كما أنه أعطى ميزة الاتصال النهرى بالبحر المتوسط . وقد كان هذا النهر ميزة فريدة فى موقع مصر .

٣ ـ الموقع بالنسبة للدول المجاورة :

(أ) تمتد حدود مصر الغربية لمسافة ١١٠٠ كم من ساحل البحر المتوسط عند السلوم حتى العوينات جنـوبا ، ويحدد هذا الجفاف مما يمكن اعتباره مانع طبيعى بالاضافة الى وجود بحر الرمال الأعظم والكثبان الرملية التى توفر الأمن الطبيعى من هذا الاتجاه فى معظم أجزائه ، ويقلل من عبء الدفاع عنه .

(ب) تمتد حدود مصر الشمالية بمحاذاة الساحل الجنوبى (الأفريقى) للبحر المتوسط مما يحقق لها سهولة الاتصال بالدول

الواقعة على الساحل الشمالى الأوروبى للبحر المتوسط ، وكذا الدول الواقعة فى القسم الشرقى أو الغربى من حوض البحر المتوسط .

(ج) تمتد حدود مصر الشرقية بخط الحدود الدولية مع اسرائيل فى الشمال الشرقى من رفح شمالا حتى رأس طابا جنوبا ، التى أقرتها اتفاقية عام ١٩٠٦ خلال حكم تركيا لفلسطين سياسيا . ثم يمتد خط الحدود الشرقية ليسير من رأس طابا شمالا بحذاء الساحل الغربى للبحر الأحمر حتى مقابلته لخط الحدود الشمالية للسودان جنوب رأس حدربة ويعتبر الاتجاه الشمالى الشرقى أكثر الاتجاهات تهديدا لأمن مصر على مدى جميع مراحل التاريخ قديمة ووسيطة وحديثة .

(د) تمتد حدود مصر الجنوبية متطابقة مع خط عرض ٢٢ درجة شمالا ، وهى تمتد من جنوب رأس حدربة على ساحل البحر الأحمر شرقا حتى جبل العوينات غربا بطول ١٢٣٠ كيلو متر ، وهذا الخط الحدودى أملته على مصر والسودان سلطات الاحتلال البريطانى عام ١٨٩٩ وكان فى الأصل حدا اداريا ثم اعتبر بعد ذلك حدا سياسيا ونظرا لأن علاقة مصر بالسودان علاقة قوية سياسيا وثقافيا ودينيا علاوة على ما يربط بين الشعبين من أواصر الترابط التاريخية ، فان هذا الاتجاه الجنوبى يعد أقل الاتجاهات تهديدا لأمن مصر .

(هـ) يشكل موقع مصر البرى بالنسبة للدول المجاورة (ليبيا من اتجاه الغرب ، السودان فى الجنوب ، كدولتين عربيتين بعدا اضافيا للعمق الاستراتيجى العسكرى بالاضافة الى ما ييسره هذا الموقع من تبادل الخبرات وانتقال العمالة الفنية ورؤوس

الأموال بينها • وقد أدت كثافة السكان القليلة بالمناطق الحدودية مع الدولتين العربيتين ليبيا ـ السودان ـ الى الاقلال من عوامل الاحتكاك بينهما واستقرار الأوضاع بهذين الاتجاهين •

(و) يشكل موقع مصر البرى فى الاتجاه الشمالى الشرقى منذ التاريخ السحيق منفذا للغزاة وهو ما عانت منه مصر عبر تاريخها القديم والوسيط والحديث ، وأصبح يشكل عبء للدفاع عنه نظرا لما يحتاجه من عدة وعتاد وأسلحة وغير ذلك •

(ز) بالرغم من ميزة الموقع المتميز لمصر ، الا أنه شكل خطورة لأمن مصر نظرا لانتشار الأفكار والايديولوجيات الوافدة من خلال الهجرات والغزوات والتبادل التجارى •

(ح) أدى موقع مصر المتوسط الى وقوعها على فترات متعاقبة فريسة للأطماع وسيطرة الامبراطوريات القديمة (الرومانية ـ الفارسية ـ العثمانية ـ فرنسا ـ بريطانيا ـ التنافس بين القوتين العظميين فى الوقت الحاضر) •

(ط) كذلك تأثرت مصر نتيجة موقعها الاستراتيجى بالتطورات العالمية فى وسائل النقل والمواصلات ومعدات الحرب الانتاج الصناعى ـ والتبادل التجارى) •

(ى) ترتب الدول بالنسبة لموقعها وفقا لقربها النسبى طبقا لطريقة ردزت التى تعتمد على أطوال الخط المستقيم فى دائرة عظمى ـ وبعد العواصم العالمية عن بعضها البعض ، وتم تقسيم أهمية الدول بالترتيب التالى :

أوروبا ـ نصف الكرة الغربى ـ آسيا ـ أفريقيا والغريب فى هذا التقسيم أنه وضع ايران ، واسرائيل ـ والدول العربية

(عدا اليمن) ضمن مجموعة أوروبا الأكثر أهمية من حيث الموقع العالمى ٠

(ك) أدت زيادة أهمية مصر وموقعها النسبى ضمن مجموعة الدول العربية الى التأثير على صناع القرار السياسى بمصر عند تحديد السياسة الخارجية فى عدم اغفال الدائرة العربية ٠

(ب) الحجم (أو المساحة) :

(أ) يتأثر الثقل السياسى للدولة بالمساحة التى تشغلهـــا مقارنة بمساحة الدول الأخرى المجاورة لها ، مع عدم اغفال العناصر الجغرافية الأخرى (مثل المناخ ــ التضاريس ــ النبات ــ السكان) وتعتبر المساحة أساسا من أسس القوة العسكرية والاقتصـــادية للدولة ٠

(ب) تعد معظم دول العالم دولا صغيرة أو متوسطة الحجم ، والقليل منها يشـــكل دولا كبيرة الحجم ، وليس هناك حد أمثل لمساحة الدولة ، فلا جدوى من معرفة مساحة الدولة دون ربطها بعناصر الانتاج بها ٠

(جـ) تبلغ مساحة مصر مليون وعشرين ألف كيلو متر مربع (٠٢٠ر٠٠٠ر١ كم٢) وهى بذلك تعد من الدول ذات المساحـة المتوسطة (طبقا للتقسيم الدولى) وتقسم هذه المساحة الى مسطحات مائية داخلية تمثل ٥ر١٪ من مساحتها ، وأراضى زراعية تمثل ٥ر٣٪ من مساحتها ، والباقى عبارة عن صحارى تمثل ٩٥٪ من المساحة الكلية للبلاد ٠

(د) يتركز العمران والاستغلال الاقتصادى والكثافة السكانية العاليـة بمصر حول نهر النيل وخاصة شمال منطقة الدلتا • هذه المساحة توفر لمصر عدة مميزات أهمها •

١ ـ حدود سياسية واضحة ومستقرة •

٢ ـ عمق استراتيجي يحقق سياسة عسكرية دفاعية ، ويوفر انذارا مبكرا نسـبيا •

٣ ـ عدم وجود مناطق عازلة بين العناصر السكانية (مثل الموانع الطبيعية مما يؤدى الى التماسك الاجتماعى •

(هـ) تتأثر مساحة مسر بعنصرين هامين يجب وضعهما فى الاعتبار وهما :

١ ـ ان التقدم التكنولوجى فى مجال الصناعات الحربية يفقد مساحة مصر مميزاتها الدفاعية •

(و) ان المحافظة على استقرار وثبـات حدود مصر يتطلب الدخول فى نطاقات اقليمية سياسية فى شكل اتحادات أو وحدة أو تكامل مع الدول العربية المجاورة لها بالاضـافة الى العمل الدبلوماسى الجماعى •

٣ ـ الشـكل :

(أ) يعتبر الشكل العام لحجم ومساحة وموقع مصر شبيه بالشكل المربع هندسيا اذ تتساوى أطوال حدودها الأربعة تقريبا ،

مع انحراف العاصمة شمالا نحو منطقة الجذب السكانى بدلتا وادى النيل •

(ب) القاهرة هى العاصمة الدائمة للدولة ، وهى تعتبر عاصمة تاريخية تقليدية ذات شهرة محلية واقليمية وعالمية ـ ويوفر موقع العاصمة سهولة ادارة الحكم مركزيا ويحقق السيطرة على الأقاليم وطرق المواصلات بالبلاد كما يوفر لها وقاية نسبية من وجهة النظر العسكرية ، ومرونة فى السيطرة على تحركات القوات خلال الصراعات المسلحة •

٤ ـ التضاريس (السطح) :

(أ) تنقسم مصر من حيث التضاريس الطبيعية الى عدة أقسام متباينة أهمها :

١ ـ السهل الساحلى الملاصق لكل من البحرين الأبيض والأحمر •

٢ ـ السهل النهرى لوادى النيل •

٣ ـ السلاسل الجبلية الشرقية (المطلة على البحر والموجودة بسيناء) •

٤ ـ الصحراء الشرقية والصحراء الغربية •

٥ ـ سلسلة المنخفضات (الفيوم ـ الواحات ـ القطارة) وبحر الرمال الأعظم •

(ب) تؤثر طبيعة هذه التضاريس على نواحى الأنشطة المختلفة :

١ ـ تنوع نشاط السكان من الزراعة فى وادى النيل وهى النشاط الرئيسى للسكان ، كذلك الصيد والصناعات القائمة عليه ، الى التعدين والصناعات القائمة عليه (البترول وغيره) ، الى التجارة الداخلية والخارجية ٠

٢ ـ اتباع استراتيجية عسكرية تعتمد على استغلال المساحة الصحراوية الشاسعة ، وصلاحية الأرض لسير جميع أنواع الحملات الحربية بصفة عامة مما يحقق امكانية المناورة بالقوات من اتجاه الى آخر لما يدعو الى استخدام القوات الميكانيكية بكثرة وخاصة المدرعات ٠

٣ ـ برغم طول وامتداد السواحل المصرية ، الا أنها لا تشكل تهديدا خطيرا لأن مصر نظرا لعدم صلاحيتها للغزو بقوات كبيرة الحجم أو أعمال الابرار البحرى الكبيرة الا من خلال مناطق معينة ٠

٤ ـ وفرت الصحراء المصرية والسلاسل الجبلية بالشرق والغرب موانعا طبيعية لمصر من اتجاه الشرق والغرب ، وحددت محاور الاقتراب بما يسهل الدفاع عنها فى قطاعات محددة ٠

طبيعة التربة :

(أ) التربة المصرية تربة متجانسة فى تكوينها العام لأن مصدرها واحد ، وهى تنقسم الى تربة رملية ، وصفراء ، وطينية ، وصخرية ٠

(ب) يتركز الجزء الأكبر من الأراضى الصالحة للزراعه حول وادى النيل والدلتا وتبلغ مساحة الأرض الصالحة للزراعة ١ ـ ٦ مليون فدان ٠

(ج) تختلف أراضى التوسع الزراعى فى نوع تربتها ما بين تربة رملية أو طفلية أو صخرية ٠

(د) أثرت طبيعة التربة المصرية على النواحى الآتية :

١ ـ اعتماد مصر على الزراعة كقوة اقتصادية ٠

٢ ـ استقرار السكان حول حوض النيل للعمل بالزراعة ٠

٣ ـ صلاحية معظم التربة المصرية لتحرك جميع أنواع الحملات العسكرية ٠

٥ ـ المناخ :

يتصف مناخ مصر بمناخ المنطقة الجافة الحارة ، عدا السهل الساحلى الشمالى اذ يعتبر ضمن مناخ البحر المتوسط ، وتسقط الأمطار شتاءا على السهل الساحلى بكميات قليلة تصل حتى ٧ ـ ٣ سم٣ ولا تؤثر هذه الكميات فى الزراعة وان كان يستفاد بها فى الزراعات ٠

تأثير المناخ على نواحى النشاط فى مصر :

١ ـ تركيز الكثافة السكانية حول حوض نهر النيل ، والسهل الساحلى الشمالى مع تشابه نشاط السكان وأعمالهم ٠

٢ ــ نظرا لعدم التباين الحاد فى مناخ مصر ، فقد أدى ذلك الى ترابط جميع أجزاء الدولة ٠

٣ ــ انتاج الحاصلات الزراعية على مدار العام ، كما أن الجفاف ودرجة الحرارة أعطت لمصر ميزة اقتصـادية فى الانفراد بانتاج بعض الحاصلات النقدية مثل القطن وغيره ٠

٤ ــ كبر مساحة الأراضى الصحراوية فى مصر رغم صلاحيتها للزراعة ٠

٥ ــ امكانية استخدام جميع أنواع الأسلحة والمعدات الحربية فى جميع فصول السنة مما يؤدى الى رفع الكفاءة القتالية للقوات ، ويعتبر فصل الخريف فى مصر أنسب فصـول السنة للعمليات الحربية ٠

ثانيـا : الموارد الطبيعية : (تمهيد) :

وتنقسم الموارد الطبيعية الى الآتى :

(أ) موارد معدنية ٠

(ب) موارد زراعية ٠

(جـ) موارد غابية ٠

(د) موارد مائية ٠

(أ) الموارد المعدنية :

١ ــ يرتبـط توزيع المعادن بالتكوين الجيولوجى لطبقـات الأرض ، وتتميز الخامات المعدنية بأنها أكثر تركيزا فى توزيعها

الجغرافى بالعالم بالنسبة الى الخامات الزراعيـة الواسعة الانتشار فى جميع أجزاء العالم :

وتتصارع القوى السياسية والعسكرية فى سبيل السيطرة على المناطق التى تحتوى على الخامات المعدنية لأن امتلاك الدولة لها يضعها فى مصاف الدول الكبرى نظرا لتأثيرها الفعال فى تطوير اقتصادياتها ، وامكان انشاء صناعة حربية متقدمة ، وبناء جيش قوى يحمى مصالحها •

٢ ـ تتصف الخامات المعدنية بغنائها اقتصاديا ، بمعنى انه كلما زاد استغلالها كلما قاربت على الفناء ـ بعكس الخامات الزراعية التى تتميز بدوامها كلما توفرت التربة والمياه والمنـاخ المناسبين للزراعة ـ وبناء على ذلك يمكننا القول بأن تأثير تواجد الخامات المعدنية كعامل مؤثر فى الجغرافيا السياسية للدولة ، وفى قوتها ، عامل متغير وغير ثابت •

وتنقسم الخامات المعدنية الى ثلاثة أقســام استراتيجية ، وضرورية وخطيرة •

(أ) الخامات الاستراتيجية :

وهى الخامات التى لا غنى عنها للدفاع عن الدولة ، ويأتى كل انتاجها أو جزء منها من خارج الدولة ، ويمتد الطلب عليهـا للاستخدامات الضرورية وقت الحرب أو الاستعداد لها نظرا لدخولها فى صنع معدات القتال • وتشمل الخامات الاستراتيجية على معادن الانتيمون ـ الكروم ـ المنجنيز ـ الزئبق ـ النيكل ـ التنجستين ـ القصدير ••• الخ • ومن أهم خصائص التوزيع الجغرافى لهذه

المعادن هو تمركزها فى عدد محدود من الدول فعلى سبيل المثال تنتج كندا حوالى ٩٠٪ من الانتاج العالمى من النيكل ·

(ب) الخامات الضرورية :

وهى الخامات اللازمة لقيام الصناعات الثقيلة وتشمل هذه الخامات على معادن : الحديد ـ النحاس ـ الرصاص ـ الماغنيسيوم ـ الفوسفات ـ البوتاسيوم ـ الكبريت ـ اليورانيوم ـ · ويعتبر الحديد من أهم هذه الخامات باعتباره العنصر الرئيسى فى الصناعات الثقيلة ·

(ج) الخامات الخطيرة :

وهى الخامات التى لا غنى عنها فى الدفاع عن الدولة ، ولكن الحصول عليها بعد أقل خطورة من الحصول على المواد الاستراتيجية ، ومن هذه الخامات الخطرة معادن الألمنيوم ـ الاسبستوس ـ الجرانيت ـ اليود ·

الموارد الزراعية :

هذه الموارد عبارة عن محاصيل زراعية تعتمد فى انتاجها على الظروف الطبيعية من مناخ وتربة ومياه لازمة للرى وعلى ظروف لا يمكن التحكم فيها وتشمل هذه الخامات المطاط الطبيعى ، والألياف مثل القطن والجوت والحرير الطبيعى والصوف والحاصلات النقدية والغذائية ، وقد تمكن الانسان من صنع بعض البدائل الصناعية المختلفة لبعض منها أى لبعض هذه الخامات مثل المطاط الصناعى

وغيره ـ وهو أحد أنواع الخامات الاستراتيجية التى تدخل صناعة بعض المعدات الحربية وغيرها من الصناعات الهامة (١) ٠

الموارد الغابيــة :

ومعنى الموارد الغابية هي الموارد التى تستخرج من الغابات كالأخشاب بأنواعها المختلفة والتى تتميز بصفة طبيعية وتعتبر أحد الخامات الهامة الاستراتيجية فى الصناعات الحديثة ، والتى قد يستخدم جزء منها كمصادر للطاقة ٠

الموارد المائيـــة :

وتعنى مصـــادر المياه العذبة التى تتوفر للدولة من أنهـار وبحيرات داخلية أو ميـاه جوفية أو غير ذلك والتى تعتمد عليهـا الزراعة اعتمادا كليا ، كما قد تستخدم كمصدر من مصادر الطاقة الكهربائية ووسيلة من وسائل المواصلات الداخلية ٠

الموارد الطبيعية المتوفرة فى البيئة المصرية :

عندما يسـتعرض المصرى القديم مقومات البيئة التى يعيش فيها ، أو يصور منظرا طبيعيا أو يسترجع ذكريات مدنية فان له هدفا واضحاً محددا وهو ببساطة حصر الرموز التى تتكون منها بيئته المهنية أو مقتنياته ٠ أو تحديد معالم حدث معين أو توضيحه بالصورة أو الدفاع عن موضوع فكرى أو عقائدى ٠ وبناءا على هذا

---

(١) عبد الحليم السيد : مذكرات فى جغرافية مصر السياسية ٠ بيروت ، دار الندوة ، ١٩٦٤ ، صص ٧٧ ـ ٩٢ ٠

التصور . هل يمكن لنا ان نصدق أو نعتقد هذا المعنى النمطى . والحقيقة انه لا بديل عن ذلك بمضاهات شواهد هذا الفنان بالشواهد التى جمعها علماء الآثار ، والتى يمكن من خلالها التوصل الى بعث بعض العناصر التى شكلت البيئة التى عاش فيها هذا المصرى القديم من ناحية ، وكيف تصورها هو نفسه من الناحية الأخرى (١).

وسوف نستعرض هنا الموارد الحقيقية للبيئة المصرية ليس فقط عند التأريخ لبدء الحياة فى مصر ، ولكننا سوف نذكر ما اكتشف من هذه الموارد منذ تاريخ بدء الحياة فى وادى النيل حتى الآن ، لأننا لا يمكن لنا أن نجزىء هذا الحديث طبقا للمراحل التاريخية بسبب بسيط وهو أن هذه الموارد كانت كامنة بالفعل فى تربة مصر ولكن لم يتيسر اكتشافها الا فى أوقات وعصور تالية وهو ما نهدف اليه فى الحديث عن عناصر القوة الذاتية ما ظهر أو ما هو ظاهر وما هو كامن . تعريف كلمة الموارد الطبيعية هو كل ما على سطح الأرض من نبات وحيوان ومياه ومعادن وغابات وطاقة وما هو كامن داخل الأرض وكذلك جميع ما يحيط بها من بحار ومحيطات وتشمل عليه هذه المحيطات من ثروات سمكية أو معدنية أو غير ذلك .

اولا : الموارد المعدنية :

توافر على أرض مصر وفى باطنها الكثير من الخامات الاستراتيجية الهامة ، ففى عصور ما قبل التاريخ عرف المصريون الأحجار كالحجر الجيرى والجرانيت والبازلت والحجر الرملى والمرمر

---

(١) دومنيك فالبيل : الناس والحياة فى مصر القديمة ، ترجمة طاهر جويجانى ، القاهرة ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٨٩ ، ص ١٠٧ .

واستخدموه فى تشييد عمائرهم الضخمة واقامة تماثيلهم ومعابدهم .
وفى عصر المعــادن عرف المصريون القدماء معــادن كثيرة كالذهب والنحاس الذى عثروا عليه بكميات وفيرة فى شبه جزيرة سيناء واستخدموه فى كثير من صناعاتهم مثل عمل المقصات والأزاميل والخناجر والفؤوس والبلط ذات الحدين ، ويدل ما عثر عليــه من هذه الآلات والأدوات على درجة كبيرة من التقدم الصناعى .

وبالرغم من استخدام النحاس بكثرة فى هذا العصر فقد صنع المصرى القديم بعض أدواته من الصوان كأسنة السهام والمناجل ، كما صنع من هذه المعادن كثيرا من الأوانى والحلى وأدوات الزينة ، وتقدمت صناعة النجارة والنسيج والجلود ، أما الفخار فقد ظهرت عقب اكتشافه لهذه المادة الخام العظيمة صناعة الأوانى الفخارية لحفظ الطعام والشراب كالجرار والأباريق والأكواب والأطباق ، كما بدأ المصرى القديم فى بناء مساكنه من الطوب اللبن بدلا من الطين والبوص (١) .

ولقد تعددت الثروات المعدنية فى الهضبة الجبلية التى تحيط بوادى النيل وتنوعت طبيعتها الجيولوجية . ومنذ وقت مبكر كانت هذه الهضبة مسرحا نشطا لأعمال المحاجر والمناجم التى استقبلت بصفة دورية البعثات التى تتفاوت أهميتها حسب الظروف الخاصة .

وفى بعض العصور وطبقا للسياسة التى رسمها ملوك مصر تزايدا على استغلال بعضها دون البعض الآخر . وقد احتفظت هذه الأماكن ببقايا استخراج الحجر والمعادن وغيرها من الخامات ، وبقيت أطلال مســـاكن العمال والهياكل التى شيدها هؤلاء الرجال سواء كانوا جنودا أو عمال غير مهرة أو حرفيين .

---

(١) زكى رشيد واخرون : تطور الصناعات فى مصر القديمة والاسلامية جـ ١ ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ١٩٥٥ ، صص ٤ ـ ٨ .

وقد وصلت الينا ما يشبه خريطة للبحث عن كنز توضح قطاع من وادى الحمامات فى الصحراء الشرقية ، والخريطة مرسومة فى خطوط مبسطة على لفافة من ورق البردى ، وقد رسمت الجبال مستوية على جانبى الدروب التى تشق المنطقة ، وتوضح مواقع المناجم الخاصة بالذهب والصخور التى تحتوى على معدن الفضة ، وأكواخ العمال وموقع البئر ومعبد الاله آمون ونصب حجرى لأحد الفراعنة الذى شيد سلسلة من مراكز توفير الماء على امتداد أحد الدروب صوب هذا الموقع ، ليتيسر رحلات الفرق المرسلة للعمل فى مناجم الذهب والمعادن الأخرى ، بينما تتولى فرق خاصة من الشرطة مسئولية حراسة هذه المراكز الادارية (١) ·

ان الحجر الجيرى الرائع من مصر الوسطى وبخاصة من محاجر طرة المقابلة لأهرام الجيزة استخدم فى تشييد كل المعابد والمقابر فى العصور القديمة مادامت لم تصنع من الطوب اللبن المجفف فى الشمس أو تنحت من جرانيت الشلال ، وانه لما يدعو الى بعض العجب أن الحجر الرملى الأقل جودة استطاع أن يحل محله ابتداءا من الدولة الحديثة (١٥٠٠ ق٠م) أما الأحجار الأغلى والأصعب ممارسة فقد استخدمت فى صناعة توابيت الملوك والنبلاء وأعمدة أضرحتهم وهياكلهم وكانت لهفتهم أكثر ما تكون على الجرانيت الأحمر الذى يستجلب من الجندل الأول ، ولم يكن الجرانيت الرمادى بأقل قيمة فى نظرهم ·

أما القيمة المعروفة للبازلت الذى يستجلب من الصحراء عند قفط فقد أكدتها نقوش الصخور عند وادى الحمامات والى الشمال منها توجد محاجر عدة كان يؤتى منها بالمرمر ذى اللمعة

---

(١) دومنيك فالبيل : مرجع سابق ، صص ١٢٠ ـ ١٢١ ·

نصف الشفافة الذى كانوا يفضلون اســـتخدامه لصـــنع الجرار والأوانى من كافة الأشكال والأحجام منه ولأغراض البناء الأخرى ، وكان الكوارتز الذى يميل لونه الى الحمرة يستجلب من الجبـل الأحمر (شمال شرق القاهرة حاليا) وهو أكثر صلابة ويعد من أجمل أنواع الأحجار التى حاول المصريون نحتها بنجاح • وهناك أحجار أخرى جميلة جيء بها من تخوم مصر تل البرشيا واليشب والصوان والسنسست • والحق انه لا يوجد فى العالم أجمل ممن كانوا أمهر من المصريين فى معالجة الأحجار حتى بعد الكمال الذى وصلت اليه الأوانى التى تعد ولا تحصى ، وكذا الجرار والصحاف وغيرها مما وجد فى الهرم المدرج معجزة تعدل الهرم الأكبر نفسه • والحديد فليس هناك شك فى أنه استخدم فى صنع الأدوات حتى أول الألف الثالثة قبل الميلاد ، ويشير وجود خنجر له سلاح من الحديد مزين زينة رائعة فى مقبرة توت عنخ آمون الى المركز الممتاز الذى احتله ذلك المعدن • وقد عثر على حبات من الخرز من أصل شهبى فى واحدة من مقابر جرزة من عصر ما قبل الأسرات • وكان يعثر من وقت لآخر فى مناسبات متفرقة على الحديد أو المعـادن الشبيهة أو غيرها وان كان هذا غير ذى بال بالنسبة لنا • وخاصة لأننا نقدم صورة عامة غير كاملة للثروة المصرية •

وفى عصور ما قبل التاريخ لم توجد بمصر أحجار كريمة بالمعنى المفهوم من هذا الاصطلاح اليوم ذلك أنه كان يكفى صناعة الحلى من اللازورد والفيروز والجشمت (الياقوت ـ الامانست) والعقيق وغيرهـا ، وربما كان استخدام هـذه الأحجار أقل بهرة للناظر ، وان لم يكن أقل جاذبية وذلك لأنها كانت لامعة ومصنوعة بمهارة فائقة •

وقد تم انتاج التزجيج من عصر ممعن فى القدم ، ويستطيع هواة تلك المجموعات أن يدركوا القيمة العالية للقيشانى الأبيض والأخضر فى مصر (١) ٠

أما عن النحاس فتسجل نقوش الحضارة بسيناء وادى مدر شرق خليج السويس ٠ أن المصريين عرفوا النحاس وطرق صناعته وأماكن استقلاله فى شبه جزيرة سيناء قبل ظهور الأسرات (٣٢٠٠ ق٠م) وأن المصريين لم يعرفوا فى عصر حضارة البدارى (٥٠٠٠ ق٠م) أى عصر ما قبل الأسرات هذا المعدن فحسب بل كانوا يصنعون منه أدواتهم البسيطة وبعض حليهم كما قرر لوكاس فى كتابه « أدوات قدماء المصريين وصناعاتهم ، وكانوا يستخدمون كذلك (الملخيت) وهو أحد أو كسيدات النحاس فى الكحل وعلاج العيون ثم اتسع استخدامه للحصول على اللون الأزرق ٠ كما استخدموا أهم ما اشتهرت به سيناء هناك وهو الفيروز للزينة ٠ وربما لاستخلاص الألوان ٠ وهذه المواد الثلاثة النحاس والمليخت والفيروز كانت مناطق جنوب سيناء مصدرها ولم يخل مرجع من المراجع الخاصة بتاريخ العالم القديم من التركيز على اهتمام المصريين القدماء باستخراج النحاس من سيناء ٠

ومن أدراك الأهمية القصوى للحضارة المصرية فى بدايتها من الحصول على المعدن الذى يمكن أن تصنع منه الأدوات والأسلحة وأن صخور وادى السقارة كانت تخفى كثيرا من المعادن ، كالفسفور الذى يحتوى على ٣ الى ٤ فى المائة من أكسيد النحاس وهيدروسيليكات النحاس والرأى الراجح هو ابراز أهميتها

---

(١) سير الن جاردنر : مصر الفراعنة ، ترجمة د٠ : نجيب ميخائيل ابراهيم ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ ، صص ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ٠

التاريخية فقد قرر (برتولية) ان تلك المناجم ربما قد لعبت دورا هاما في التطور البشرى ففي مداخل كهوف جبال سيناء حول نار أوقدها بعض البدو الرحل على أرض تناثرت فيها عروق أو مسحوق المعدن يخيل ان يكون الانسان قد رأى للمرة الأولى في منطقة البحر الأبيض المتوسط النحاس وقد انفصل بفعل حرارة النار الموقدة في الصخرة وتوهجت الوانه الزاهية ولمع من بين بقايا النار المشتعلة وأن سيناء من مناطق العالم التي اخترعت على أرضها صناعة التعدين ٠

وقد ذهب العالمان الفرنسيان « موريه » و « دودافى » في كتابهما « من القبيلة الى الامبراطورية » الى أن الدولة القديمة في العصر العتيق أى العصر الطينى (٣٢٠٠ ـ ٢٧٨٠ ق٠م) وقد ثبتت فائدة تنظيم استغلال هذه المناجم التي أسهمت في تطوير الحياة المادية والعلاقات الصناعية والسياسية للشعوب التي كانت تملك الدولة العتيقة تحكمها ٠ وان الفراعنة سيطروا في شمال سيناء على الطرق الى آسيا عبر برزخ السويس ٠ وفي هذه المنطقة التقوا بالساميين الذين كانوا أحيانا يهاجمون القوافل التي تحمل الأخشاب والمعادن الى البيدوس ثم تعود بعد تصنيع المواد الخشبية والحجرية والعظيمة والعاجية ولذلك اهتم ملوك العصر بتقوية الأمن في سيناء (١) ٠

وعلى مدى العصور التالية اكتشفت المعادن الأخرى تدريجيا ، وهذا خير دليل على ان ثروة مصر المعدنية كانت احدى ركائز الحضارة المصرية القديمة ، وان مصر هى الوحيدة من بين دول العالم التي

---

(١) المجالس القومية المتخصصة : السياحة في سيناء ، ومستقبلها حتى عام ٢٠٠٠ ، القاهرة ، رئاسة الجمهورية ، ١٩٧٩ ، ص ص ١٧ ، ١٨ ٠

تمكنت من تصنيع تلك المعادن فى عصور ما قبل التاريخ فكان أهمها الحديد والنحاس والذهب والفضة والمنجنيز والقصدير والجرانيت والاسبستوس وغيرها من المعادن والأحجار الأخرى ٠

المـوارد الزراعيـة :

والحديث عن الموارد الزراعية فى مصر يرتبط ارتباطا وثيقا بالحديث عن السبب الرئيسى لهذه الموارد الزراعية ألا وهو نهر النيل العظيم ، والمعروف ان هذه الموارد الزراعية عبارة عن نوعين من المحاصيل اما نقدية أو غذائية تعتمد فى انتاجها على الظروف الطبيعية المتوافرة فى البيئة من مناخ وتربة ومياه لازمة للرى ، وبالنسبة للبيئة المصرية فى عصور ما قبل التاريخ ٠ فيرى المؤرخون أن قاع نهر النيـل ومجراه كان مغطى بطبقات من الطمى والرمـل التى كان يجلبها تيار النهر معه ، ولم يكن صـالحا انذاك لنمو مزروعات كثيرة ٠ ومن الجائز فى نهاية العصر الباليوليثى ان بدأ النهر يجىء بكميات كبيرة من التربة السوداء من مرتفعات الحبشة ، وفى كل فصل عندما تملأ أمطار الصيف الآتية من بلاد الحبشـة النيل الأعلى (الأزرق) كانت المياه تعلو فوق ضفتيه ، وتنتشر هذه المياه المحملة بالطمى على جانبى مجرى النهر وتترك طبقة رقيقة من الطمى أو التربة السوداء الخصبة ، وأصبح هذا الطمى فى النهاية طبقة سميكة هى أرض وادى النيل الخصبة التى كونت شريطا على كل من ضفتى النهر ، وكان هذا الشريط يلتوى ويدور مع اتجاه النهر سواء الى اليمين أو اليسار ٠

وفى بادىء الأمر كان الانسـان فى تلك البقعة من الوادى يعتمد على الجمع والالتقاط ، وفى هذه الأثناء (العصر الحجرى الحديث) تمكن سكان النيل من الوصول الى طريقة جديدة أصبحت

مصدرا دائمـا للغذاء • فمن المحتمل أن النساء اعتدن لمدة آلاف السنين أن يجمعن حبوب بعض الحشائش البرية لصحنها وأكلها • وفى النهاية اكتشفوا أن هذه الحشـائش لو زرعت وسقيت بالماء فانها ستنمو أحسن من ذى قبل وتنتج كمية أكبر من الغذاء • والى جانب ذلك فانهم كانوا يستطيعون أن يبذروا الحب بالقرب من مســاكنهم المؤقتة وبذلك يوفرون على النساء الوقت والجهد الذى يبذل فى البحث عن الأعشاب البرية ، وبدأ هؤلاء الزراع الأوائل فى ايجادطرق لتخزين الحبوب لاستعمالها بين فصل حصاد وآخر • وقد عثر فى منخفض الفيوم غرب وادى النيل على ٦٣ حفرة من المحتمل أنها حفرت لتستعمل شونات للغلال • وكان عدد من هذه الحفر مطموسة بالطين المخلوط بالقش • وكان فى بعض هذه الشونات كميات صغيرة من القمح والشعير وكان فى البعض الآخر سلال وأوعية وكذلك المنجل ، الذى كان يستعمل فى الحصاد •

وهكذا عرف ســكان النيل كيف يخزنون حصــاد غلالهم ويحفظون الحبوب لبذرها فى العام القادم • وهكذا أصبحوا منتجى غذاء بدلا من جامعين له • وعندما رأو أنفسهم قادرين على انتاج القوت على مقربة من أماكن اقامتهم ووجدوا أنه لم يصبح من الضرورى أن يظلوا صيادين يعيشون على قتل الحيوانات الوحشية • وفى النهاية بدأت جماعات من العائلات فى تكوين قرى صغيرة يستطيعوا رعى قطعان الماشية ويروا حقول الحبوب • وفى النهـاية أصبح معظم الصيادين زراعا ومربى للماشية وأصبحت قراهم مساكن ثابتة لاقامتهم (١) •

وفى هذا العصر زرع المصريون الشـعير والكتان ، وكانت موارد مصر المادية فى تلك الآونة ضخمة وفيما عدا سنين القحط

---

(١) جيمس هنرى برستيد مرجع سابق ، صص ٣٥/٣٧/٣٩ •

كانت غلالها وفيرة ومحصولاتها الرئيسية هى الشعير ونوع آخر من القمح ثم من الخضر والتين والبرسيم والعدس والفول والخيار والكرات والبصل ومن الفواكه البلح والجميز والتين والى جانبها هبة السماء العنب ٠

كما عرف المصريون بحبهم للزهور وتظهر على جدران مقابرهم باقات كبيرة تزين موائد الطعام المتخمة بعديد من الألوان وترى الضيوف فى الولائم وهم يقربون اللوتس الى أنوفهم ٠ وزهـرة اللوتس العطرة كانت تنمو بكثرة فى المستنقعات وكانت تلعب دورا له قيمة لدى المعمارين والفنانين وبصرف النظر عن المتعة الجمالية للزهور ودلالتها الرومانسية كروموز للحياة فانها كانت مصـدرا للعسل الذى كان يعوض النقص فى قصب السكر ، كما كان الكتان يزرع بكميات كبيرة وتصنع منه الخيوط ٠ وكان هناك نبات البردى الذى تفردت به مصر والذى استخدم فى صناعة الحبال والحصير والصناديق والنعال والزوارق الخفيفة ٠ وأهم من هذا كله سيقانه التى كانت تقطع فى شرائح رقيقة بوضع بعضها الى جانب بعض طولا وعرضا لتصبح ألواحا تجففها الشمس ثم يستخدمها الكتاب كأداة ممتازة للكتابة وقد ورثها فيما بعد اليونان والرومان ، وأخيرا كانت هناك شجرة يستخرج منها الزيت تدعى « باق » وظن البعض أنها الزيتون وان كان الأرجح أنها شجرة البان التى كان يستخرج منها زيت ثمرة البان ٠

أما الثروة الحيوانيـة فكان هنـاك فصائل من الحيوانات المستأنسة أولها وأهمها سلالات عدة من الماشية الأفريقية وكانت أطيب اللحوم لحوم البقر وكان الثور هو حيوان التضحية الرئيسى الذى استخدم فى الحقول لجر المحراث ، وترى الأغنـام والماعز والخنازير فى نقوش المقابر ، ويفخر أصحاب اللوحات الجنائزية

بالعدد الذين كانوا يملكونه من هذه الأنواع وقد استخدمت الماعز . وفى النادر جدا الخنازير فى وطىء الحبوب • ومن المؤكد أن الخنازير كانت تستغل كطعام وان كان هناك اتجاه الى عدم الحديث عنها فى هذا الصدد • وكذلك كان السمك • وليس من المحتمل أن الماشية كانت تستغل فى أغراض أخرى ما دام التفكير يمنع من استخدام صوفها فى الملابس • وفى العصور الفرعونية ــ كما هى الحال اليوم ــ لم يكن هناك حيوان من ذوات الأربع أصلح للاستخدام عمليا من الحمار سواء لاحضار المحصولات أو حمل الناس • ولم يظهر الحصان فى مصر حتى عهد الهكسوس (حوالى ١٦٠٠ ق٠م) حين أدخل من آسيا لجر العربات أصلا • أما الجمل فقد تأخر استخدامه كثيرا •

كما كانت المزارع تزخر بأسراب الأوز والبط • وكانت الثروة الحيوانية غير المستأنسة بعيدة عن الزارع • ولكن علينا هنا أن نتوقف عن ترديد وسرد أنواع الكائنات الحية التى أسهمت فى لذائذ الحياة الفرعونية لتوجه اهتمامنا الى مورد لا ينضب فيها الحياة من الثروة المصرية (١) •

والواقع ان المصريون خلال العصر الحجرى القديم والحديث وعصر المعادن عرفوا الزراعة وعرفوا الاستقرار وذلك بفضل نهر النيل العظيم الدائم الجريان الذى وفر لهم ما يحتاجونه من حياة ، وخلال عصر المعادن تطورت الآلات الزراعية الحجرية الى آلات زراعية صنعت من المعادن المكتشفة كالحديد وغيره مما ساعد الانسان المصرى على تحسين وتسهيل عملية الزراعة والحصاد •

---

(١) سير الن جاردنر : مرجع سابق صص ٥٦ ــ ٥٧ •

الثروة الغابية :

كان نهر النيل من أكثر العوامل المساعدة على قيام نظام اقتصادي أفضل ، لأن الرحلات البعيدة فى البلاد كانت تتم بواسطة المراكب ، وكان هؤلاء الأقدمون يبلغون درجة من المهارة فى بناء السفن تعدل تفوقهم فى كافة الفنون العملية الأخرى . ومع ذلك فان أخشاب بناء السفن كانت ضرورة أولى ، وكان عدم كفايتها مصيبة ولكن الموقف لم يكن بالسواد الذى يصور به أحيانا لأنه رغم ان المناخ لم يتغير خلال خمسة آلاف عام فان مرتبة الكفاية فى الرى قد تغيرت . كانت هناك على الأرجح اشجار أكثر مما يرى اليوم . ولكن الحاجة كانت تبدو واضحة من ناحية الكيف لا الكم بالنسبة للأخشاب. فالنخيل مثلا ـ كان شائعا فى مصر فى مختلف العصور ـ كان تقريبا عديم النفع اللهم الا لصنع السقوف كما ان أخشاب نخيل الدوم لم تكن مرغوبة كذلك ومن هنا كانت أهمية قيام المصريين بتلك الرحلات الدائمة الى بيلوس . والنصوص المصرية القديمة مليئة بالاشارات الى خشب « عاش » الذى كان يؤتى به من لبنان . وتذكر أحد النصوص أن أربعين مركبة بحرية محملة بالأعاش جيء بها الى مصر فى سنة واحدة من حكم الملك سنوفرو من ملوك الأسرة الرابعة (حوالى ٢٦٢٠ ق.م) . ونقرأ كذلك عن سفن من السنط صنعت فى النوبة السفلى بقصد نقل الجرانيت ونسمع كذلك عن سفينة تم بناؤها على ساحل البحر الأحمر (١) .

ومن الواضح أنه لم توجد فى مصر ثروة غابية بالمعنى المعروف لسبب واحد انه لم توجد على طول نهر النيل أى نوع من الغابات اللهم بضع أنواع من الأشجار والحشائش والنخيل والأحراش

---

(١) سير الن جاردنر : مرجع سابق ، ص ص ٨ ـ ٥٩ .

المنتشرة هنا وهناك على ضفاف النهر وفى أحواض البحيرات الضحلة والمستنقعات ، ولكن اذا اتجهنا جنوبا الى ما بعد منطقة الجنادل سوف تجد ثروة غابية بالمعنى المعروف لاختلاف التضاريس والظروف المناخية ٠

الموارد المائيـة :

فى جميع العصور منذ بدء التاريخ عنى المفكرون بأمر النيل ووضعه ، ومحاولة تفسير ظاهراته المختلفة ٠ ذلك لأن حضارة من أقدم الحضـارات وأرقاها نشـأت فى أدنى وادى النيــل ونمت وازدهرت ٠ وكانت ينبوعا اسـتمدت منـه أمم كثيرة حضاراتها ورقيها ٠

وكان ظاهرا لجميع سكان مصر ولغيرهم ممن خالطوهم واتصلوا بهم أن حضارة مصر مصدرها الأكبر هو النيل الذى ترتب عليـه جميع ما لمصر من الثروة والرخـاء ٠ فكان من الطبيعى ان يفكر المصريون وغيرهم فى أمر النيل ، وفى مصدر ذلك الفيضان الذى يعم الوادى كل عام بانتظام تام ٠ وكان طبيعيا ان ينشأ حتى فى ذلك العهد البعيد تلك المسألة الجغرافية المشهورة « مسألة النيل » ، أو سر النيل ـ ذلك السر الذى لم يتم حله الا فى عصرنا هذا ، وقد شغل المفكرون منذ ستة آلاف من السنين ٠

فأما المصريون الأوائل فقد كانوا فى بدء أمرهم ـ أى فى العصر الميثولوجي لا يعرفون عن مجرى النيل فيما وراء ـ الشلال الأول شيئا كثيرا ٠ وكانت دنياهم التى ألفوها وعرفوها منحصرة فى ذلك الوادى الخصيب الذى كانوا يعيشون فيه ، تحده الصحراء من جانبيه والبحر من شماله والجنادل من جنوبه ، وكانوا يتوهمون

أن هناك بحر فى أسفل الأرض متصلا بالنيل عند جنادلة الجنوبية من جهة وعند البحر من جهة أخرى • وهذا البحر والمحيط هو الذى تغيب فيه الشمس والكواكب مساءا ثم تسبح فيه ليلا وتعود فتظهر فى الصباح • مثل هذه الفكرة لابد أنها نشأت بين قوم لا يعرفون عن أعالى النيل شيئا • فهى ولا شك ترجع الى ما قبل التاريخ • ولكنها ولمنزلتها فى الميثولوجيا المصرية قد اكتسبت شيئا من الحرمة الدينية فتداولتها الألسنة وبقيت آثارها حتى فى العصور التاريخية ، أى بعد علم المصريين عن أعالى النيل الشيء الكثير •

وفكرة البحر المحيط بالأرض التى منشؤها الميثولوجيا المصرية هى بعينها الفكرة التى انتقلت الى اليونان الذين سموا المحيط بالأوقيانونس • على أن جهل المصريين القدماء بأعالى النيل لم يدم طويلا بل سرعان ما اتسع أفقهم واتصلوا بشعوب وبلاد أخرى تقطن وادى النيل • وقد رأى ملوك مصر حتى فى الأسرة الأولى أن بعض الأقوام التى تسكن جنوب الشلال كانت تعتدى أحيانا على حدود مصر فاتخذوا التدابير اللازمة لردهم حتى جاء زوسر وصنفروا فأرسلا البعثات الحربية لاخضاع البلاد التى تدعى اليوم بلاد النوبة •

والسؤال ان حوض أى نهر هو مجموع تلك الأقطار التى تغذيه مياهها وأمطارها والتى تنحدر نحو أودية جبالها وتلالها وقلاعها • ولو كان بعض تلك الأقطار خاليا من المطر أو العيون فانها تحسب جزءا من حوض النهر لأنها لو سقطت فيها أمطارا أو تفجرت فيها عيون لانحدرت الى واديه لا الى وادى غيره •

ولحوض كل نهر حدود عند أطرافه قد تكون بعيدة أو قريبة من مجراه وهو عادة جبال أو تلال مرتفعة تفصل ما بين حوض هذا النهر بروافده وجداوله وبين حوض نهر أو أنهار أخرى •

فحوض النيل بهذا الاعتبار العظيم تبلغ مساحته مليونين وتسعمائة ألف من الكيلو مترات المربعة . ولعل أول ما يلفت النظر هو اتجاه مجرى النيل ـ ذلك الأمر اليسير الهين الذى تمر به حين نذكره مرورا وهو مع ذلك ذو مغزى جغرافى كبير .

يجرى النيل من منابعه الاستوائية فيتجه نحو الشمال حتى يلقى بمائة فى البحر المتوسط ويلتزم فى جريانه هذا الاتجاه الشمالى باستمرار واطراد لا نظير له فى أى نهر من أنهار العالم . قد ينحنى مجراه تارة الى الغرب وأخرى الى الشرق وتارة الى الجنوب الغربى أو الشمالى الشرقى . لكنه لا يلبث أن يرجع الى الاتجاه الشمالى ثانيا كأنه يسعى الى القطب .

وحين يصب فى البحر المتوسط نرى أن مصبه عند دمياط ومخرجه من بحيرة فكتوريا كلاهما ، واقع احدهما شمال الآخر لا يفصلهما غير درجة واحدة من درجة الطول . والخلاصة أن مجرى النيل من منابعه الى مصباته واتجاهه من الجنوب الى الشمال بنظام ليس لأى نهر آخر نظيره .

وهنالك أمر آخر مرتبط بهذه الظاهرة وهو : أن أقصى منابع النيل واقع جنوب خط الاستواء بثلاث درجات ونصف تقريبا . وبهذا يكون النيل قد اخترق نحو ٣٥ درجة من درجات العرض ووصل الى ما بين بلاد متنائية الأطراف جدا . وبرغم من أن النيل ليس أطول نهر فانه ليس فى العالم نهر يمتد مجراه هذا الامتداد ويخترق هذا العدد الكبير من درجات العرض . ويصل ما بين بلاد متباعدة عن بعض بهذا المقدار . ولهذا كان حوض النيل أطول أحواض الأنهار جميعا ، وينقسم حوض النيل الى منطقة البحيرات الاستوائيــة ، ثم حوض بحر الجبل فحوض بحر الغزال فحوض

السوباط فالنيل الأبيض فهضبة الحبشة والنيل الأزرق فالنيل فى بلاد النوبة ، فالحوض الأدنى أو النيل فى مصر · وهذه كلها أقسام اقليمية بحته ولكل منها مميزات خاصة · ولكنها مستقلة تماما عن تقسيم النهر من الوجهة الجغرافية الطبيعية (١) ·

ومصر كما قال هيرودوت هبة النيل · وهو التعبير الذى يفصح عن حقيقة واضحة لمن يعرفون البلاد · ومصر تشبه نبات البردى الذى يمثل وادى النيل فيه الساق ، أما الدلتا فبمثابة الزهرة كما أن منخفض الفيوم هو البرعم ولئن جرت الألوان على سـطح الخريطة لاستطعنا أن نرى الحقول تبدو فى خضرة لامعة كما تبدو الصحراء المجاورة فى لون أحمر داكن ذهبى · لقد فكر المصريون القدماء فى مصطلحات تعزز القول المأثور عن هيرودت حين أطلقوا على مصر « الأرض السوداء » مشيرين بذلك الى الطمى الذى غمرت به الأرض الفيضانات التى لا حصر لها والتى تدين له بخصبها الفذ الذى لا نظير له · أما الصحراء فوصفوها أحيانا بأنها وشرة أى الأرض الحمراء (٢) ·

ونهر النيل هو الأساس الذى قامت عليه حضارة وادى النيل كما قامت حضارة الرافدين على نهر دجلة والفرات ، وحضارات الهند على نهر السند ، وحضارة الصين على نهر الهوانجهو ولقد لعب النهر فى تكوين مصر وحياة شعبها دورا عظيما لم يلعبه أى نهر آخر فى تكوين وطن أو حياة شعب ، فالنيل هو أصل الحياة المصرية الميسرة فى تلك الصحراء الشاسعة وهو الذى أعان وساعد على

---

(١) محمد عوض محمد (د·) نهر النيل ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢ ، صص ٣ ـ ٥ ، ٢٣ ـ ٢٨ ·

(٢) سير الن جاروتز : مرجع سابق ، ص ٤٣ ·

بناء تلك الحضارة الرفيعة التى قامت على شاطئيها . والواقع أن مصر فى الحقيقة ليست سوى واحة كبيرة غذاها النيل بعنصرين هامين هما الماء والطمى وحول جانبا من مصر الى جنة خضراء قابلة للزرع والأنبات وتوفرت للمصريين سـبل العيش والاستقرار ، ودفعهم هذا الاستقرار الى التعاون من أجـل السيطرة على مياهم خاصـة وقت الفيضان وخلق منهم شعبا عاملا مكافحا فنهضـوا بأنفسهم وخطت الحياة الحضارية بين أيديهم خطوات واسعة .

ولقد كان للنيل الدور الهام فى تعليم المصريين بناء السفن التي حملها تياره نحو الشمال ودفعها ريحه نحو الجنوب وساعد هذا على اختلاط المصريين وتعاونهم فسـعى بعضهم الى بعض ، مما أدى الى تبادل المحصولات وتناقل الآراء والأفكار ، وعلى ماء النيل وصل المصريون الى البحر الأبيض المتوسط فنشروا فى جزره وعلى سواحله معالم حضارتهم القديمة .

والحقيقة ان النيل هو الذى علم المصريين أيضا كيف يقيمون حياتهم على أساس ثابت من الحساب والتنظيم ومع مطلع كل شهر يونية من كل عام يرتفع منسوب المياه فيه رويدا رويدا فحتى اذا ما انتصف شهر يوليو وأخذ منسوب الارتفاع أقصاه فاض الماء على الشاطئين واستمر كذلك حتى أواخر شهر أكتوبر . فكان الفيضان نعمة اذا اعتدل ونقمة اذا قلت مياهه وخطرا اذا زاد عن الحد . ومن أجل ذلك اهتم المصريون بمراقبته يسجلون زيادته ونقصانه ، فبدأت معرفتهم بعلوم الحساب والاحصـاء والهندسـة فأنشأوا المقاييس يضبطون بها سير النهر وجريانه فيقدرون كمية محاصيلهم ويحبون الضرائب على ذلك التقدير ، كما شقوا الترع وبنوا الجسور على ضـفاف النيل وشـيدوا السدود للتحكم فى ميـاهه .

والنيل هو الذى علم المصريين النظر فى نجوم السماء فرصدوها وتتبعوا دورانها للربط بين ظهورها واضحة فى السماء وبين موعد فيضان النهر وتوصل كهنة هليوبوليس الى التقويم الشمسى أقدم تقويم فى العالم • وقد ذكر هيرودوت فى كتابه عن مصر أن المصريين كانوا بين سائر البشر أول من عرفوا السنة الشمسية وأنهم قسموا فصولها اثنى عشر شهرا وان الكهنة اهتدوا الى هذا التقويم بملاحظة النجوم • ويعرف هذا التقويم الآن بالتقويم القبطى وتسير الفصول فيه حسب ظروف الحياة الزراعية وأول أشهر السنة القبطية هو شهر توت وينسب اليه الاله توت رب الحكمة عند المصرى القديم ويبدأ مع ظهور الفيضان ، وشهر هاتور وينسب اليه الاله حتحور ربة الأمومة والحب والجمال عندهم ولا يزال العالم يأخذ بذلك حتى الآن •

كذلك كان للنيل أثر واضح فى عقائد المصريين وطباعهم فقد كان النيل مصدرا من مصادر اعتقادهم فى البعث حين نظروا الى ماؤه يشاهدونه كيف يقل حتى يبدو النهر وكأنه فى طريقه الى الانتهاء ثم كيف يفيض وتدب فيه الحياة من جديد • وهو الذى أوحى للقوم بسن القوانين يضبطون بها حياة الناس حينما يقومون برى أراضيهم ويزرعونها والنيل هو الذى علم المصريين الصبر على الكفاح ، وكذلك الحرص والسهر وبعد النظر فى أمور الحياة ويعمل دائما من أجل الحاضر والمستقبل أيضا وللادخار لمواجهة الظروف الصعبة والأزمات المفاجئة •

ولأهمية النيل عند المصريين وفضله عليهم وأثره فى قيام حضارتهم الرفيعة لما وجدوا فيه من أنه مصدر للحياة ، فقد قدسه

القدماء بل عبدوه فى شكل اله أسموه حابى ، ولا زالت مصر تحتفل بيوم وفاء النيل كل عام تكريما لهذا النهر العظيم (١) ·

مصادر القوى المحركة أو الطاقة :

ومن أهم مصادر القوى المحركة أو الطاقة التى عثر عليها فى مصر خام الفحم والذى وجد فى منطقة جبل المغارة بسيناء وتقدر كميته بنحو ٥٢ مليون طن ، ويأتى البترول فى مصر حديثا والمنتشر فى مناطق خليج السويس والصحراء الغربية والدلتا كمصدر رئيسى آخر للطاقة ، هذا علاوة على الطاقة الكهربية المتولدة من المساقط المائية وتقدر بحوالى ١٣٪ من اجمالى مصادر الطاقة بها ، من مشروع خزان أسوان (٣٤٥ ألف كيلو وات) ، و (٢ مليون كيلو وات من السد العالى) وهناك العديد من مشروعات توليد الطاقة الكهربية المنتظر تنفيذها مثل مشروع منخفض القطارة مع الاتجاه الحديث الى استخدام الطاقة الشمسية وطاقة الرياح والطاقة النووية ·

تأثير تواجد المواد الأولية على مصر :

أولا : تمثل زراعة القطن واستخراج البترول أحد الدعائم الرئيسية للاقتصاد المصرى ·

ثانيا : يوفر تواجد بعض المواد الاستراتيجية (بترول ـ قطن) قوة سياسية نسبية لمصر ·

ثالثا : يشكل تواجد بعض المواد الأولية بالقرب من المناطق الحدودية عبئا دفاعيا على مصر لحمايتها ·

---

(١) محمد جمال الدين مختار وآخرون : مرجع سابق ، ص ص ٢ ـ ٥ ·

رابعا : اشتغال معظم السكان بالزراعة والصناعة أدى الى حالة من الاستقرار السكانى (١) ٠

ومجمل القول أن جميع عناصر القوة الذاتية قد توافرت فى البيئة المصرية ليس الآن ولكن منذ فجر التاريخ ولولا هذه العناصر التى كانت الأساس التى بنيت عليه الحضـــارة المصرية القديمة لما كانت تلك الحضارة التى بهرت العالم جميعه ٠

الثروة البشرية :

فى الجزء الشمالى من وادى النيل ، يعيش شعب مصر الذى يزيد تعداده اليوم على الستين مليونا ، والذى بدأ حياته فى هذا الوادى منذ بضعة آلاف من السنين وان كنا لا نستطيع أن نبت فى مدى قدمه ، ولكن الرأى متفق على أنه عريق فى القـدم ٠ وقد استطاع أن يبنى صرح الحضارة فى أرجاء هذا الوادى قبل أى شعب آخر ٠ ولذلك كان من معجزات التاريخ بقاؤه هذا الدهر الطويل ، على الرغم من تقلب الأحداث يحيا حياة متصلة متطورة ، يتعرض فيها لبعض المحن احيانا ، ثم لا يلبث أن يخرج منها فائزا منتصرا ٠

لا شك أن شعب مصر أقدم شعوب العالم على الاطلاق ، فانه على فرض أن بعض عناصر الحضـارة فى زعم بعض الكتـاب ، قد نشأت فى بعض الجهات الآسيوية فلا شك فى أنه لم ينشأ فى أى بقعة فى العالم شعب يعمل متعاونا ومنتجا ، فى حياة اجتماعية

---

(١) عبد الحليم السيد : مرجع سابق ، صص ١٠٥ ـ ١٠٧ ٠

وسياسية منتظمة ، قبل ظهور شعب مصر • ومع ذلك فان قول البعض ان أهم عناصر الحضارة وهى الزراعة ، نشأت فى غير مصر ، لا يمكن للمحقق أن يقبلها ، لأن الزراعة التى بنيت عليها الحضارات الأولى كانت تقوم على زراعة الحبوب وخاصـــة زراعة القمح ومن المسلم به ان نشوء الزراعة كان فى بعض السهول النهرية ، التى يغطيها الفيضان فترة من الزمن ، ثم ينحسر عنها ، تاركا حقولا واسعة معدة ومهيأة لأن يبذر فيها الحب وبعد أشهر قلائل يجمع منها المحصول • وأقل علم بفيضـــان النيل يرينا أنه الوحيد الذى تتناسب دورته مع دورة زراعة القمح • فالفيضـــان يتم فى آخـر الصيف وأوائل الخريف ، ثم تنحسر المياه ، أو تبدأ فى الانحسار فى شهر أكتوبر • وتكون الأرض مهيأة لتلقى البذور فى منتصف نوفمبر • وهذا هو أنسب موعد لزراعة القمح ، وهذا النظام النهرى الدائم الملائم للزراعة يخالف ما نصادفه فى جهات غرب آسيا ، حيث يكون الفيضان فى أشهر الربيع وأوائل الصيف ، على اثر ذوبان الجليد أو يكون فى الشـــتاء على اثر ســقوط الأمطار الشتوية • وهذه الدورات لا تلائم دورة زراعة القمح ، الا بعد أن يتوفر المياه وتحفر لهـا القنوات • ونحو ذلك من الأمـور التى تلائم مرحلة متأخرة فى التطور الحضارى أما المرحلة الأولى فيكون الاعتماد فيها على الطبيعة والمساعدات الطبيعية • وهذه لا تجدها الا فى نهر النيل وفيضانه •

كذلك وجد فى مصر النظام الملكى ووحدة الحكم فى البلاد فى وقت مبكر جدا لم يتح لأى بلد آخر • ربما كان لنهر النيل فضل فى هذا أيضا • فان نهر النيل فى القطر المصرى ، يجرى بانحـــدار معتدل ، لا هو بالانحـــدار الضعيف فيسببه المستنقعات والبرك ، ولا هو بالسريع جدا الذى لا تستطيع السفن أن تبحر فيه ، واتفق فى الوقت نفسه أن الرياح التى تهب على الوادى

هو رياح الشمال ، فتستطيع السفن أن تصعد في هذا التيار من الشمال الى الجنوب فاذا أرادت بعد ذلك أن تنحدر آتية بالناس وبالسلع من الجنوب ، فان التيار كفيل بأن يحمل السفن ويدفعها دون مشقة ٠

وهكذا تضافرت الظروف الطبيعية لتيسير الاتصـــال بين الشمال والجنوب وتبادل الأفكار والآراء والمتاجر ، وتوحيد الاتجاه للبلاد كلها ٠ وقد كان الاتحاد فترة من الزمن يقسم البـلاد الى مملكتين : العليا فى الصعيد ، والسفلى فى الدلتا ٠ ثم اتحدت الدولتان فى دولة واحدة في وقت مبكر جدا ، قبل أن يكون فى العالم أى شيء يشبه مثل هذا الاتحاد ٠

ان التاريخ الطويل لوادى النيل الأدنى ، مع ما ظهر فيه من حضارة ، وتخلف عنها من آثار فنية رائعة ، قد شغل العلماء الباحثين أجيالا طويلة ، فان تربة مصر ومناخها كانا كفيلين بحفظ مخلفات العصور الغابرة ، وأصبحت مصر مضرب الأمثال فى ثروتها التاريخية والأثرية المنقطعة النظير ٠ ولعله لم يكن يحق لنا ان نتوقع مع وجود المغريات الهائلة بالبحث والتنقيب ، أن يهتم العلماء بالبحث فى تاريخ الشعب المصرى نفسه ، كيف نشأ وكيف تكون على مدى آلاف السنين ، وهل ولد هذا الشعب في هذا الوادى وفيه نشأ وترعرع ؟ أم نزل أكناف الوادى آتيا من أقطار أخرى — قريبة أو بعيدة ٠

وللأسف الشديد لم يحظى البحث الانثروبولوجى عن سكان مصر الا بالنذر اليسير ، ومع ذلك فان مجرد التفكير فى التاريخ الطويل لوادى النيل على مدى آلاف السنين يدعونا حتما الى التسليم بأن سـلالات أو جماعات عديدة قد نزلت أرجاء الوادى على مر

العصور . ولابد أنها اضافت الى السلالة القديمة عناصر جديدة . ولم تكن من قبل ممثلة فى جمهرة السكان ولعل من المفيد أن نفرق بين العناصر التى نزلت البلاد واستوطنت بعض أرجائها واندمجت فى سكانها ، وبين العصابات التى جاءت للغزو والسلب والنهب ، ثم ابتعدت عن البلاد وعادت أدراجها . فعصابة قمبيز وأتباعه من الآسيويين الذين جاءوا غزاة فاتحين ، ثم ارتدوا بعد نحو قرنين على أعقابهم خاسرين . لا يمكن أن يكونوا قد أثروا فى البـــلاد وسكانها ، وعلى نقيض ذلك العناصر التى كانت تدخل البلاد من الأقطار المجاورة أفرادا وجماعات مسالمة ، تنشر التجارة أو الالتجاء ثم يستقر بها المقام وتندمج فى السكان على مدى القرون وهؤلاء هم العنصر الذى يؤثر فى تكوين السكان لأنه ينزل البلاد فى هدوء ، لا يثير عداوة ولا ضجة ، ولا يقوم بتخريب ولا تدمير . فلا تؤلب القوى الوطنية وتحشد لاخراجه من البلاد وعلى الرغم من أنه ليس من السهل أن نرسم صورة كاملة للمراحل التى مرت بالوادى ، وعمارته بالسكان على مضى الزمن ، فان هذا لا يمنعنا من أن نحاول رسم شىء تقريبى ، ولا يبعد عن الواقع كثيرا .

والخطوة الأولى فى هذا السبيل ان نشير الى الظروف الطبيعية للقطر المصرى ، التى قل أن يكون لها مثيل فى العالم ، فوادى النيل تحف به الصحراء من الشرق والغرب . وتمتد تلك الصحراء شرقا عبر سيناء الى جزيرة العرب ولا تنتهى الا على شواطىء المحيط الهندى ، وتمتد الصحراء غربا حتى شواطىء المحيط الأطلنطى .

وفى العهود البشرية القديمة الى نحو عشرة آلاف من السنين لم تكن الصحراء بشقيها الشرقى والغربى مجدبة جافة كما هى اليوم . كان هنـــالك بمصر ما يدعى العصر المطير يقابل ما كان فى أوروبا ويدعى العصر الجليدى ، كانت الصحراء فيها مراع وفيها من الوحش أنواع وضروب . وغير قليل من الشجر . وهذا العصر

الذى اشتمل على فترات طويلة ، لم ينته فجأة بل بالتدريج ..
ولعل المرحلة الأخيرة منذ نحو عشرة آلاف من السنين هى التى تهمنا بوجه خاص فى تصوير بدء احتلال الوادى .

لقد كان الوادى فى نظر كثير من الكتاب ، يتلقى نصيبه من المطر أسوة بالأقاليم المجاورة ، وكان يجرى فيه النيل وترتب على هذا ان تكثر فيه البرك والمستنقعات وتمتلىء جوانبه بالأحراش والغابات ، وتجول فيه قطعان الوحش . وأكبر الظن أن السكان كانوا يعيشون على جانبى الوادى ، دون أن يتوغلوا فيه كثيرا .
وينالوا من صيده غذاءهم . ومع أنه ليس لدينا جماجم ترجع الى هذا العصر الحجرى القديم ، فاننا عثرنا على الكثير من الصوان المنحوت فى صورة أدوات مما ترمى به الفريسة أو تقطع ، ومن المعروف أن تكون المرحلة الأولى للمجتمع البشرى مرحلة الصيد .

ثم أخذت الصحراء بعد ذلك تجف تدريجيا ، ونزحت الى الجنوب حيوانات كالزراف كانت تعيش فى وسطها .... وهذا الجفاف كان يحل فى موجات أو فترات من الزمن يندر فيها المطر ..
فيضطرب السكان ويلتمسون الماء والعشب فى البقاع التى فيها بقية من الماء والعشب . ثم تنجلى هذه الفترة وتجىء بعدها فترة من الرخاء النسبى فيستقر الناس ، وتعود حيوانات الصيد ، ويتكاثر السكان . وقد استمرت هذه الفترات الى عصر الفراعنة فى الدولة القديمة والوسطى ، بل والحديثة أيضا .

أما الوادى فانه أيضا أخذ يتطور ، فتقل أمطاره وتنكمش فيه المستنقعات والبرك ويكثر الناس من النزول فى أكنافه ولكثرة الحيوان أخذ الناس يحتبسون صغار الدواب حتى تكبر ، أو الى الوقت الذى يريدونها لطعامهم والأنثى ربما أبقى عليها اذا بدأ أنها توشك أن تلد . وهكذا تعلم سكان الوادى فى هذه الفترة

بالتدريج كيف يستأنسون الحيوان وكان أول حيوان استؤنس في الغالب الضأن والماعز والأرجح ان الكلب استؤنس في وقت سابق لأنه خير معين لمحترفي الصيد . وبالتدريج تحول سكان الوادى الى قوم مولعين باقتناء الحيوان . ثم لم يلبثوا أن أخذوا يستأنسون النبات أيضا ، وأن يصبحوا زراعا . ان المصرى شخص زراعي بالفطرة ، وهذا يرجع الى قدم عهد السكان وأجدادهم بهذه الحرفة التي سبقوا بها الأمم ، والتى تعلمها منهم معظم الشعوب . فلم تكن تنقرض الألف الخامسة قبل الميلاد حتى كان فى الوادى شعب يعرف الزراعة وتربية الحيوان . ولم يلبث ان برع فى الصناعة وخاصة صناعة الفخار . كل هذا قبل العهد الفرعوني بألف أو ألفين من السنين .

ونستطيع أن نتصور أن جفاف الصحراء جعل كثيرا من سكانها ينزحون الى الوادى ، بأعداد قليلة تزداد مع مضى الزمن . وقد تعلم أكثرهم كيف يربون الماشية ، لذلك كانوا يفدون بماشيتهم يحيون حياة الرعاة حتى تعلموا على مدى السنين كيف يمارسون الزراعة أيضا ، وقد دخلت البقر في وقت مبكر في عداد الحيوانات الهامة في وادي النيل وفي ليبيا . وكان الوافدون يعيشون بقطعانهم قريبا من الدلتا دون أن يتوغلوا فى الريف . وكذلك العناصر الوافدة من الشرق مما تدعوه سوريا وفلسطين والأردن الآن جزيرة العرب . وبخاصة أطرافها الشمالية ، وتارة أخرى بالطبع كان الوافدون جيشا محتشدا يحاول الغزو والعدوان .

وعندما تبدأ الأحداث التاريخية الخطيرة تسجل ، يتجلى أمامنا العراك العنيف بين الرعاة من الشرق والغرب ، وبين المملكة المنظمة المستقرة .

وقد التزمت الهجرات العربية الجانب الشرقي من مصر السفلى والعليا كما أن أكثر الوافدين من الجانب الليبى كانوا ينزلون فيما

نسميه الآن مديرية البحيرة ، وفى الصعيد وفى جملة ما تركه المصريون من الرسوم ، صورة تحكى مظهر الشعوب الاربعة التى لها بوادى النيل صلة • فقد رسم المصريون أنفسهم باللون الأحمر ، وأهل الجنوب في بلاد كوش وما يليها باللون الأسود ، وصوروا أهل الشرق باللون الأصفر ، وسكان ليبيا باللون الأبيض وقد كانت مصر ومنذ تاريخها الطويل ، ومنذ عهد النشأة تفد اليها عناصر من هذه الجهات ، وبخاصة من جهة الشرق • وأكبر الظن أن الوافدين من الشرق بدأوا قبل التاريخ المكتوب أى قبل عهد الأسر بزمن طويل جدا ، وأكبر دليل على هذا أن لغة مصر القديمة قد انطبعت بالطابع السامى ، فى وقت متقدم جدا وقد دامت الهجرة واتصلت فى كل عصر • حتى أصبحت مصر وجزيرة العرب قطرين مرتبطين بأقوى الوشائج •

وهكذا يتألف سكان مصر من الجماعات الأولى التى نزلت الى الوادى وما أعقبته من نسل على مدى السنين ، ومن سيل لا ينقطع من المهاجرين من جزيرة العرب • وبعض النازحين من شمال أفريقيا وهذه هى العناصر الرئيسية ، وقد انضم اليهم فيما بعد عناصر أخرى بسبب اتخاذ الملوك فى بعض الأزمنة جنودا من المرتزقة ، وبسبب التجارة مع سكان البحر المتوسط وبعض العناصر الشركسية والبلقانية ونحوهـــا • ولكن هذا لا يؤلف الا نسبة صغيرة من السكان •

أما الصفات الطبيعية الأساسية لســكان مصر فقد لخصها الدكتور البطراوى فيما يلى نتيجة لدراسته للجماجم فى المقابر القديمة • ومنذ أوائل العصر الحجرى الحديث كانت هنالك سلالتان متميزتان ولكنهما مرتبطان احدهما بالأخرى • الأولى فى الشمال فى مصر الوسطى ، والثانية فى مصر العليا • ويتميز الجنوبيين

بأن نسبة الرأس أكثر انخفاضا ، والنسبة الأنفية أعلى ، والفك فيه بروز قليل ، وهذا الاختلاف بين الجنوب والشمال استمر الى عهد ما قبل الآسر • وفى أول العهد الفرعونى ، أخذ العنصر الجنوبى يتراجع الى الجنوب • وان بقيت منه بقايا فى الصعيد • وأخذ العنصر الشمالى يزحف تدريجيا حتى صارت له الغلبة الواضحة فى زمن الأسرة الثانية عشرة فى جميع أنحاء البلاد •

ويرى الأستاذ سليجمان ان المصريين القدماء يشابهون البجة فالرأس مستطيل نسبته بين ٧٣ ـ ٧٥ والجسم نحيل والشعر المموج لابد أنه كان قليلا على الوجه وهو أسود والعيون سوداء والقامة فوق المتوسط (نحو ١٦٨ سم) وقد حفظت المقابر جماجم كثيرة وقد بحثت ودرست وتدل على أن تغيرا كبيرا لم يطرأ على سكان مصر •

وصفوة القول أن المصرى يكون فى الغالب أسمر البشرة ، مموج الشعر ، العيون سوداء واسعة ولوزية الشكل ، والشعر أسود أو بنى داكن ، وهو قليل على الجسم والرأس مستطيل والقامة متوسطة أو فوق المتوسطة والأصل فى الجسم أن يكون نحيلا • وعلى الرغم مما نراه بخلاف ذلك فى البدن والعنق مستطيل•

هذا هو الأصل وهناك اختلافات نتيجة هجرات قديمة أو حديثة فقد دخل الى مصر فى عصر بناة الأهرام سلالة ذات رأس عريض نوعا وجمجمة ممتلئة • نراها بوضوح فى تمثال شيخ البلد وتمثال الكاتب •

كذلك نرى أحيانا أن الشعر لولبى مع أن سائر الوجه قوقازى • وهذا يرجع فى الأرجح الى الزواج أو التسرى بجوار من الجنوب • وهناك أشخاص ليسوا بالقليلين الوانهم أكثر بياضا ،

والشعر فيه صهوية أو شقرة العيون قد تكون أيضا رمادية أو عسلية خفيفة ٠

وليست لدينا أرقام ولا دراسات نهتدى بها الى توزيع هذه الصفات ، وهى ترجع فى الغالب الى دخول عناصر شركسية ، أو مرتزقة فى العهد الفرعونى المتأخر ٠ أو عناصر ليبية ٠ ومع ذلك ربما صادفناها فى صميم الدلتا أو الصعيد ٠ وقد كان للحكم التركى أثره فقد دام بضعة قرون ، ولكن هذه الآثار قليلة على كل حال ٠

وجميع الكتاب الذين تناولوا موضوع سكان مصر بالدراسة الانتربولوجية قد قرروا أنه ليس هناك أى فرق بين القبطى والمسلم ، ولا عبرة بما يزعمه البعض خلاف ذلك والاختلافات فى السحنة التى نجدها عند احدى الطائفتين ، نجدها أيضا عند الطائفة الأخرى ٠

ولا تزال مصر يفد اليها البدو من الشرق أو من الغرب ٠ ثم يمرون بمرحلة طويلة تنتهى بهم الى الاندماج التام فى السكان الأصليين ٠ ولذلك نرى النظام القبلى معدوما فى مصر ٠ وليس من المعقول فى شعب زراعى عاكف على حقوله ومواشيه وغلاته ، أن يحتفظ بنظام بدوى لا ينتمى الى حياته بصلة ٠ والقبائل البدوية لا وجود لها الا فى سيناء والصحراء الشرقية أو الغربية ٠٠ وعددها قليل لا يكاد يتجاوز الثلاثين ألفا وقد امتلأت الصحراء بمواقع عديدة للاستقرار فى شمال ليبيا ٠ وفى وادى النطرون ، وفى مشروعات التعدين المختلفة وبعض المشروعات الزراعية فى الجهات الشرقية (١) ٠

---

(١) محمد عوض محمد (د٠) : الشعوب والسلالات الافريقية ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥ ، صص ٣٢٦ ـ ٣٢٥ ٠

وهكذا وبعد هذا العرض نجد أن عناصر ومؤثرات القوة فى مصر ذاتية وكانت فى أرضها وشعبها منذ الأزمنة السحيقة ، وأن الحضارة المصرية التى نشأت فيها قد وجدت تربة خصبة وأسس سليمة قامت عليهـــا ، ومن ثمة نجد أن مصر القديمة قديمة قدم التاريخ .

الفصل الرابع

دراسة عن تاريخ بدء الحياة فى مصر

من بين العديد من الدراســـات والبحوث التى صدرت عن العديد من المؤلفين والباحثين ســـواء من المستشرقين أو المصريين يجد الباحث فى تاريخ حصر الحضارة نفسه في موقف صعب أمام هذا الكم والكيف الهائل من هذه الدراسات ، لذا كان عليه واجب هو تحرى الدقة المتناهية والأمانة فى استخراج الحقائق من بين هذه الدراسات ، وأمام هذه المسئوليـــة التاريخيـــة فانه مضطرا لأن يقرأ كل ما كتب وصدر فى هذا السبيل ، حتى تأتى كتابته موضوعية تخاطب المنطق والحقيقة • وقبل أن نتناول تاريخ بدء الحياة فى مصر لابد لنا أن نقف عند ماهية التاريخ •

ماهية التاريخ ، وما هو معنى التطور الحقيقى للانسان :

وهذا سؤال قد يراه البعض دخيلا على موضوعنا ، وأنا أراه وقد يراه معى الكثيرون ضرورة ملحة قبل ان نتناول الجذور الأولى لتاريخ بدء الحياة فى مصر ، لأن ليس كل ما كتب عن مصر أو غيرها يقـال له تاريخا ، قد يكون سردا أو رواية لأحداث ولكن التاريخ أو الكتابة التاريخية شيء آخر غير الذى يعتقده البعض •

فان أى محاولـــة جادة لكتابـــة تاريخنا لابد ان تبدأ بتحديد أى تاريخ نريد أن نكتبـــه ، أو بمعنى آخـــر ، ما هو التاريخ ؟ . فمفهومنا للتاريخ هو الذى يحدد لنا رؤيتنا لوقائعه ، أو منهجنا فى تجميع وتحليل هذه الوقائع .

ومفهوم التاريخ الذى تركه المؤرخون لنا لم يفرز لنا سوى مجرد سيرة هذا الفرعون أو ذاك ، أو قصة هذا الفاتح أو ذاك ، سواء أكان هذا الفاتح فارسيا أو اغريقيا أو رومانيا أو طولونيا أو غير لك ، موضوع مثل هذا التاريخ ... هم أولئك الذين حكموا مصر ، وليس مصر نفسها مجتمعا وشعبا .. ولن نجد فى مثل هذا التاريخ ما يساعدنا على التعرف على المجتمع المصرى كظاهرة حية تتحرك وتتطور ، أو على الأقل نجاهد من أجـل هذا التطـور . وحينما يســتخدم بعض الباحثين أدوات محددة من التحليـل ، ويتوجهون فى معالجتهم لتاريخ مصر الى البحث عن عناصر الصراع الاجتماعى مثلا ، فانهم يلزمون أنفسهم بنفس الاطار الذى وضعه بعض المؤرخين الكولونياليون ، أى أنهم يسعون الى اكتشاف المجتمع المصرى فى مصر الفرعونية أو مصر الهلينية أو الرومانية أو الاسلامية وهكذا . وفى أحسن الأحوال فان مثل هذه المحاولات تنتج تاريخ أكثر من مصر كل مصر منهـا لا علاقة لها بالأخرى . وكل واحدة منها لهـا لون وطابع وشخصية من كانـوا يحكمونهـا فى الحقبة الزمنية المعنية .

وبداهة فان هذا المنهج يؤدى الى ضياع ملامح مصر ككيان حضارى تاريخى متصل ، ولا يساعد على التعرف على الشـــخصية الوطنية المصرية كحقيقة اجتماعية ثقافية تاريخية متطـورة ، بل هو يؤدى الى طمس ملامح هذه الشخصية المصرية والى اخفاء أهم سماتها وهى الاستمرارية . وفوق كل شىء فان هذا المنهج يعجز

عن اكتشاف تلك القوانين العامة أو الخاصة التى حكمت تطور مصر ، ولا يقدر على تحديد ما هو ثابت صغير فى هذه العملية المتطورة التاريخية ، والى اخفاء الحقيقة •

وهكذا يصبح من غير الممكن وضع نظرية لتاريخ مصر اننا نرفض هذا المفهوم التقليدى للتاريخ ، ليس فقط من زاوية السلبيات المترتبة عليه فى التطبيق بالنسبة لتاريخ مصر • ولكن السبب أهم ، وهو ان هذا التصور يقصر موضوع التاريخ على ما فعله هذا الفرد أو ذاك ، وبالضرورة فان هذا الفرد يجب أن يكون ملكا أو أميرا أو كبيرا للكهنة أو قائدا عسكريا أو سياسيا ، أو أى واحد من كبار أفراد الطبقة الارستقراطية الحاكمة ومهما اشتمل التاريخ الذى ينتهجه مثل هذا التصور على تفاصيل ودقائق ، حتى ولو كانت هذه تفاصيل ودقائق عن حياة العامة أو بعض قادتهم ، وليس فقط عن حياة الحكام ، فان أقصى ما يمكن أن يقدمه لنا هذا التصور للتاريخ هو مجرد حكايات تاريخية تبدو لنا الأحداث فيها ، وكأنها تقع بفعل الصدفة ، وتبدو التطورات وكأنها زجزاج يتأثر مرة بقوة أو دهاء حاكم ، ويخضع مرة أخرى لضعف حاكم آخر أو لانعدام الطموح لديه •

والتطور الصحيح لتاريخ هو ذلك الذى ينطلق من أن موضوع التاريخ هو الانسان ككائن حتى يتطور ويرتقى ، وليس بالمعنى البيولوجى ، ولكن بالمعنى الاجتماعى ـ الاقتصادى ـ الثقافى ، اى من زاوية الكيفية التى ينتج بها الانسان احتياجات حياته المادية والعلاقات الاجتماعية التى تنشأ من خلال عملية الانتاج هذه ، والتعبير الثقافى عن هذا الكائن الحى المتطور متمثلا فيما يتوصل اليه من معرفة ، وما يصيغه من نظرة فلسفية الى العالم ، ومتمثلا أيضا فى مستوى التعبير عن نفسه من خلال الخلق الفنى الابداعى •

والانسان الذى يعنى به التاريخ هنا ليس هو فقط الفرعون أو البطليموس أو الاخشيه أو السلطان ، ولكنه المجتمع بأسره ٠ ولما كان الانســـان لم يبدأ « التآنس » أى العيش ضمن جماعة انسانية ، الا حينما اضطرته ضرورات توفير احتياجات حياته الى الدخول فى علاقة جماعية فاعلة مع الطبيعة ، فانه يمكن القول ان التاريخ هو فى الأساس نتاج أول آداة استخدمها الانسان للتعامل مع البيئة الطبيعية من حوله لتلبية متطلبات أولية اجتماعية كالغذاء ، والمأوى ، وتأمين الحماية والبقـــاء للمجموعة ٠ انه عندما بدأت الأدوات الأولية البدائية تساعد الانسان على تلبيته هذه الاحتياجات الأولية للمجموعة بدأت أول تحولات حضارية جذرية ، حيث برزت أشكال بدائية من تقسيم العمل بين أفراد الجماعة ، وتنظيم العلاقة بين هؤلاء الأفراد ، وبرزت كذلك ضرورة المعرفة بالوسط البيئى الذى تعيش فيه الجماعة ، وبدأ الاهتمام بزيادة فاعلية الأدوات التى كان يستخدمها الانسان ٠ وكلما تطورت هذه الأدوات وازدادت كفائتها ، ازدادت سيطرة الانســـان على الوسط الطبيعى ، لذلك نستطيع القول بأن التطور الحضرى للانســـــان هو نتيجة لتطور معرفته وخبرته التقنية ، أى بتطور وسائله فى التعامل مع الوسط الطبيعى الذى يعيش فيه ، وفى السيطرة عليه ، وادخال تغييرات فيه ، أو بمعنى آخــــر كلما تطورت وســـائل الانسان فى انتـــاج احتياجاته المادية كلما ازداد معرفة بالعالم من حوله وازدادت قدرته على السيطرة عليه وارتقت أساليبه فى التعامل مع هذا العالم وفى تنظيم علاقته به ٠

ان الأسلوب الذى ينتج به الناس احتياجاتهم المادية هو الذى يفرض على الناس علاقات معينة تنظم عملية الانتاج هذه ، وتنظم التعرف على عائد هذا الانتـــاج ، ومن ثم هو الذى يحـــدد أشكال التنظيم الادارى والحقوقى ، وهو الذى يعطى الوجدان موضــوعه

واتجاهه العدل والظلم ، والخير والشر ، والتسامح والاستبداد ، والحب والحقد ، وهى المحاور الأساسية للوجدان — فيما يتعلق بالانسان وعلاقته بما ينتج ٠

ان المجتمع الذى هو على هذا النحو هو كل متشابك ينبغى تحليله من زوايا عديدة ٠ اقتصادية وتقنية ، وادارية ، وسياسية ، وثقافية ، وأيديولوجية ، اذ لا يمكن النظر الى أى من هذه العناصر فى استقلال وانفصال عن بعضها البعض ، ولا يمكن تحليل أحد هذه العناصر بمعزل عن بقية العناصر ، وبدون رصد وتحليل التأثيرات المتبادلة بينها جميعا ٠ فهناك علاقات دقيقة ومعقدة ، ولكنها علاقات حقيقية ، بين السياسة والبنية الاقتصادية والمؤسسات والأفكار ٠ وموضوع التاريخ هو البحث فى هذه العلاقات ، وفى التأثيرات المتبادلة بينها ، وأثرها على البنية الأساسية للمجتمع ، والأشكال النمطية لهذه التأثيرات ، ودورها فى تطور الهياكل الاقتصادية والاجتماعية ٠

هنا لا يكون التاريخ مجرد رصد وسرد لوقائع وأحداثا ، حتى ولو كانت وقائع وأحداثا تتعلق بالمجتمع كله ، وليس فقط بأفراد متفوقين ، وانما تصبح مهمة التاريخ هى تفسير هذه الوقائع والأحداث ٠ وحتى حينما نرصد ونسجل تحولات وتطورات مجتمع ما ، فان ذلك وحده لا يكفى لكى نسمى ما نكتب تاريخا ، بل علينا أن نحلل المكونات المختلفة لهذا المجتمع ، والتغيرات التى طرأت على هذه المكونات خلال عملية انتقال المجتمع من مرحلة لأخرى ، واكتشاف آلية هذا التحول ، والعناصر المختلفة التى أسهمت فى انجاز عملية التحول هذه ٠٠ أى اكتشاف القوانين العامة والخاصة التى حكمت عملية التحول ٠ هكذا يصبح التاريخ علما ٠٠ بل يصبح علم العلوم الانسانية ٠

وعند معالجة تاريخ بدء الحياة على أرض مصر منذ ستة آلاف من السنين ينبغي أن نعي جيـدا ما قاله الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور « أن تاريخ مصر ، وخاصة في جوانبه الاجتماعية والاقتصادية ، انما هو في حقيقته تاريخ الأرض والفلاح • ونحن نقول لكنه تاريخ صراع الفلاح من أجل تغيير شكل الأرض وتغيير العلاقات الاجتماعية القائمة • وعلى ذلك فان قراءة تاريخ مصر بهذا المنهج ستساعد في حل كثير من الاشكاليات التي تواجهنا في كتابة تاريخ مصر ، وبهذا المنهج نستطيع :

أولا : ان نقرأ تاريخ مصر ، وليس تاريخ من حكموها فحسب ولن تكون هناك مشكلة أن المعلومات عن الحاكمين أكثر توافرا من المعلومات عن المحكومين ، اذ الواقع أن توفر المعلومات ونقصهـا هناك ليس هو الذي يحدد لنا الطريقة التي نقرأ بها تاريخ مصر ، ولكن العكس هو الصحيح ، ان الطريقة التي نقرأ بها التاريخ هي التي تحدد لنا من ناحية نوع المعلومات التي يجب أن نبحث عنها ، وهي التي تساعدنا من ناحية أخرى على قراءة المعلومات المتاحـة قراءة أشمل وأصح •

ثانيا : حينما يكون في وسعنا أن نقرأ تاريخ مصر ، وليس فقط تاريخ حكامهـــا فاننا نستطيع أن نضع أيدينا على مكونات الشخصية الوطنية المصرية ، التي هي الأساس في عملية التطور ، وأن نتبين الثابت المستمر في هذه المكونات ، والتغيير والتطور اللذين طرأ على بعض المكونات الأخرى بذلك ، وبذلك نستطيع أن نحسم قضية الاستمرارية أو الانقطاع في تاريخ مصر •

ثالثا : وبفضل هذه القراءة أيضا لتاريخ مصر ، سيكون من الممكن التوصل الى تحديد علمي لنقطة تاريخ بدء الحياة في مصر ،

طالما أن النقطة المحورية فى البحث حول تاريخ مصر هى نمط الانتاج (١) .

ومن هذا المفهوم الصحيح للتاريخ ، يكون علينا وعلى هذه الأسس البحث فى تاريخ بدء الحياة فى مصر .

تكوين مصر عبر عصور ما قبل التاريخ :

بادىء ذى بدء كان الاعتقاد السائد عند علماء التاريخ القديم أن مصر لم تعرف العصر الحجرى القديم بالترتيب الذى عرفته به دول أوروبا ، بل كانوا يقولون ان من العبث البحث فيها عبر عصور ما قبل التاريخ . فقد جرت محاولات علمية واسعة استغرقت النصف الثانى من القرن الماضى ، ساهم فيها لفيف من العلماء بين رافض لفكرة وجود عصور ما قبل التاريخ فى مصر وبين مؤيد لها رغم أن قمة التطور الحضارى الذى وصلت اليه حضارة مصر القديمة تتطلب أن يمتد لها جذور عميقة من التطور تسبق قيام تلك الحضارة بفترة مناسبة وتتناسب مع عظمتها وعطائها فى كافة المجالات .

وفى حقيقة الأمر لقد كان اثبات تلك المراحل السابقة على الحضارة الفرعونية فى مصر هدف بعض علماء الدراسات المصرية منذ بداية هذا القرن أمثال الدكتور مورجان Dr. Morgan ، وسليجمان Selig-man ، فيجنارد - Vignard ، وساندفورد Sandford ، وأركل Arkéll ، وتجدر الاشارة الى

---

(١) طاهر عبد الحكيم (د.) : الشخصية الوطنية المصرية (قراءة جديدة لتاريخ مصر) ، القاهرة ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٨٦ ، صص ١٢ ـ ١٨ .

أعمال العالمين الأخيرين التى كانت الأساس الذى قامت عليه عملية جميع الدراسات التى تلت ذلك ، أو كما وصفها ساندفورد وذ رها جيمس هنرى برستد هى الاطار الذى يمكن أن يضيف اليه الباحثون المحليون معلومات محليــة لمدة سنوات طويلة فيما بعد • ويقول مؤيدوا وجود عصر حجرى فى تاريخ مصر من أمثال الكسندر مورى •• لم تجود الطبيعة فى ذلك الوقت على بقعة من بقــاع الأرض بالخصائص اللازمة لنمو مجتمع انسانى كما جادت على مصر •• ولهذا لا توجد فى أية بقعة من بقاع الأرض صناعة من صناعات العصر الحجرى الحديث هى فى اتقــان أو تشابه فى الصناعة التى وجدت على أرض مصر • على أنه لم يوجــد فى بـلاد الرافدين (العراق) ولا فى سوريا أى أثر للانسان السابق على أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، نرى المصريون يدخلون فى العصر التاريخى من عصور الحضارة •

ويستطرد الكسندر مورى فيقول : « يحسن أذن أن يعزو الى عبقرية ســكان مصر الأقدم ، والى الخصائص الاستثنائية التى توافرت لوادى النيل ، يقدم هؤلاء المصريين المبتكر وليس هنــاك دليل على أن هذا التقدم راجع الى غزاة أجانب كانوا قد نالوا من المدنية أكثر مما ناله المصريون • فان وجود هؤلاء الأجانب أو على الأقل وجود حضارتهم ، أمر يحتاج الى اثبات » •

ويذكر جيمس هنرى برستيد « ان الأسلحة والأدوات التى وجدت فى مصر من الحجر الصوان أجمل وأحسن صقلا من جميع الأسلحة والأدوات التى وجدت من هذا النــوع فى جميع بـلاد العــالم •

ويقول جوستاف جيكير « وصل العمل الفنى فى صقل الحجر فى العصر الحجرى الحديث فى مصر حدا من الاتقان والدقة يتعذر

أن يوجد له مثل في أى بلد آخر • وهذه الدقة لا تلاحظ فى أدوات البذخ فقط ، بل تلاحظ فى الأدوات العادية أيضا •

ويشهد دى مورجان بأنها « ليست أدوات نافعة فقط ، بل هى أعمال فنية عجيبة أيضـا ، تفوق جميع ما خلقه الانسان فى العصر الحجرى فى جميع البلاد الأخرى •

وأيا كان الأمر ، لقد أمكن لعلماء ما قبل التاريخ أن يظهروا تلك القطع التى هى من صنع الانسان ، وذلك بواسطة منهج تجريبى مدروس ، حيث استطاعوا التأكد أن كل شظية من تلك القطع تحمل آثار الضربة التى وجهت اليها عند عملية التشظية ، كما يكون لها كعب ويتواجد عند الجزء المسطح منها نتوء الطرق أو بصلة الطرق ، أما الوجه فهو يظهر عادة حواف آثار الشظايا التى تم نزعها عند بدء العمل • أما تلك القطع التى تتكون من فعل الطبيعة فلا يتمثل فيها العلاقات السابقة ، كما أنهـا تبرز مجموعة من التجاويف الدائرية تقريبا وهى أماكن خروج الشظايا • وعلى ذلك فالشكل الذى تكون عليه مثل هذه القطع لا تظهر صوانه تلك الآثار المنتظمة التى تحدثها عملية التصنيع ، وحتى اذا وجدت مثل هذه الآثار بصورة طبيعية فهى أقل عددا وموزعة بشكل غير منتظم ، ويسهل على المتخصص التمييز بين النوعين (١) •

والواقع أن البعض من العلمـاء قد أطلق هذا التعبير وهو عصور ما قبل التاريخ ، على تلك الحقبة البعيدة عن حياة المصريين وغيرهم من الشعوب والتى تسبق عصر التاريخ المكتوب بعشرات

---

(١) احمد محمود صابون (د•) : مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨ ، صص ٩ ـ ١١ •

الألوف من السنين • وتبدأ تلك الحقبة بظهور وانتشار الانسان على سطح الأرض ، وتستمر حتى معرفة الكتابة ، ويبدأ التاريخ المدون ويضم العصور الحجرية بمختلف أطوارها •

١ ــ العصر الحجرى القديم •

٢ ــ العصر الحجرى الحديث •

٣ ــ العصر الحجرى المعدنى أو عصر المعادن •

ولكن تعبير ما قبل التاريخ لا يقبله الكثرة من علماء الدراسات القديمة فالكتابة عندهم ليست الوسيلة الوحيدة لمعرفة التاريخ ، كما أن التاريخ بمفهومه الواسع لا يقتصر على النواحى السياسية فقط ، بل يشمل مختلف النواحى الحضارية المتعاقبة والتى يمكن أن يسترشد الباحث فى معرفتها بما خلفته تلك العصور والناس من آثار ، لذلك يفضل البعض تسميته بعصر فجر التاريخ •

العصر الحجرى القديم :

يمثل هذا العصر أقدم وأبسط أساليب الحياة وأولى خطوات الانسان نحو توفير أسباب المعيشة وفقا لما تهيىء له البيئة التى يعيش فيها ، وقد استمر هذا العصر فترة طويلة من الزمن تقدر بعشرات الآلاف من السنين حتى ليرجع البعض بدايته الى ما يقرب من مائة ألف سنة ونهايته الى ٨٠٠٠ سنة على وجه التقريب •

وقد عثر على أدوات وأسلحة من هذا العصر فى كل مكان سواء فى داخل الصحراء أو على حـــافة وادى النيل فى الوجهين القبلى والبحرى وقد استخدم انسان ذلك العصر أسلحة من حجر الصوان الظران بعد نحتها نحتا بسيطا وجعل لها حدا قاطعا ،

ولكن لم تلبث تلك الأسلحة حتى أخذت تتطور وتتشكل وتتهذب بما يفى بحاجات الناس ولعل أهم تطور تناولها هو تحولها من تلك الأسلحة الضخمة الثقيلة الوزن التى سادت فى بادىء الأمر والتى تمثلها الفأس الحجرية أو القبضة التى يقبض عليها الضارب بيده الى ألوان من الأسلحة الدقيقة المهذبة الصنع التى تصنع من الشظايا التى تفصل عن حجر الصوان عنه ضربه كالنصال التى كانت تثبت فى أطراف الرماح والسكاكين والمناشير والمثاقب والأزاميل . كذلك ظهرت فى ذلك العصر آلات من العظم والخشب .

وقد أمكن تقسيم العصر الحجرى القديم وفقا لتطور أدواته الحجرية الى ثلاثة أقسام :

١ ـ العصر الحجرى القديم الأوسط .

٢ ـ العصر الحجرى القديم الأسفل .

٣ ـ العصر الحجرى القديم الأعلى .

كما قسم كل منها الى أدوار تتميز بميزات خاصة من حيث نوع الأدوات والأسلحة الحجرية ومدى تطورها وأعطيت تلك الأدوار أسماء تتصل بالأمكنة التى عثر فيها فى بادىء الأمر على تلك الأدوات والأسلحة أو مثلت فيها خير تمثيل .

ويبدو أن مصر خلال العصر الحجرى القديم كانت فى نطاق اقليم حضارى واسع يمتد فى غرب آسيا وشمال أفريقيا وجنوب أوروبا ، ولذا لم تختلف الأدوات الحجرية فى مصر كثيرا عما كان سائدا فى نطاق هذا الاقليم الواسع ، ولكن ما كادت حضارة مصر تدخل فى نطاق العصر الحجرى القديم الأعلى حتى ارتبطت صناعة الأدوات الحجرية بها بصناعات شمال افريقيا بوجه خاص كما

أخذت فى بعض الأماكن بمصر طابعا محليا خاصا • ونظرا لأن مناخ مصر أثناء ذلك العصر كان أغزر مطرا منه الآن فقد اختلفت صورة الحياة فى الصحارى المصرية عما هى عليه الآن ، اذ كانت عامرة بألوان الحياة – تنمو فيها الأعشاب والأشجار ، وتكثر فيها الحيوانات سواء آكلة العشب أو الحيوانات الضارية ولذا آوى الانسان اليها واتخذها مسرحا لحياته وترك آثاره داخلها أو فى أطرافها على حافة وادى النيل •

وقد عاش انسان ذلك العصر فى حياته على جمع الثمار وصيد الحيوانات ، ولكن لم تكن الثمار وفيرة متنوعة كما كان أمر الصيد شاقا وعسيرا • لقد كانت بعض الحيوانات سريعة قادرة على الهرب والاختفاء • لذلك اضطر الانسان الى استخدام عقله وذكائه فى التغلب عليها بما صنعه من أسلحة صخرية متنوعة • وقد عاش انسان ذلك العصر أيضا فى جماعات لا تتقيد بقانون أو نظام سوى ما يسود القبائل البدائية ، وكانت حياة الناس كلها صراع لايستقرون فى مكان واحد ، يلتمسون أقواتهم أينما وجد الصيد أو توافرت الثمار فكان الصراع بين الانسان وبين البيئة والحيوان وكذلك بين الانسان وأخيه الانسان بتنازعان الصيد أو الماء أو المأوى •

وقد مال انسان ذلك العصر اذا ما شبع قليلا الى صنع ما يزين به نفسه ، ويرسم على الصخر بعض ما يقع عليه بصره أو يتصوره • ولم يتم العثور حتى الآن على قدر كاف من الرسوم أو النقوش التى تسمح للعلماء بالحكم على فن ذلك العصر حكما دقيقا •

وبانتهاء العصر الحجرى القديم كانت هنالك فترة انتقال مميزة ، ومرحلة متوسطة أخذ فيها الانسان فى تحسين أدواته ،

وأطلق على هذه الفترة اسم العصر الحجرى الوسط أو المتوسط ٠

وقد نسب العلماء الى هذا العصر ونهـــاية العصر الحجرى القديم توصل الانسان الى استخدام النار مما ساعده على تحمل قسوة الحياة ٠ وقد اعتمد الانسان فى بادىء الأمر غالبـــا على النيران التى تشتعل من تلقاء نفسها نتيجة احتكاك الأحجار بعضها بالبعض الآخر بفضل الطبيعة أو اشتعال النيران فى غابة أو ثورة أحد البراكين ثم نجح فى مرحلة تالية بعد ذلك فى اكتشاف المواد التى تصلح وقودا ٠ اذ أنه لاحظ أن الأشجار فى مناطق الغابات أو الأعشاب هى الطعام المفضل للنار ، فكانت الخطوة التالية هى توصله الى اشعال النار عن طريق الاحتكاك بين حجرين أو غير ذلك من الوسائل وقد جلبت له النار الدفء وأعطته الضوء ، وجعلت طعامه شهيا عن طريق الطهى ، وثم جاءت الخطوة الأخيرة وهى محاولة الاحتفاظ بالنار أطول فترة ممكنة والاستفادة منها الى أقصى حد ممكن فصنع الأفران والمواقد البسيطة من الطين والحجر وغير ذلك من الأدوات اللازمة له (١) ٠

العصر الحجرى الحديث :

سكن المصريون الصحراوات التى كانت غزيرة الأمطار غنية بالنبات والحيوان ولكن عندما أخذ مناخ مصر فى الجفـاف وقلت الأمطار وصعبت الحياة والتحدى الحقيقى فان المصرى القديم واجه هذا التحدى ولم ينتقل من مكانه ولم يغير من طريقة معيشته ـ فلقى جزاء اخفاقة فى مواجهة تحدى الجفاف والابادة ، ومنهم من تجنب ترك الوطن واستبدل طريقة معيشته بأخرى ٠ وتحولوا من

(١) محمد جمال الدين مختار وآخرون : مرجع سابق ، صص ٢٠ ـ ٢٢ ٠

صيادين الى رعاه رحل ، ومن هؤلاء من رحل نحو الشمال ، فواجهوا تحدى قسوة برد الشمال الموسمى ، ومنهم من انتقل صوب الجنوب نحو المنطقة الاستوائية المطيرة • وهنالك أوهن قواهم جو ومناخ تلك المنطقة المطير الجارى على وتيرة واحدة ، وكان هذا العمل المزدوج الذى قل أن نجد له مثيلا هو العمل الارادى الذى خلق مصر كما عرفها التاريخ وهو تمسك البعض بالبقاء فى الوادى برغم حالة الجفاف الشديد فماذا صنعوا •

هبط أولئك الرواد الأوائل الأبطال بدافع الجرأة أو اليأس الى مستنقعات الوادى ، وأخضعوا طيش الطبيعة لارادتهم ، وحولوا المستنقعات الى حقول تجرى فيها القنوات والترع وهكذا خلقت أرض مصر من الأجمة التى خلقتها الطبيعة ، وبدأ المجتمع المصرى قصة مغامراته الخالدة لتستقيم له أمور دنياه •

ويظن العلماء ان المستنقعات التى تحكم فيها المصريين الأوائل هذا التحكم الحاسم كانت لا تختلف كثيرا عما هو قائم الآن فى منطقة السدود فى السودان بل ان العلماء يظنون أن أسلاف القوم الذين يعيشون الآن فى تلك المنطقة كانوا يقطنون فيما مضى ما يعرف الآن بالصحراء الليبية جنبا الى جنب مع مبدعى الحضارة المصرية ، عندما استجاب هؤلاء لداعى الجفاف واختاروا لأنفسهم أن يختاروا خطة بالغة الخطورة • والظاهر أن المصريين حين فعلوا ذلك آثر جيران لهم اليسرى وولوا وجوههم نحو الجنوب ، نحو بيئة طبيعية تتفق والبيئة التى ألفوها ، والتى أصابها من التحول ما ألزمهم أما بمغادرتها واما بتغيير أساليب حياتهم • وقد اختاروا مغادرة الموطن الى موطن جديد يستطيعون فيه ممارسة شئون معاشهم على الوجه الذى ألفوه ، وتم لهم هذا فى المنطقة الحارة من السودان فى دائرة الأمطار الإستوائية • ولايزال أحفادهم من الدنكا والشلك

وغيرهم يعيشون فيها حتى يومنا هذا كما كان يعيش آباؤهم الأولون . وقد أوضح « تشيلد » ما بين هؤلاء القوم المعاصرين وقدماء المصريين من شبه في القوام والسمات ، ونسبة أجزاء الرأس ، واللغة ، والملبس ويضيف الى ذلك بقوله « يبدو أن النمو الاجتماعي عند القبائل التي تقطن أعالي النيل وقف عند موضع تمكن المصريون من اجتيازه قبل بدء العصور التاريخية ، ولدينا الآن في أعالي النيل متحف من « يكمل أناسه آثار ما قبل التاريخ في مجموعتنا الأثرية فيحييها » .

ـ ولكن لايزال علينا أن نسأل ، لما اختلف مسلك المصريين الأوائل ومسلك أخوانهم أسلاف الدنكا والشلك . وفي هذا يقول توينبي « يبدو أننا لابد أن ننتهي الى أن نعزو ما حدث الى اقتران ظرفين احدهما : كون البيئة التي تحدت الانسان لم تكن هينة لينة ، كما لم تكن قاسيه مثبطة ، بل كانت بين بين . والظرف الآخر اتفاق وجود الرجال الموهوبين الذين يقودون شعبهم في الساعات الملائمة الى مغامرة كبرى من مغامرات الخلق والتكوين .

والتفسير أن مصر التي تشكلت على هذا النحو المفاجيء المثير ، قد سيطرت هي أيضا على مصائر أبناءها ، واقتضتهم ثمن بقائها على الشكل الذى صنعوه (١) .

وقد تعاقبت في ذلك العصر الحجرى الحديث ، ثقافات كثيرة متصلة ببعضها ولكنها مختلفة في مدى تطورها وفي بعض مظاهر تقدمها ، وأول هذه المظاهر هي احتراف المصرى للزراعة والاستقرار .

---

(١) محمد شفيق غربال (سفير) : تكوين مصر عبر العصور ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠ ، ص ص ١٦ ـ ١٨ .

ـ كان أول مجهود حضارى قام به المصريون يهدف الى توفير المطالب الرئيسية للانسان من مأكل وملبس ومسكن ، وقد اعتمدوا في ذلك خلال العصر الحجرى القديم على جميع النباتات وصـــيد الحيوانات ، فلما حل الجفاف بالبلاد وانساب الناس الى ضفاف النيل حيث اكتشفوا سر الانبات وتحولوا الى الزراعة التى اتخذوها حرفة رئيسية وأصبحت هى سبيل أرزاقهم ، واحتلت المركز الأول فى نظام حياتهم • وقد تركوا لنا تراثا ضخما من الفؤوس والمناجل وسلال الغاب وآوانى الفخار وبقايا الحبوب فكانت الزراعة كشف جديد فى حياة الانسان وحضارته ، وترتب عليها انقلاب خطير فى طريقة معيشته ، فلقد أصبح يستخرج خيرات الأرض بعد أن كان يعيش يوما بعد يوم تحت رحمة الطبيعة • وفرق كبير بين البحث عن الطعام والعثور عليه وبين انتاجه ، ففى الحياة الأولى يبقى الانسان بدويا متنقلا مستهلكا يعتمد على الحظ ، وفى الثانية يستقر فى مكانه ويعتمد على نفسه ويدخر للمستقبل • وقد ثبتت الزراعة ارتباط الانسان بالأرض واضطرته الى الاســتقرار فأنشأ المساكن الثابتة وكون المستوطنات فالقرى والمدن وازدادت الألفة بين الناس وازدهر التعاون ، وأدرك كل شخص ما له من حقوق وما عليه من واجبات وبذلك خطا الانسان أولى خطواته نحو قيام حكومة مركزية تسن القوانين وتعمل للصالح العام •

ـ كذلك أدى اكتشاف الزراعة الى ازدياد ثروة البلاد وحصول القوم على محاصيل متنوعة من القمح والشعير وغيرها ، وقد أتاحت الزراعة من الوقت والفراغ ما سمح للناس بالتفكير فى شــــئون الدنيا والآخــرة ، فظهرت المعتقدات الدينية ، كما بزغت الوان الفنون المختلفة •

ـ ومن مظاهر هذا العصر استئناس الحيوان ، كذلك توصل انسان ذلك العصر الى استئناس الحيوان وأصبحت تربيته مكملة

للزراعة ، ومن أقدم الحيوانات التى استأنسها المصرى القـــديم الماعز والأغنام والبقر والخنازير ، وقد جاء استئناس الحيـوان طبيعيا للغاية وقد حول ذلك الاستئناس حياة الناس من حياة هدامة مستهلكة الى حياة منتجة بناءة ، والواقع انه لولا معرفة الانسان بتربية الحيوان بدلا من صيدها لانقرض جانب كبير منها ، وقد غنم الانسان مغانم كثيرة من رعى الحيوانات وتربيتها ، فقد استخدمها فى الزراعة والنقل وتغذى بلحومها وألبانهـــا • وتدثر بجلودها وأصوافها وشعرها كما صنع الكثير من أسلحته وأدواته ومنتجاته الفنية من عظامها وقرونها وأنيابها واستفاد من مخلفاتها وقد استمر الانسان بجانب الزراعة وتربية الحيـــوان فى مزاولة جمع الثمار وصيد البر والبحر والجو ولكن فى نطاق محدود نسبيا •

ـ ومن مظاهر هذا العصر أيضا تقدم صناعة الأدوات والأسلحة فلقد تقدمت صناعة الأدوات الحجرية فى هذا العصر من الصوان وغيره من الأحجار ، وأتقن الانسان المصرى نحتها وشطفها • لقد أضحت فائقة الصنع متعددة الأشكال (١) •

ويذكر جيمس هنـــرى برســـتد أن الأســـلحة والأدوات التى وجدت فى مصر من الحجـــر الصوان كانت أجمل وأحسن صقلا من جميع الأسلحة والأدوات التى وجدت من هذا النوع فى جميع بلاد العالم » ويقول جوستاف جيكير « •• وصـــل العمل الفنى فى صقل الحجر فى العصر الحجرى الحديث فى مصر حدا من الاتقان والدقة يتعذر أن يوجد له مثيل فى أى بلد آخر وهذه الدقة لا تلاحظ فى أدوات الانتاج فقط ، بل تلاحظ فى الأدوات

---

(١) محمد جمال الدين مختار (د•) وآخرون ، مرجع سابق ، ص ص ٢٤ ـ ٣٣ •

العادية أيضا » • ويشهد دى مورجان انها ليست أدوات نافعة فقط ، بل هى أعمال فنية عجيبة أيضا ، تفوق جميع ما خلقه الانسان فى العصر الحجرى فى جميع البلاد الأخرى وأيا كان الأمر (١) •

ـ ومن الأشياء التى صنعت فى هذا العصر من الأدوات الحجرية أسلحة القتال والسكاكين والبلط والمناجل والمثاقب والمقاشط والمناشير والخناجر والحراب ورؤوس السهام • وقد ظل الحجر الصوان هو الحجر الأساسى المستخدم كما كان الحال فى العصر الحجرى القديم لانتشاره وكثرته من ناحية وصلاحيته للتشكيل والاستعمال من ناحية أخرى •

ولم يكتف الانسان بشظف الآلات الحجرية بل بدأ فى صقلها وذلك عن طريق فركها مع أحجار أخرى ، وقد استخدم النوعين المشطوف والمصقول جنبا الى جنب ، كذلك صنع الانسان بعض آلاته وأدواته من عظام الحيوانات كالخطاطيف والصنابير والأبر • كما استخدم الخشب فى صناعة الكثير من الأدوات الزراعية بوجه خاص كالمناجل والفؤوس ، وتوصل فى أواخر هذا العصر الى أشياء أخرى •

ـ ومن مظاهر هذا العصر أن سكان مصر عرفوا صناعة الفخار كما حدث فى كافة الأقطار الأخرى • وقد استخدمت الأوانى الفخارية المصنوعة فى هذا الوقت وقد استخدمت تلك الأوانى فى حفظ الطعام والماء • والأدوات كانت نتيجة حتمية لظهور الزراعة وخاصة أن المصرى قد انتقل الى جوار النيل حيث

---

(١) احمد محمود صابون (د•) : مرجع سابق ، ص ١١ •

قدم له النهر طميه كمادة صالحة لصناعة الفخار كما استخدمها فى صنع أوانى الطهى لذلك • ويختلف الفخار حسب الحجم واللون ونوع المادة ودرجة الاتقان والشكل والزخرفة فهناك الفخار الاحمر الفاتح ، والقاتم ، والأحمر ذو حافة سوداء ، أو بنى ، أو أصفر ، أو رمادى ، أو أسود • كذلك صنع من الأوانى ما هو مستدير ومستطيل وبيضاوى أو مصنوع على هيئة الحيوان أو الطير ، وهناك ذو القاعدة وذو العروة ، وذو الأيدى ، ومنها المرسوم أو المحفور عليه بالألوان الأبيض أو الأحمر •

وقد تكون النقوش التى على الأوانى خطوطا متقاطعة أو رسوما هندسية أو فى شكل زخرفى أو تمثل السفن والناس والحيوانات والطيور والأسماك والأشجار وغير ذلك من صور الحياة • كذلك صنع المصريون كغيرهم من الشعوب أدوات وأوعية وأكوابا وأباريق وجرارا من أحجار مختلفة وخاصة المرمر والبازلت والأردواز والحجر الجيرى •

ـ ومن مظاهر ذلك العصر أيضا التقدم الصناعى • فأقبل انســـان ذلك العصر على الكثير من الصناعات اليدوية ، تصنع الحصير ، والسلال والحبال لتضفير وجدل وفتل الخوص والبردى والبوص وغير ذلك من أعواد النبات ، وقد أدى تدريبهم على تلك الصناعات الى بدءهم فى غزل ونسج الكتان • ويدل ما وجد بين آثارهم من مغازل وأنوال بدائية وأبر ومخارز على أنهم شرعوا فى صناعة ملابسهم من نسيج الكتان الخشن ومن جلود الحيوانات وأصوافها وشعرها •

وقد عثر علماء الآثار على كثير من أدوات الزينة من عقـود وأساور من الخرز والعقيق والأصداف وأقراط من الحجر أو البلور

وأمشاط ومشابك وأكاليل اللشعر من العاج وعظام الحيوانات وكذ صلايات (لوحات صغيرة) من الاردواز وغيره متنوعة الأشكال لطحن وخلط الكحل وغيره من المساحيق الحمراء والخضراء والسوداء ٠

ـ ومن مظاهر هذا العصر أيضا اقامة المساكن والدور ، فقد كان الانتقال من الهضبة الى وادى النيل بداية لتطور حضارى كبير ، فقد فضل السكان الاستقرار والاستيطان ، وانتقلوا من حياة القبيلة الى حياة القرية أو المحلة يقيمونها فوق مرتفع من الأرض بعيدا عن خطر الفيضان وقد اتخذوا بيوتا من البوص وأعواد النباتات والطمى فى بادىء الأمر ، ولكنهم لاحظوا بعد انخفاض النيل كل عام أن الأرض التى غطاها الطمى تجف تدريجيا وتتحول الى قطع متلاصقة من الطين الجاف ، فاستخرجوا تلك القطع من الأرض ، واستخدموها فى بناء مساكنهم ، وكانت هذه بداية استعمالهم للطوب اللبن ٠ ولم يصل للعلماء الا بقايا ضئيلة من هذه المساكن التى اختلفت طرزها وأشكالها باختلاف الأماكن والثقافات فهى تارة بيضاوية وتارة مستطيلة وكان بها أحيانا مواقد للنار محفورة فى الأرض أو مصنوعة من الطين وبالبعض الآخر حظائر لايواء الحيوانات أو المواشى وعرائش ترسل الظل ومخازن للغلال مصنوعة من الطين تارة ومن الفخار تارة أخرى وقد تكون مجرد سلال كبيرة ٠

ـ وقد اهتم سكان هذا العصر بقبورهم وموتاهم وتزويدها بما كانوا يعتقدون أنه ضرورى ، وقد اختلفت مواقع المقابر بالنسبة للقرية أو المحلة ، فكان القبر عبارة عن حفرة غير عميقة أما مستديرة أو بيضاوية أو مستطيلة ٠ وبمرور الزمن كبر حجم القبر وأخذ القوم فى تكسية جدرانه لمنع انهيار الرمال والأتربة بالأغصان

والبوص والطين • وكان الجسد يلف أو يغطى بالبوص أو الأعشاب أو الحصر أو جلد الماعز لحمايته من الرمال التى تنهار عليه •

كذلك ظهـرت المحاولات الأولى لصنع تابـوت من الخوص أو الخشب • كما ظهر أن المصريين قد قاموا بوضع الجثة مطوية بحيث تنثنى اليدان نحو الفم كما وضـع مع الميت بعض المواد الغذائية والأدوات الشخصية وبعض التماثيل لبعض الحيوانات على نوع من الاعتقاد بالبعث والحياة الأخرى •

ـ أما عن الفنون فقد أتاح احتراف الزراعة لسكان ذلك العصر من الوقت والفراغ بما يسمح لهم بمزاولة بعض الفنون التى وان كانت بدائية ومحدودة الى حد ما فهى مع ذلك تمثل باكورة الاتجاهات الفنية • ويكاد ان يقتصر الرسم والنحت فى هذا العصر على زخرفة سطوح الأوانى الفخارية بخطوط هندسية أو بالتصوير عليها ليعطى ألوان الحياة من صيد أو رعى أو انتقال على ظهـور السفن وهى تمتاز جميعا ببساطتها ووضوحها كذلك استمر رسم الرسوم على منحدرات الأودية والصحراوات منذ أيام العصر الحجرى القديم ، وهى تمثل غالبا الحيوانات التى يشاهدونها • وقد بدأ سكان العصر الحجرى الحديث فى نحت تماثيل صغيرة من الطين والحجر والعاج بوجه خاص ، هذا ما كان من أمر العصر الحجرى الحديث فى مصر •

عصر المعادن :

ـ اكتشف المصريون ان مادة النحاس التى عثر عليهـا فى سيناء يسهل طرقها وتشكيلها وجعلها مستطيلة ، فصنعوا منها

الابر النحاسية التى تعد من أقدم الأدوات المعدنية التى استخدمها الانسان .

ومما لاشك فيه أن المصريون لم يتصـــوروا الانقلاب الذى قاموا به باستخدام النحاس ، فقـد بدأ عصر المعـــادن والصناعات المعدنية التى تقوم عليها أسس الحضـارة الحاليـة . وكان هذا الاكتشاف خطوة هامة فى سبيل رقى المجتمع فى تلك العصـــور البعيدة ، فقد ارتقت صـــناعات الجـــلود والفخار والخشب وبدأ قيام ما نسميه بالحرف ، كما ساعدتهم رؤوس الفؤوس والبلط النحاسية فى الزراعة والصيد . كذلك استخدم المصريون الذهب الذى حصلوا عليه من الصحراء الشرقية فى صناعة حليهم ومقابض بعض أدواتهم وآلاتهم .. ولكن اهتداء الناس الى المعادن واستخدامهم لها فى الصناعة لم يغنهم عن استخدام الحجر فاستمرت الصناعات الحجرية الى جانب الصناعات المعدنية .

ـ ولم يقتصر الفن فى ذلك العصر على رســـم صـــورة على أوانى الفخار وانما صوروا وصغروا المناظر على مقابض السكاكين التى صنعت من العظم والعاج أو صفحت بالذهب . كذلك يتمثل النقش فى أجمل صورة على سطوح الغلايات التى امتلأت بالرسوم والزخارف واستخدم النقش أيضـا فى تحليـة الأمشاط بأشكال محفورة للطيور والحيوانات .

وفى أواخر هذا العصر اتخذ الفنان من الحجر مادة ونجح فى صنع تماثيل على جانب كبير من الدقة الفنية ، ولم يقتصر المثالون على صنع تماثيل الانسان وانما صنعوا تماثيل للحيوانات والطيور ، وهكذا يتميز هذا العصر بتقدم مطرد فى فنون التصوير والنقش والنحت وبدأ القوم فى ابداع تقاليد فنية تبلورت فيما بعد وأوضحت

طابعا وأسلوبا للفن المصرى طوال عصوره • وقد صاحب هذا العصر الذى تعرف الفترة الأخيرة منه بعصر ما قبل الإسرات تطور فى حياة المصريين انتهى فى آخر الأمر بتوحيد البلاد للمرة الأولى فى تاريخها من بدء حكومة مركزية قوية سارت بالمصريين قدما الى مسرح التاريخ المسطور أى عصر الأسرات التاريخية (١) •

عصر ما قبل الأسرات :

ـ ذهب بعض المؤرخين الى أن هذه الحضارة قد وفدت من بلاد الرافدين حيث كان غزوا حربيا أو سلميا لمصر ، فعلموا المصريين الكتابة وصناعة المعادن وتشييد المبانى وأدخلوا اليها دياناتهم وكانو: أهم الذين أقاموا فيها ىنظام الحكم على النحو الذى عرفه عن الفراعنة ، ومن نسل هؤلاء كان الملك مينا وحلفاؤه •

ـ ويذكر « ألن جاردنر » انه يبدو من الجائز القول بأننا نرى أن التأثير الرافدى فى الثابت كان بوفرة تماما لأن يشبع الحركة فى هذا التقدم السريع ، الذى خلق لمصر حضارة فريدة رائعة ، من اشكال وصور لم تر من أن تبتعد عنها كثيرا فيما بعد •

ـ ويتساءل « جون ولسون » هنا جاوزت مصر حالة البداوة الى حالة المدنية بدون التأثير الرافدى • يقول ان اعتقادنا بأن هناك بواعث لتفاعل ذاتى يكون أفضل بكثير من تأثيرات خارجية حيث أن الدافع نحو التغيير يكون قويا بداخل الحضارة وذلك فى عدم وجود هذا الدافع الداخلى •

---

(١) محمد جمال الدين مختار (د٠) : وآخرون : مرجع سابق ، صص ٢٤ ـ ٣٣ •

ـ ويرى « كانتور » الصلة الفعالة ، حيث يظهـــر أنه على الرغم من أن مصر انبعثت من عزلتها المبكرة من التأثيرات الأجنبية بقدر ما يمكن ان نعتبر ذلك على أساس المادة الأثـــرية المتاحة ـ فانها مازالت تشكل فقط حالة ثانوية تماما أو عناصر فعالة اضافية الى التطور الفطرى الرئيسى ٠

ـ ويذكر « والتر امرى » : « فى الحقيقة بأن وجود جماعه ثالثة تكون أعمالها الثقافية قد انتقلت الى كل من مصر وبلاد ما بين النهرين على حده قد يفسر لنا بطريقة مثلى المظاهر المشتركة والفروق الاساسية بين كلتا الحضارتين ٠

ـ بينما يذهب « ودال » الى أبعد من ذلك بكثير حيث يذكر أن الحضارة لم تنهض أولا فى مصر بل نهضت أولا بين سكان بلاد الرافدين ، وأن الحضـــارة قدمت الى مصر بشكل تـام من بلاد الرافدين ، وان الحضارة المصرية تعوزها الأصـــالة فى كثير من عاداتها ومعتقداتها وفنونها وحروفها وفى شكل الكتابة المسمارية ، والتى كانت الأصل للكتابة الهيروغليفية ، بل ان مصر لم تظهر على وجه الخصوص بأنها شاركت فى انتشار الحضارة فى المنطقة ٠

ـ ويذكر « فاير سيرفيس » بأن معظم النظريات تتفق بأن الاتصال والتأثير الأجنبى له تأثير على خصائص وأصول الحضـــارة المصرية وأيضا تؤكد عموما وفى دقة الخصـــائص الفطرية لتلك الحضارة ويضيف الى آن ظهـــور الدولة الفرعونيـــة قبل نهاية الألف الرابع قبل الميلاد كان ضروريا تبعا لتطور الحضارة فى نفس المنطقة حيث اتصلت الظاهرتان الواحدة مع الأخرى نتيجة القاعدة العرضة للتقدم الحضارى الذى وجدت به غربى آســـيا وشمال

افريقيا فى عصور ما قبل الأسرات ، هذا التطور الذى له كلا من مظاهر انتشاريته وفطريته ٠

وفى حقيقة الأمر ، لقد اختلف علماء الدراســات المصرية القديمة اختلافا كبيرا فيما بينهم ، فمنهم من تعصب للعراق ومنهم من تعصب لمصر ٠ ولكن لا يسع الدارس الا أن يشير بايجاز الى أهم الأدلة التى كان بعض علماء الدراسات المصرية القديمة يستندون اليها ليقولوا أن غزاة أجانب قد غزوا مصر فكانوا هم الذين جلبوا لها الحضارة وأسسوا فيها الاسرة الأولى ٠ ومن هذه الأدلة الآتى :

أولا : الأدوات الصوانيــة : فقد عثر على بعض منها فى مصر مصنوع بأسلوب يشبه الأسلوب المتبع فى منطقة سورية ـ فلسطين اذ ساد مصر خلال عصر حضارة جرزة أدوات صوانية ذات حد واحد بدلا من الأدوات الصوانية ذات الحدين بالاضافة الى وجود مقاشط بيضية ومروحية مصنوعة حسب الاسلوب الذى ســاد خلال عصر حضارة نقادة الثانية والتى تشبه الى حد كبير تلك الأدوات الصوانية المماثلة لهــا ، والتى عثر عليها فى ثليلة الفول عبر الأردن ، وفى جبيل على الساحل السورى ٠ وتذهب باومجارتل الى أن هذا التغير الذى طرأ على صناعة حجر الصوان فى مصر خلال عصر حضارة نقادة الثانية ، نتيجة دخول عنصر ســامى الى مصر ابان تلك الفترة وصحبتها فى ذلك عدم انتشار استخدام حجر الصوان آنذاك فى المقابر المصرية حتى عصر نقادة الثانية ، اذ شاع عندئذ نوع جديد من الأدوات الصوانية ذات حد واحد لم تكن معروفة من قبل فى مصر ، ولكنها معروفة فى بعض مناطق من سورية ـ فلسطين ٠

ثانيا : ظهور بعض الظواهر الفنية الرافيدية التى انتشرت فى نقوش بعض الآثار المصرية التى تؤرخ لفترة ما قبل الأسرات والتى

تتمثل فى ثلاثة ظواهر رئيسية ، هى ظاهرة التناظر ، وظاهرة تصوير بعض الحيوانات الخرافية وظاهرة تصوير حيوانات بحيث يفترس الحيوان الخلفى منها الحيوان الذى أمامه دون ان يبدى هذا الاخير أيه مقاومة • وتبدو هذه الظواهر واضحة فى نقوش بعض الصلايات ، ومقابض السكاكين ومقبرة نخن الملونة ولقد ذهبت باومجارتل الى أن رسم الأفاعى المجدولة والحيوانات الخرافية المجنحة والحيوانات التى يهاجم الواحد منها الآخر من الخلف هى موضوعات فنية مستعارة من الفن الرافدى •

ثالثا : ان الطراز المعمارى المبنى بالطوب اللبن • والمزين بدخلات وخرجات منتظمة والذى ساد العمارة المصرية فى مطلع عصر الأسرة الأولى ، كواحد من التأثيرات الرافيدية التى وصلت مصر خلال فترة ما قبل الأسرات •

رابعا : لقد تضمنت اللغة المصرية القديمة بعض أوجه التشابه بينها وبين اللغات السامية مثل التشابه فى بنية الكلمة الأساسية فى كل من اللغتين وتشابه بعض حروفها وضمائرها وخصائصها النحوية ومفرداتها •

خامسا : لقد عثر على أربعة أختام اسطوانية تعود الى نهاية عصر حضارة نقادة الثانية وكلها ذات نقوش متأثرة بحضارة جمرة نصر ويضيف العالم « فرانكوفورت » بأن هناك بعضا من الأختام التى صنعت من حجر كلسى جيرى رمادى نادر الوجود فى مصر وغير معروفا علميا ، ولكنه شائع فى بلاد الرافدين خلال فترة ما قبل الكتابة •

سادسا : لقد عثر فى مصر على نماذج فخارية تؤرخ بعصر حضارة نقادة الثانية وان أصولها ترجع الى فلسطين وذلك بسبب أقدمية صنعها فى فلسطين وأيضا لتنوع أشكالها وانتشارها هناك •

سابعا : وجود قصة منقوشـــة على معبد ادفو لقوم يسمون أتباع حور فسرت بما معناه أن هؤلاء الأتباع قد وفدوا على مصر من جنوبها وغزوها ، ومن ثم فقد كانوا هم جنس الأسرات والذين منهم كانت بداية عصر الأسرات ٠

ثامنا : استعمال معـدن النحاس فى صناعة الخرز والمثاقب والدبابيس وزادت عليها الأساور والأزاميـــل الصغيرة والخواتيم ورؤوس الحراب وغيرها وقد علل أصحاب هذا الدليل ان النحاس لم يستعمل فى مصر الا فى عصر ما قبـل الأسرات بقليـــل وكان استعماله فجأة ٠

ويشير الدكتور « أحمد فخرى » الى أن عالم الدراسات المصرية القديمة « مورنجات » يذكر أن الباحث يجد نفسه فى تاريخ الشرق القديم فى سباق مع جيش من المتخصصين من زملائه ، وهو يحس دون شك بالاعتراف بالجميل لما يفعلونه لبناء صرح هذا التاريـخ ولكنه يجد المعلومات الأساسية فى هذا التاريخ تتغير دائما نتيجة لتقدم الأبحاث العلمية ٠ ولكن رغم ذلك فان جمهـــور القراء بل والمتخصصين أنفسهم يحســـون بالحاجة الماســة الى جمع آلاف المعلومات المتشعبة التى تظهر من آن لآخر عن الحياة فى العصور القديمة فى غرب آسيا ويحسون أيضــا بالحاجة الى الاستفادة منها لتكوين صورة عامة ترى فيها التفاصــيل وقد وضعت فى أماكنهــا فى هيكل هذا الصرح ٠ وســـاعدت على توضـــيح بعض النقط التاريخية ٠

أيا كان الأمر فبادىء ذى بدء فقد جمع نهر النيل سكان مصر الأقدمين حوله بل دربهم وعلمهم ، حتى أخرجهم من مرحلة البداوة

الى مرحلة الحضارة حيث تشير الأبحاث الى وجـود تركيز سكانى على ضفتى نهر النيل فى الصعيد وكذلك فى ســـهول الدلتا منذ ٦٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ ق٠م ٠ ومن ثم بدأ النمط الاستقرارى بحجم نامى يأخذ مكانه ، وتبعا لذلك فان عصر ما قبل الأسرات قد تميز بالعدد الضخم من المستقرات وبالطبع تعتبر نحن منطقة استقرارية منذ عصر حضارة البدارى ٠ ذلك ان هؤلاء السكان عندما رأوا النيل يفيض ويغرق مساكنهم قادهم ذلك الى اقامة حواجز بينهم وبينه ثم الى تقوية الجسور ، بل كان عليهم ان يواجهوا التحدى البيئى بمحاولة التحكم فى مياه نهر النيل بمختلف الوسائل التى تعمل على تحقيق هذا التحكم وانقاذ الانسان من تهديد المياه لحياته ٠

فقد بدأ التعاون لدفع هذا الخطر فى حدود ضيقة بين كل جماعة تعيش فى منطقة واحدة ، ثم امتد من منطقة الى آخرى ، ودعا هذا الى أن تكون سلطة تنظيم التعاون بين أفراد المنطقة الواحدة فى كل من الدلتا والصعيد ، ثم أخيرا وحـــدة قطرى مصر معا ٠ فالنيل هو الذى علم ســكان مصر الأقدم تكوبن الحماعات ، وبث فيهم روح ـ التعاون فنقلهم من حـالة الرجـل الهائم على وجهــه مع الحيوانات وبين النباتات الى حالة الرجل العائش فى وســـط الجماعة من أمثاله ٠ التعاون معهم الخاضع لسلطة حاكمة منظمة ٠

والنيل أيضا هو الذى علم المصريين الزراعة ، حينما كان غيرهم لايزال يعيش على النباتات البرية وعلى صيد الحيوانات ، ويذكر « بيرى » (ان مصر هى المهد الأول للزراعة حيث كان فيضـــان نهر النيل وطميه المخصب كافيين لانبات البـــذور التى تلقى على الأرض ٠ ولقد كان يكفى أن يوجد العبقرى الذى بشـــق قنوات تجرى فيها مياه النيل ، لكى تنشر هذه وتنتشر فيها الزراعة ، فى سطح واسع بل عليه ان يواجه التحدى البيئى بمحاولة التحكم فى

مياه نهر النيل بمختلف الوسائل التى تعمل على محاولة تحقيق هذا التحكم وانقاذ الانسان من تهديد المياه لحياته ·

وقد لمس المصرى القديم فى أثناء عمليات هذا التحكم بوادر انتاج الطعام فى بزوغ الحياة الزراعية البرية على الشاطىء ، حيث تنبثق الحياة الزراعيــة البرية · كنتيجة طبيعية للثروة الطمية والمائية بصورة تلقائية شبه منتظمة ومتصلة بظاهرة مجىء هذه القوى المائية وانحصارها بعد ذلك فى أوقات معينة من السنة ، مما كان له أثره فى خلق الوعى التجريبى الكافى لمحاولة تقليــد الطبيعة وصنع الزراعة ونقل حياته من الجمع الى الانتاج الزراعى وهى خطوة كبيرة فى تاريخ المدنية فى العالم وهى الأساس الأول فى وجود المدنية المصرية ، ويذكر الكسندر موريه أن المجهــودات العظيمة والمنظمة التى بذلها الانسان المصرى الأقدم هى التى هيأت للمدنية ان تظهر لأول مرة على وجه الأرض · وعلى ذلك فالمدنية لم تطرأ على مصر من الخارج بل هى بنت النيل ، بنت مصر ·

ومن الثابت وفقا لأحدث النتائج التى وصلت اليها أبحاث الأثريين أن جميع شعوب الشرق القديم كانت على صلة ببعضــها وكانت التجارة قد عرفت طريقها بين هذه الشعوب · كما أخذت الهجرات تتوالى اثر بعضها البعض · فاتصلت مصر بالعراق وكانت مصر اذ ذاك تجتاز فترة انتقال وتطلع فاثمرت هذه الصلة وأخذت مصر من العراق شيئا من مظاهر حضــارية حيث أصبحت مصر مطلعة على انجازات بلاد الرافدين ، وأنها استمدت منها وانها فى تطورها الخاص والسريع لاءمت وكيفت تلك العناصر التى بدا أنها لا توافق جهودها وكانت تحول ما اقتبسته فى الغالب وبعد فترة رفضت حتى هذه الأشكال المعدلة نفسها ·

وأن مداخل مصر ومخارجها ظلت مفتوحة في عصورها الأولى في وجه الصلات الجنسية والحضارية مع جيرانها في سوريا وفلسطين وبلاد الرافدين وشمال شبه الجزيرة العربية ، فضلا عن الانتقالات البشرية البسيطة من الصحراء الغربية الليبية الى وادى النيل الخصيب والهجرات المتقطعة البسيطة من المناطق الغربية الى مناطق الخصب في الصعيد . ولكن وعلى الرغم من ذلك كله فالربط بين حكام بداية الأسرات في مصر وبين هجرة جنسية أو هجرة حضارية وفدت من الشرق الى مصر ، ومن بلاد الرافدين خاصة كما ادعى أصحاب الرأى السابق ربط يصعب التسليم به ، وتضعفه قرائن كثيرة منها :

اولا : ان قصة أتباع حور مطعون في قيمتها التاريخية لأنها لم تنقش على معبد الاله حور بادفو في العصر الأول من عصور المدنية المصرية بل يمكن أن يقال انها ترديد لحادث تاريخي وقع قبل عصر الأسرات .

ثانيا : أما عن استعمال النحاس والذهب ، ففي حضارة البدارى عرف المصريون النحاس واستعملوه وقد وجد في قبورهم من حيث عرفوا استخراج معدن النحاس من أخلاطه الطبيعية واستخدامه في صناعة الأدوات الصغيرة جنبا الى جنب الأدوات الحجرية القديمة . وليس من المستبعد أن يكون المصريون قد اهتدوا الى استخلاص النحاس في بداية أمرهم .

ثالثا : أنه ليس من شبه قريب أو بعيد بين أسماء أوائل ملوك الأسرات المصرية وأسماء كبار موظفيهم وبين أسماء أهل بلاد الرافدين وأهل المناطق التى ذهب الظن الى أنهم سلكوها في طريقهم الى مصر .

رابعا : انه ليس من شبه قريب أو بعيد كذلك بين الهيئات والملامح والقامات الفارعة التى تصور بها ملوك الأسرات المصرية الأولى وكبار رجالهم وبين الهيئات التى تصور بها أهل الحكم فى بلاد الرافدين وغيرها من البلاد التى ذهب الظن الى أنهم سلكوها وهم فى طريقهم الى مصر سواء أكانت فى الشام أو فى اليمن ·

خامسا : ان الحكام الذين حاولوا توحيد مصر قبل بداية عصر الأسرات وعند قيامها ، صوروا لأنفسهم رموزا دينية وألوية حربية ذات أصل مصرى آكيد ، وليس لها شبيه صريح بين رموز وألوية شعب من الشعوب التى ألحوا اليها ·

سادسا : ان التطورات السياسية التى شجعت أولئك الحكام على توحيد مصر تحت حكمهم كانت تطورات داخلية منطقية ·

سابعا : انه وان أمكن أن نفترض أن أهل العهود الأخيرة التى سبقت عصر بداية الأسرات فى مصر ومن عاصروهم من أهل بلاد الرافدين جنوب شبه الجزيرة العربية ، تجرؤا على اجتياز البحر الأحمر فى أعداد قليلة وعلى فترات محددة لتبادل المنافع أو للبحث عن سبل عيش أفضل · الا انه كان من الصعب على هجرات كبيرة تستطيع أن تفرض نفسها على مصر والتغلب على أهلها وأن تعبر البحر الأحمر بمراكب كثيرة وكبيرة فى ذلك العصر البعيد ، سواء اجتازت البحر من أواسطه فى مقابل القصير ووادى الحماماح أم من جنوبه عند مضيق باب المندب الذى لا يقل عرض البحر عنده عن أربعة وعشرين كيلو متر ·وذلك مع العلم بأن قرائن استخدام المصريين للبحر الأحمر استخداما فعليا فى عصورهم التاريخية نفسها لا ترجع الى أبعد من عصر الأسرة الرابعة أو الخامسة نظرا لصعوبة الملاحة بجوار شعابه المرجانية ووسط تياراته العنيفة ، وذلك على الرغم

من وجود قرائن نشاط آخر في أواسط البحر المتوسط قبل ذلك العصر بأجيال طويله ·

ثامنا : ان الهجرات المفترضـــة جنسية كانت أم حضـارية لم تترك أثرا واضحا يدل عليها من الكتابة أو وسائل البناء باللبن أو عناصر الزخرف في البلاد التي قطعتها في سبيلها الى مصر ، سواء كانت هذه البلاد هي الشام أو اليمن · ويذكر أريك بيت أن من أهم خصائص مصر الطبيعية مركزها الجغرافي ، فهي تحرس مدخل أفريقيا من الشمال الشرقي أو الظاهر أن هذه الجهة كانت دائما مثار قلق واضطراب · وفي الأوقات التي كان الاضطراب فيها على أشده كان سكانها ينزعون نزوعا قويا الى التدفق الى دلتا مصر الخصبة وقد حدثت من الشرق على دلتا النيل مرارا عدة مثل هذه الغارات في تاريـخ مصر فكان تعقب هذه الغـارات في كل مرة له نتائج وخيمة موقوتة الأجل · واننا يحق لنا أن نتسـائل جادين ألم تكن هذه الغارات السبب في أن مصر لم تتقدم قط تقدما مطردا سواء من الناحية الاجتماعية أو التعليمية أو الفنية بعد عصر الدولة القديمة ، صحيح انها كانت تفيق من الضربة في كل مرة ولكن هذا الانتعاش كان يقتضيها في كل مرة جانبا من نشاطها ولولا ذلك لوجهت هذا النشاط الى العمل على نيل التقدم الحقيقي ·

أن هذا يعني أن هذه الغارات التي صحبت تلك الهجرات لن تحقق انتعاشا وبالتالي كانت تصيب البلاد بدمار وخراب فكرى واجتماعي وسياسي فلماذا كانت الهجرات السابقة في عصور ما قبل الأسرات افادت وأنتجت عندما اســـتقرت في مصر وفي العصر التاريخي خلاف ذلك أن التفســير الحقيقي والمضبوط للهجرات السابقة في عصور ما قبل الأسرات لم تأتي بجديد ، ولكنها عندما استقرت استفادت من حضارة مصر لأنها كانت هجرات في صورة

أفراد أو جماعات قليلة العدد وبالتالى فهى لن تؤثر سياسيا أو فكريا أو اجتماعيا فلقد امتصتها بوتقة مصر ٠

تاسعا : زادت امكانية اتصال مصر بجيرانها القريبين والبعيدين فى أواسط عصر بداية الأسرات عما كانت عليه من قبل الأسرة الأولى وفى بدايتها وزادت صلاتها بسوريا وخاصة عما كانت عليه قبل الأسرة الأولى وفى بدايتها ، وعلى الرغــم من ذلك اعترف القائلون بالتأثيرات الخارجية فى أعقاب عهد مؤسس الأسرة الأولى بقليل ٠

وليس من شك فى أنه لو انتمى أفراد الطبقة الحاكمــة فى مصر الى شعب خارجى غريب لواصلوا اتصالاتهم بأهله بعد أن زادت امكانياتهم للاتصال بها ٠ لو صـــح انهـم نقلوا خصائص الحضارة السومارية عن طريق ســوريا واستعانوا بها على تحضير مصر وحكمها كما يقال لاستزادوا من هذه الحضارة بعد أن زاد اتصالهم بسوريا نفسها ٠

عاشرا : لم يعترف ملوك بداية الأسرات الأوائل ولا الأواخر بولاء ما للمناطق التى يفترض أصحاب الرأى السابق أنهم وفدوا عن طريقها ٠ فذكرت نصوصهم وحولياتهم تأديبهم لليمن وتأديبهم لبدو الصحراء الشرقية وبدو شبه جزيرة سيناء ، وربما وصـــل نشاطهم الحربى الى جنوب فلسطين أيضا ، بينما تأكدت اتصالاتهم الحبيبة بمناطق فينيقيا وصور فنانوهم بالنقش والنحت أسرى من الليبيين ومن الأسيويين تختلف ملامحهم عن ملامح الحكام والمحكومين المصريين ٠

والغريب أن بعض المتعصبين لرد جنس الأسرات الى أصـــل أسيوى هم فى الوقت نفسه أشد المؤكدين لقيام ملوك الأسرة الأولى بحروب فى آسيا منذ عهد ملكهم نعرمر ٠

احد عشر : صورت الكتـابة المصرية القديمـــة فى رحلتهما التصويريه حيوانات وبانات من وادى النيل نفسه ، ولم تتضمن عناصر دخيلة واضحة وظلت ترمز طوال عهدها الى أدوات ومصنوعات ومنشأت مصرية جمجمية نشأت فى البيئة المصرية ولم ترد اليها من خارجها ٠

اثنى عشر : حافظت الكتابة المصرية على عناصرها التصويرية أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، وبلغت بها عناية اكتمالها الفنى التعبيرى وأضافت الى مقاطعها الصوتية حروفا هجائية فى نفس الوقت الذى قصرت فيه الكتابة التصويرية فى بلاد الرافدين عن التطور الداخلى، وعجزت عن الاستمرار طويلا بين أهلها وغلبتها الكتابة التخطيطية المسمارية على أمرها ٠ ووقفت بها عند حد المقاطع الصوتية دون أن تتطور بها الى الحروف الهجائية وكان الأولى أن تنضج صور هذه الكتابة وتكتمل تطوراتهـــا فى بيئتها القديمة لو صح انها كانت من تراث شعب آخر غير الشعب المصرى ٠

ثلاثة عشر : ان البناء بالطوب اللبن تطور داخــــل مصر فى مراحله الطبيعية مرحلة فمرحلة فبدأ فيما يبدو بلباسه الطمى على سطوح الأكواخ ، وانتقل بها الى استخدام جواليص الطين فى تحديد جوانب غرف السكن وجوانب حفر المقابر ٠ وانتهى الى استخدام القوالب المستطيلة فى بناء البيوت وبناء حجرات الدفن ٠ ثم توقف عند هذا الحد ولم يرن الى تطور آخر عرفته بلاد الرافدين وهو تحويل اللبن الى طوب أحمر محروق لتعويض أهلها من قلة أحجار البناء الصالحة فى بيئتهم ، بينما وجد المصريون فى أحجار بيئتهم ما يغنيهم عن التطور اليه ٠

ولقد تشابهت الفكرة المعمارية للمشكاوات فى مصر وبلاد الرافدين ، ولكنها اختلفت فى طريقة تنفيذها وفى أغراضها ومجالات

استعمالها ، فبنى المصريون السطوح الداخلية لمشكاواتهم على مستويات متعاقبة كثيرة لم تعهدها مشكاوات بلاد الرافدين ، واستخدموها فى وجهات قصور الملوك وواجهت أسوارها فضلا عن واجهات مساطبهم ، كما استخدموها فى تشييد واجهات مساطب كبار أهل دولتهم ، وتشييد جدران أسوار المدن والحصون ، على حين استخدمها البناؤون في بلاد النهرين فى تشييد معابد آلهتهم دون غيرها أو أكثر من غيرها •

ولقد دفع الى القول باعتبار عمارة المشكاوات عنصرا دخيلا على مصر ، عدم ظهورها أو ظهور تطوراتها الأولى في مقابر قبل الأسرات . ولكن يلاحظ الى جانب ذلك أن الاجزاء العليا من هذه المقابر لم يبق منها شىء على الاطلاق بحيث يدل على قربه من نظام المشكاوات أو بعده عنها •

أربعة عشر : أما عن الأختام الاسطوانية فقد ظلت أكثر انتشارا فى بلاد النهرين عنها فى مصر وظلت أكثر استمرارا فى بلاد الرافدين عنها فى مصر •

وذلك بما يوحى بان أصلها عراقى أكثر ترجيحا من كونها مصرية ، ولكن يلاحظ الى جانب ذلك ان الأختام المصرية اختلفت عن الأختام العراقية فى أكثر من ناحية فصنع أصحابها بعضها من الخشب دون أختام بلاد الرافدين ونقشوا عليها ألقابهم وعلامات كتابية واضحة أكثر مما اعتاد أصحابها من بلاد الرافدين • ونقشوا عليها مناظر أخروية قبل أختام بلاد الرافدين ويتم ذلك على أن الأختام المصرية تطورت فى أحضان حضارة أهلها وسايرت تقاليدهم فى الصناعة والنقش والزخرف • وسارت صناعتها فى جو هادىء وفى تطور طبيعى دون أن يفرض على المصريين استعمالها قبل بلاد الرافدين أو غيرها •

وهكذا يتضح ان الانسان المصرى القديم قد صنع سجلا حافلا بالانجازات الحياتيـــة فى كافة المجالات وقدمها حصيلة سائغة للانسان سرعان ما تأثر بها الفكر اليونانى والرومانى بعد ذلك ٠ فقد ذهب بعض مؤرخى وفلاسفة اليونان الى جامعة ايون (عين شمس) المصرية للتعرف على التجربة المصرية القديمة فى مجال الحضـارة المصرية فى الفكر والفن والأدب ٠

كذلك يؤكد حقيقة ظاهرة الاستمرارية فى التاريخ المصرى القديم ، تلك الظاهرة التى انفرد بها هذا التاريخ بالمقارنة بسجلات حياة الانسان فى مختلف أنحاء العالم ٠

هذا وتنسجم معالم النقلة من عصور ما قبل التاريخ الى بداية العصر التاريخى فى عروف الظواهر البيئية والفكرية الهامة التى أدت الى هذا الانتقال الحاسم فى حياة الانسان من مرحلة الحضارة الى مرحلة المدنيـــة ٠ ولكن يلاحظ توفر بعض الظواهر المشتركة وبصفة خاصة فى الجوانب الفكرية بين صعيد مصر ودلتاه ولا شك ان تلك النقلة لم تكن عملية ثورية فى يوم وليلة ٠ بل لقد استغرقت خطوات طويلة تجمعت فيها عناصر تلك الدفعة الانتقالية الى ان برزت معالم النقلة بصورة حاسمة بعد وصول تلك المجتمعات الى مرحلة النضوج الموفر لاحداث ذلك الانتقال ٠ ولكن هذه التطورات الحضارية التدريجية التى مهدت فى خط سيرها الطويل الى أحداث عملية النقلة الى بداية العصر التاريخى لم تحل دون تواجد بعض الظواهر الخاصة المميزة بشكل مباشر لعملية النقلة بالذات حيث تميزت فى المجتمع المصرى القديم بعملية سياسية بحتة هى التوصل الى الوحدة السياسية بين الصعيد والدلتا (١) ٠

---

(١) احمد محمود صابون (د٠) : مرجع سابق ، صص ١٢ ــ ٤٢ ٠

الفصل الخامس

دراسة عامة عن الأحوال الاقتصادية في مصر

تمهيـــــد :

تناولنا في الأقسام الثلاثة السابقة عددا من الموضـــوعات الهامة والحيوية ، والتي تتصل اتصالا وثيقا بالموضـــوع الذي سنتناوله في هذا القسم ، وهي دراسة الأحوال الاقتصادية في مصر في عصور ما قبل التاريخ ، وهي دراسة ليست بالسهولة بمكان وقد كانت أبرز موضوعات الأقسام الثلاثة هي على وجه الترتيب :

١ ـ نشأت الحضارات القديمة بالمنطقة ٠

٢ ـ عناصر ومؤثرات القوة الذاتية لمصر ٠

٣ ـ دراسة عن تاريخ بدء الحياة في مصر ٠

والمحقق لعناوين هذه الأقســام يرى أنهــا المقدمة الطبيعية لدراسة الأحوال الاقتصادية في مصر خـــلال تلك الفترة ، فكما نعلم جميعا أن هذه الحضارات المتعددة لم تنشأ من فراغ بل قامت هذه الحضارات على أسس أساسها أو أبرزها عامل اقتصادي بحت ،

فاذا لم يتوافر هذا العامل الاقتصادى لتلك الحضارة أو غيرها ، فليس هناك حضارة • والأساس الذى نتحدث عنه هنـــا توافر العناصر البيئية الرئيسية لنشأة الحياة ، وهى مصادر المياه ، التربة الخصبة ، المناخ الملائم • وهى عناصر حيوية لنشوء عملية الاستقرار• لذلك جاء تناولنا أو كان المحور الرئيسى لحديثنا خلال تلك الأقسام هو العامل الاقتصادى ، وقد أوضحنا فى جلاء مدى ما توفر لتلك الحضارات من عناصر البيئة الرئيسية التى أتاحت لها فرصة النشوء والتطور •

أما بالنسبة لمصر فكان لدراســـتنا لعناصر ومؤثرات القوة الذاتية هى الركيزة الأساسية التى سوف تبنى عليها تناولنا للأحوال الاقتصادية فى مصر ، وقد تضمنت هذه العناصر •

دراســـة :

أولا : العوامل أو العناصر الطبيعية :

١ ـ البيئة الجغرافيـــة •

٢ ـ الموقـــع الجغـــرافى •

٣ ـ الموقـــع الفلكى •

٤ ـ الموقـــع البحـــرى •

٥ ـ الموقع بالنسبة للدول المجاورة •

٦ ـ الشكل العام للحجم والمساحة •

٧ ـ الســـطح •

٨ ـ طبيعة التـــربة •

٩ ـ المنـــــاخ ٠

١٠ـ تأثير المناخ على نواحى النشاط فى مصر ٠

ثانيا : الموارد الطبيعية وتشمل :

١ ـ الموارد المعدنيـــة ٠

٢ ـ الموارد الزراعيـــة ٠

٣ ـ الموارد الغابيـــة ٠

٤ ـ الموارد المائيـــة ٠

ثالثا : الثروة البشرية :

ومن خلال هذا التناول علمنا جملة وتفصيلا مدى ما تتمتع به مصر من امكانيات طبيعية وبشرية توفر لهـــا الأسس العلمية السليمة لقيام حضارة من أعظم الحضارات التى حفل بها تاريخ العالم القديم ، وقد تم معالجة هذا الموضوع من خلال تاريخ بدء الحياة فى مصر بالقسم الرابع ٠

وقد كان كل ذلك تمهيدا للحديث عن الاقتصاد المصرى فى تلك الحقبة السحيقة من التاريخ ، والمشتغلون بالتاريـخ يعلمون تمام العلم أهمية دراسة الاقتصاد لدولة ما ، أو لفترة ما قبل تناول أى نواحى أخرى أو دراســـة الجوانب السياســـية والاجتماعية والدينية والثقافية ، فلابد أن تتقدم دراسة تلك الجوانب دراسة اقتصادية بحتة ، لأن الاقتصاد هو حجر الزاوية فى أية دراســـة تاريخية مهما كبرت أو صغرت ، لسبب واضح وهو أنه عنصر مؤثرو فعال فى جميع الاتجاهات فاذا كانت الحالة الاقتصادية لأية دولة

أو حضارة منعشة وقوية ، فان ذلك سوف يؤثر بالايجاب على النواحى السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية ، وأما اذا كانت تلك الحالة الاقتصادية متدهورة فانها سوف تؤثر بالسلب فى جميع الاتجاهات السابقة ، لذلك ينبغى التأكيد على أن دراسة الاقتصاد هى المرتكز الأساسى فى أية دراسه أو أى تناول تاريخى وهو ما تؤكده لنا دراستنا للأحوال الاقتصادية فى مصر قبل دراسة الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية والعسكرية ٠

وسوف نستعرض فى الصفحات التالية العناصر الأساسية فى بناء الحضارة المصرية من الناحية الاقتصادية ٠

وفى خلال الصفحات التالية سوف يتركز حديثنا عن مدى استثمار المصرى القديم ـ خلال تلك العصور السحيقة من التاريخ ـ لتلك الموارد الضخمة التى توافرت للبيئة المصرية فى بناء حياة اقتصادية قوية له ولأسرته ولوطنه الذى يحيى تحت سمائه ٠

وقد علمنا من خلال تناولنا لتاريخ بدء الحياة فى مصر ، أن المصرى القديم بدأ حياته جامعا للنباتات صائدا للحيوانات وذلك خلال العصر الحجرى القديم ، حيث لم يكن يملك انسان هذا العصر من الوسائل الطبيعية ما يؤهله لأكثر من هذا العمل ، وقد شجعته البيئة المحيطة به على القيام بذلك ٠ فقد كانت صحارى مصر غزيرة الأمطار ، غنية بالأنواع المختلفة من النباتات والأشجار والأحراش والغابات ، والتى كانت المأوى الطبيعى للعديد من الحيوانات المتوحشة والمستأنسة ٠

ولكن خلال العصر الحجرى الحديث عندما بدأت هذه البيئة المحيطة فى التغير من الناحية المناخية ، فقد أخذ مناخ البلاد فى

الجفاف وندرت الأمطار ، وصعبت الحيـــاة ، فزحف الناس نحو وادى النيــل ، يلتمسون بجانب مياهه الطعام والماوى والحماية ، هنا بدأ الانسان المصرى اكتشاف الزراعة وحيـــاة الاستقرار ، فكانت الزراعة هى الحرفة الأولى أو الركيزة الأساسية التى قامت عليها الحياة الاقتصادية في مصر ، وبالتالى الحضارة المصرية ٠

أولا : الزراعـــة :

لا شك أن الأرض والفلاح هما عصب الحيـــاة في مصر عبر العصور ، فتلك الأرض الخصبة التى وهبها الله لمصر هى التى شكلت حياة أهلهـا وأوجه نشاطهم ٠ فكانت الفلاحة من أهم المهن التى مارسها الشعب المصرى فى عصوره المختلفة وحتى الآن (١) ٠ تمتد سبعة آلاف سنة وأكثر ، والزراعة هى الصفة المميزة لحضارتهم العريقة ، والحقيقة أن للانســـان المصرى دور كبير فى قيام تلك الحضارة الزراعية في وادى النيل ودلتاه لا يقل شأنا عن دور النهر أو المناخ أو العوامل الطبيعية الأخرى (٢) ٠ فى بناء الحضـــارة المصرية القديمـــة ٠

ولقد كان النيل المنخفض فى العصـور القديمة يعنى مجاعة بالنسبة لسكان البلاد المتكاثرين ، لذلك مارس القدماء لونا من ألوان التحكم فى المياه وذلك عن طريق رفع ضفتى النهر الى حد يحصر أعلى الفيضان ، كما كانت السدود تقطع فى الوقت المناسب ، ومع ذلك فحتى وقت قريب كان من الطبيعى أن تشاهد وادى النيل

---

(١) زبيدة عطا (د٠) : الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩١ ، ص ٦ ٠

(٢) سمير عبد الباسط وآخرون : تاريخ مصر الحضارى ، القاهرة ، دار المنار للنشر ، ١٩٦١ ، ص ٧ ٠

كله يتحول الى بحيرة واسعة تبرز فيها أحراش النخيل والقرى كالجزر فى وسط الماء ، ولا يربط بعضها بعضا سوى طرق ترتفع فوق مستوى ماء الفيضان ٠

وتشغل مصر مستطيلا ضخما من الأرض الزراعية التى تضم سكانها ، وأما بقية المساحة فهى صحراء يستمر امتدادها من ناحية الغرب دون انقطاع حتى المحيط الأطلسى ٠ أما الدلتا فلا يمكن أن يزرع أكثر من نصفها وتشغل النصف الآخر بحيرات ضحلة ومستنقعات وأراضى منخفضة مالحة لم تستصلح بعد ٠ ويشير هيرودوت الى أنه كان للنيل سبعة فروع اختزلت الآن الى فرعين يصب الغربى منها عند رشيد ـ وأما الآخر الأطول فهو الشرقى ويصب عند دمياط ، ومع ذلك فالقنوات تمتد فى كل مكان ٠ ومن بين الـ ٧٥٠ ميلا من مجرى النهر شمال أسوان حتى مصب رشيد نجد أنه ليس هناك أقل من ٦٠٠ ميل منها تخص الوادى ، ومع ذلك فان المساحة المزروعة منها تماثل تقريبا المساحة المزروعة فى الدلتا ٠ وذلك لأن عرض الوادى ـ لا يزيد فى أى مكان عن ثلاثة عشر ميلا ٠

كانت مصر بعزلتها فى اطار من صحروات لا تحد ، تعتمد فى معاشها فى أغلب الأمر على مواردها الذاتية ٠ وكانت الزراعة الموسمية حرفة السواد الأعظم من الشعب رغم أن الفيضان خلال شهور أخريات الصيف كان عائقا مؤقتا دون ذلك مما حول نشاط العاملين الى عملية البناءة ، ولقد كان طمى النيل الكثير سببا لخصب شديد ، ولكن الافادة منه لم تكن تتم الا عن طريق الكد الذى تلهبه الحماسة فلا يفتر ، ويبدأ الحرث والبذر بمجرد انخفاض المياه كعملية تتم فى وقت واحد ، أما بالنسبة للحرث فان الآداه البدائية التى اكتشفها المصرى القديم وهى الفأس هى التى كانت تستخدم فى عملية الحرث ، كما استخدم الشادوف كأحد أدوات

الزراعة ، ولكنه لم يستخدم على نطاق واسع ، حتى أنه قلما يشاهد مرسوما على نقوش الآثار الفرعونية .

أما موسم الحصاد فكان ينتقل بالمصريين الى نشاط متجدد . وهناك العديد من الصور التى تمثل حصاد القمح وضرب الكتان ثم حمل المحاصيل على ظهور الحمير الى سـاحة الدرس حيث توطأ بواسطة النيران وأخيرا بعد التذرية التى تلعب فيها المرأة دورا كبيرا يتم النقل برا أو نهرا الى الصوامع المقببة المبنية من اللبن حيث تخزن لحين الحاجة اليها . وكانت محصولات الصيف تتطلب جهدا شاقا اذا ما انخفضت مياه النهر أكثر من ذى قبل ، عكس محصولات فصل الشتاء التى تجد الماء أمامها يسيرا لمواكبة زراعتها مع موسم الفيضان (١) .

ولقد عانى عالم الفلاحين خلال تلك العصور تناقضا غريبا ، فهو برغم أهميته بالنسبة للاقتصاد المصرى ، الا أنه ظل هامشيا فى اقتصاد يعتمد أساسا على الزراعة وتجسد مشاهد المقابر سلسلة طويلة من مناظر الفلاحة والحصاد وتربية الماشية وتتابع مشاهد الحقول ، ففى أحدها نرى الرجال يدفعون المحـراث الذى تسحبه بقرتان . وفى مشهد آخر يبذر الفلاحون البذور فتدوسها الحمير كى تخترق التربة وتدفن فيها فتتعامد عليها قنوات الرى لتشكيل شبكة منتظمة ، ويقوم الفلاحون بريها بعناية فائقة . وفى البساتين تمتد صفوف النخيل وصفوف أشجار الفاكهة . ويتسلق الكروم العرائش . وترسم المحاصيل الصيفية لوحة متناغمة ذات تنوعيات لاحصر لها ويتم جمع الغلال والحبوب والخضروات والفواكه فى أكوام ، أو توضع مباشرة فى الأقفاص ويدرس الفلاحون الحبوب ،

---

(١) سير الن جاردنر : مرجع سابق ، ص ص ٤٤ ، ٤٧ ـ ٤٨ .

وتتجه الحمير متنقلة بأحمالها الى مخازن الغلال وعند بوابات مساحات المزارع ، أو فوق أسطح مخازن الغلال • ينتظر الكيالون وصول المحاصيل ، فيكيلونها قبل تخزينها • ان النماذج التى انتشرت فى عصر الانتقال الأول شاع فيها تصوير حظائر الحيوان • وقد وصلت بعض المشاهد التى يتجسد فى الضرب المبرح الذى كان يتلقاه الفلاحون عند تحديد قيمة الضريبة السنوية التى تتغير حسب مقدار المحاصيل ، فيتولى جباة الضرائب تحصيلها عندما يحين موعدها •

ومن خلال هذه المشاهد أميط اللثام عن أنشطة زراعية متنوعة وحرف بسيطة متعددة ـ ويقدم الأدب المصرى صورة مبسطة عن حياة الفلاح تكتفى بالخطوط العامة • فالمشاهد الريفية التى تصورها احدى القصص لا تختلف عن أمثالها فى أى مكان أو زمان

« •• يحكى أنه كان يعيش فى سالف الزمان أخوان شقيقان الأكبر يدعى « آنبو » أما الأصغر فيدعى « باتا » ، وكان آنبو صاحب دار متزوجا ، كما كان فى منزلة الأب بالنسبة لأخيه الصغير الذى كان يقيم معه تحت سقف واحد • كان « باتا » يحيك ثياب أخيه ويسوق ماشيته الى الحقول والمراعى ، ويحرث الأرض • ويجمع المحصول ، ويقوم بمختلف أعمال الحقل المطلوبة منه ، وكان الأخ الأصغر قوى البنية دون شك وقل أن يوجد مثيله فى أرجاء البلاد ، وكأنه يستمد قوته من قوة الرب •

« ومرت الأيام ، وتعاقبت ، وكان الأخ الأصغر يسوق الماشية كعادته كل يوم ، ثم يعود فى المساء حاملا مختلف المحاصيل الحقلية والخشب وبشائر ثمار الأرض ، فيقدمها لأخيه الأكبر الجالس بجوار زوجته ، ثم يأكل ويشرب وينطلق الى حظيرة المواشى (حيث ينام) ومع بزوغ خباء نهار جديد ، يعد الطعام ويقدمه

لأخيه ، الذى يعطيه ما يكفيه من خبز ، ثم ينصرف الى الحقـــل ويسوق أمامه الأبقار لترعى فى الحقل ·· ولما حل موسم الحرث خاطب الأخ الأكبر أخاه الأصغر قائلا ، « هلم أعد الثيران للحرث . فقد انحسرت المياه عن الأرض التى صارت صالحة للحرث ، ولا تنس احضار البذور ، فغدا نبدأ الحرث فى همة ونشاط » (١) ·

هذه القصة تعطينا الخطوط العامة لحياة الفلاح المصرى منذ أقدم العصور ، والتى يتضح منها الآتى :

١ ــ اهتمام الفلاح المصرى بحـــرث أرضـــه فى التوقيتات المناسبة للفيضان ·

٢ ــ اهتمام الفلاح المصرى ببذر بذور المحاصيل كل فى مواعيدها والاستعانة بالماشية فى هذه العملية ·

٣ ــ اهتمام الفلاح المصرى بحصاد محاصيله فى مواعيدها وتخزينها فى مخازن خاصة بذلك ·

٤ ــ الاهتمام برعاية ماشية الحقل والتى تساعده فى عملية الاستزراع من أبقار وثيران وتوفير الأعلاف اللازمة لها ·

٥ ــ روح التعاون التى كانت تســود العلاقات الأسرية فى ريف مصر بين الأخ وأخيه لانجاز الأعمال المطلوبة فى الحقل ·

٦ ــ اهتمام المصريين القدماء بتصوير أنشطتهم الزراعية على آثارهم وفى أساطيرهم ·

---

(١) دومينيك فالبيل : مرجع سابق ، صص ٦٨ ــ ٦٩ ، ٧١ ــ ٧٢ ·

ـ أما عن الملكيات الزراعية فلم يصلنا من هذا العهد ما يفيد معرفة الناس لحدود الملكيات التي يمتلكونها ، وبأى مقياس كانت تقاس الأرض • سواء كانت هذه الملكيات صغيرة أم كبيرة ، ولكن في العهود الفرعونية التالية علمنا أن المقياس الذى قيست به الأرض وحدة تسمى « أرورا » وهذه الوحدة كانت تساوى مقدار ١٥ جرام من الفضة ، والحقيقة أن قيمة الأرض كانت ترتبط بقيمة ما تدره من محصول • ونحن نفتقد الى المعلومات والأرقام التي توضح لنا هذه الحقائق •

ـ كان الفلاح المصرى يعانى من المشقة والتعب ما كان بوسعه أن يحتمل ، وبرغم ذلك فالتاريخ كله خلو من تذمر الفلاح فى مصر من هذه المشقة أو هذا العناء ولم يكن الفلاح المصرى كما تصوره الكثير من المراجع الأجنبية عبدا فى وطنـــه ، بل كان عبد وظيفته وبالتالى لسيده ولأرض سيده ، برغم أنه كان بمقدوره أن يمتلك أرضا وأملاكا ، كان بمقدوره امتلاك الماشية والحمير ، برغـم خلو حياته من مباهج الحياة فى مجتمع تنافسى ، فقد كانت فى الوقت نفسه خالية من الهموم والخطر ، كان يشغل مكانه المناسب فى العالم • وكان يعرف ما يريده من سيده والآلهة ، فاذا كان على الاله العظيم أوزوريس أن يخرج كل سنة من قبره فى الأرض على هيئة القمح فيعطى الحياة ، فهذا يتوقف على عمل الفلاح كما يتوقف على قيام الكهنة بالطقوس • كان للفلاح هيبته اللائقة به •

وما تعاقب الفصول الا المنظر التمثيلى لحياة أوزوريس وموته ، ولم يكن التقويم سجلا سهلا لمرور الأيـــام ، ولكنـــه بطاقة تقدم استشهاد ذلك الاله ثم بعثه • ولقد اعتاد الفلاحون أن يتلوا الكثير من التعاويز السحرية أثناء فترة الزراعة وتقام الاحتفالات الدينية ابتهاجا بهذا ، وتصنع تماثيل صغيرة لأوزوريس من الطين المخلوط

بالبذور ثم تبلل جيدا بالماء ويلاحظونها باستمرار حتى تظهر فيها امارات النمو • فهل يتنازل ذلك الاله في هذه السنة ليبعث نفسه من جديد •

والحقيقة أن الزراعة لم تكن تشغل كل وقت الفلاح ، فهناك أعمال كثيرة في حديقة سيده وحديقته هو نفسه ، يلزم زراعة الكروم والخضروات وتربية الماشية ، وفوق كل شيء لايستطيع أن ينقطع عن العمل في شق الترع الجديدة وتطهير القنوات القديمة • فكانت المياه هي المشكلة الدائمة في مصر فمن طلوع الفجر حتى الظلام ، يرى الفلاحون وهم يغمسون دلائهم في الآبار ليملئوا بالماء تلك الأحواض المربعة في الحقول والحدائق ، ويستمر العمل في ري الأرض الظمآى دون انقطاع •

وعلى العموم ، يبدو أن الفلاح كان شخصا سعيدا قانعا بما قسم الله له نشيطا ، لين العود ، أحرقت الشمس بشرته ولفحتها ، كانت هناك أيام عصيبة لم يكن أوزوريس وهابي ربا النيل كريمين باستمرار ، وكانت المحاصيل أحيانا لاتنجح ، ولكنه برغم ذلك كان قانعا برزقه حامدا شاكرا لالهته (١) •

وقد علمته الزراعة الاستقرار ، ومن ثم بدأ يقيم القرى ويستأنس الحيوانات ويحفر قبورا لموتاه ، وهكذا سعى الفلاح المصري خلال العصر الحجري الحديث الى الترقي بحياته الى مستوى أفضل •

ولعل أهم المحصولات التي عرفها فلاح هذا العصر هي القمح والشعير والكتان ونبات البردي • وكلها محاصيل ضرورية ضرورة للحياة •

---

(١) أمين سلامة : الحياة اليومية عند قدماء المصريين ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ ، ص ص ١٥١ ـ ١٥٦ •

لقد كان للعمل البـــارع الذى قام به الفلاحـون المصريون بتحويل القوة التدميرية لمياه الفيضان الى قوة انتاجية شيئا مثيرا ، جعلهم يتهياؤون على نمط أو نظام معين للحياة ، ونتيجة لهذا نشأت بالضرورة منشآت وسلطات سياسية لتدير هذه المشروعات الواسعة النطاق والتى تهدف الى صالح الجميع وتشرف على اســـتمرارها بالنجاح والنمو المطلوب للجماعة عليها ، لهذا كان من المنطقى آن تتوحد العائلات الصغيرة فى شكل قرية ، وأن تتوحد هذه القرى المتنامية فى شكل مقاطعات أوسع نطاقا ، ثم تتوحد هذه المقاطعات جميعا فى شكل دولة تحكمها حكومة واحدة وهكذا استطاع الفلاحون المصريون الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ أن يستثمروا فيضان النيل للصالح العام ، وأن يطوروا الزراعة ويجعلوها أكثر ازدهارا ، وأن ينشئوا نظاما سياسيا يدير شـــئونهم ويتيح لهم حياة آمنة مطمئنة متحررة من الخطر وأكثر رفاهية واستقرارا (١) ٠

وهكذا كانت الزراعة هى الركن الركين فى الاقتصاد المصرى ٠

ثانيا : الرعى :

جاءت حرفة الرعى كحرفة ثانوية بعد الزراعة فى الأهمية ، ولكنها من ناحية السبق التاريخى مرحلة سابقة على الزراعة ، ولكن لم يكن لها من التأثير الاقتصادى مثل الزراعة ، لأن المصرى القديم بمجرد اكتشافه للزراعة أولاها جـل اهتمامه ورعايتـه ، ولم يهتم بالرعى الا لأن الحيوانات التى يرعاها كانت تساعده فى عمله فى الحقل مثل الثيران والماعز والأبقـــار وغيرها ٠ وقد وجد المصرى القديم فى هذه المهنة متنفســا له ليساعده على الحياة وكمصـدر ثانوى للرزق ٠

---

(١) سيريل الدريد : مرجع سابق ، ص ٤٠ ٠

وتعود بنا قصة الرعي في مصر الى أنه كان من نتائج انحسار الجليد في العصر الحجرى القديم ، ووقف هبوب الرياح المطيرة ، وحدوث جفاف تدريجي في مناطق شرق البحر المتوسط . كما أدى أيضا الى تقلص مساحات الأراضي العشبية في مناطق شمال افريقيا ، وتحولها الى بقـــاع منفصلة متناثرة تملأها الأعشاب والشجيرات الصغيرة التى تنمو حول مجارى الميـــاه الشحيحة ، أو في مناطق الواحات المنفصلة .

وقد استمرت ظاهرة هذا الجفاف التدريجي فيما بعـــد في العصور التاريخية اللاحقة . وقد ساعد الانسان نفسه على استمرار حدوث هذه الظاهرة ، وذلك بتكثيفه لعمليات رعى القطعان من الماعز ثم من الجمال فيما بعد ، وذلك بالرغم من ضيق وندرة المراعى التى استمرت في التقلص التدريجي حتى زحف هذا الجفاف الى أن وصل الى سواحل البحر المتوسط .

وقد أدى هذا التغيير في الأحوال المناخية الى تغيير تدريجى في العادات المعيشية لجماعات الرعاه القدماء التى كانت تتجول في تلك المناطق ، فتحولت هذه الجماعات من الرعى الى صيد الحيوانات والطيور التى تعيش في مناطق الغابات وأقاليم السافانا .

وقد تركـت هذه الجمـــاعات آثـار كثيرة تتمثل في الأدوات المصنوعة من حجر الصوان والمستخدمة في صيد الحيوانات ، والتى تحمل مميزات الأدوات التى ترجع الى العصر الحجرى القديم . وقد عثر على الكثير من تلك الأدوات في مناطق هى الآن صحراء قاحلة ، كما عثر على الكثير من الرسوم المحفورة على الصـخر والتى تمثل بعضا من مناظر عمليات صيد الحيوانات التى كانـوا يطاردونهـا ويصطادونها لاستخدامها في الطعام كالظباء والأفيال والبقر الوحشى

وغيرها من الحيوانات ، وقد أدى السعي الحقيقي الذى مارسه كل من الانسان والحيوان بحثا عن المصادر الشحيحة للمياه الى حدوث تقارب اجبارى بين الاثنين ، الى أن وصل هذا التقارب الى أعلى كثافته عند حواف وشطآن المستنقعات والمناطق الطمية بوادى نهر النيل • وفي ذلك الوقت ، ظهرت ضرورة اتخاذ الخطوات الأولى فى عملية استئناس بعض الحيوانات كالخنازير والكلاب وفصائل الحيوانات ذات القرون الطويلة وهذه العملية الطبيعية قد أدت الى قدوم الكثير من جماعات الرعاة من مناطق واسعة وتجمعها حول الوادى الضيق لنهر النيل • لذلك فقد وجدت هذه الجماعات التى استقرت وبدأت استيطانها ان البيئة من حولها عبارة عن مستنقعات وبرك واسعة تتركها مياه الفيضان السنوى لنهر النيل ، وأدغال كثيفة من النباتات ذات السيقان القصبية ونبات البردى وغير ذلك من النباتات ، والتى تخفى خلالها أنواعا كثيرة من الطيور المائية والأسماك النهرية وأفراس النهر ، ومخلوقات أخرى متوحشة كالتماسيح ، أما الأفيال والأسود والحمير والوعول والتيوس الجبلية والأبقار الوحشية والظباء • والثيران الوحشية وغير ذلك من الحيوانات الصغيرة والأقل خطرا ، فقد كانت تعيش أو تتردد على الأودية الكثيرة التى تحيط بمجرى النهر ، وكانت صورة الحياة النباتية والحيوانية تماثل صور الحياة فى مناطق المروج المزدهرة الخضروات والشجيرات والأشجار الواطئة •

والملاحظ أن بعض مظاهر الحياة تظهر سريعا فى بعض تلك الوديان الصحراوية الجافة القاحلة فى أعقاب هبوب بعض العواصف الممطرة ، حيث تظهر أنواع من النباتات السريعة الزوال وما يصاحبها من حشرات وحيوانات البيئة الصحراوية لذلك فأغلب سكان هذه المناطق لم يكونوا مضطرين لتغيير نمط حياتهم من رعاة وصيادين على وجه العجلة أو يغيروا طريقة حصولهم على الطعام

تغيرا جذريا بشكل مفاجيء ، حيث كانوا يمارســـون صيد الطيور المائية والأسماك من المستنقعات والبرك ، وصيد الحيوانات التى تجوب هذه الوديان أو تخومها ، بالاضافة الى استغلال النباتات التى تنمو فى تلك المستنقعات كالبردى ، ذلك فضلا عن استزراع بعض المحاصيل والشعير ونوع من القمح يسمى الحندروس ، حيث كانوا يبذرون التقاوى بطريقة عشوائية وبدائية على الأرض ، فى أعقاب سقوط الأمطار ، وفى انتظار نمو ما زرعوه ونضـوج المحصول فى المنطقة التى استقرت بها ، كانت تلك الجماعات الرعوية تمارس حرفتها فى رعى بعض الحيوانات التى كانت تساعدها فى الزراعة ، كما أنها كانت تستغل هذا الوقت فى بعض عمليات الصيد (١) ٠

وخلال العصر الحجرى الحديث ومع تقدم الزراعة مارس الرعاة الأصليون مهنتهم فى المناطق التى انتشرت بها البرك والمستنقعات فى شمال البلاد ، وذلك لتربية الأبقار التى يقتادها حارســنها ، فيعبر بها قنوات الصرف التى تعج بالأســـماك ، وعلى مقربة من الشاطيء ، يحزم الرجال البوص ويربوطونه ثم يتولى آخرون رفعه على ظهورهم ، كما انتشر أيضا صيد العصافير بواسطة الشباك ، فى المناطق الرطبة ، لننتقل بعد ذلك الى المزارع بغرض ترتيبها ، وكان الرعاة فى الجنوب على حواف الوادى الصحراوية يراقبـون قطعان الماعز والضآن ٠ وفى حظائر الطيور ينثر العاملون الشبان حفنات من الحبوب وتجمع الطيور فى أقفاص صغيرة ، أما الطيور ذات السيقان الطويلة ، فيجرى تربيتها فى مساحات مسورة ، كما يعمل النحال بجوار مناحله ، وقد حرص الفنان المصرى القديم على تصوير الحيوانات والبرك التى تعج بالأسماك وبحيراتها تغطيها أسراب الطيرو كدليل على الامكانيات الاقتصـــادية التى توافرت للبيئة

---

(١) سيريل الدريد : مرجع سابق ، صص ٢٣ ـ ٢٧ ٠

المصرية فى تلك العصور ، وهو دليل على مدى الوعى الذى كان عليه فنانوا هذا العصر ٠

ولولا معرفة الانسان لرعى الماشـــية واستئناس الحيوانات لانقرضت ، فكانت هذه المعرفة انقاذا للثروة الحيوانية على الاقل على طول وادى النيل ، فى نفس الوقت الذى استفاد منها الانسان المصرى القديم فى استخدامها فى معاونته فى الزراعة ٠ واستغلاله للحومها وأليافها وجلودها وأصوافها وشعرها كما استطاع المصرى القديم أن يصنع الكثير من أدواته وأسلحته ومنتجاته الغنيـــة من عظامها ، وقرونها وأنيابها ، كما استفاد أيضا من مخلفاتها كسماد لأرضه ، وبذلك أفاد الاقتصـــاد الوطنى ولكن بطريقـــة غـــير مباشرة) (١) ٠

وتعد الماعز والأغنام والبقر والخنازير والثيران بجانب الحمير والكلاب من أهم أنواع الحيوانات التى توافرت فى البيئة المصرية ، الا أنه بالرغم من ذلك لا ينبغى أن تضع الرعى كمصـــدر رئيسى من مصادر الثروة فى مصر أو احدى الدعائم الاقتصادية لأن مصر ٠

ثالثا : الصناعة :

تعتبر الصناعة احـــدى الركيزتين الأساسيتين فى البنـــاء الحضارى لأى حضارة بشرية ، كذلك فى أى بناء اقتصادى متكامل بعد الزراعة ، ولكن بالرجوع الى ما قبل التاريخ البشرى ، لم يكن للصناعة الدور البارز فى البناء الحضارى للمجتمع البشرى كما هى عليه الآن ، والسبب واضح ومنطقى وهو اختلاف الظروف البيئية ثم بدائية المجتمعات البشرية فى تلك الحقب السحيقة من التاريخ ،

---

(١) دومنيك فالبيل : مرجع سابق ، صص ٦٨ ـ ٦٩ ـ ١١٣ ٠

كما أن انسان هذه العصور لم يكن قد تمكن بعد من اخضاع البيئة المحيطة به ، أو اكتشاف الموارد المتاحة فى هذه البيئة والتى يمكنه استخدامها الاستخدامات المناسبة فيما يتصل بحياته ، لذلك لم يكن أمام هذا الانسان البدائى سوى الامكانيات المتوفرة فى البيئة المحيطة به بوفرة من أشجار وأحجار وغير ذلك .

وقد تناولنا فى أقسام سابقة كيف أن مصر كانت مؤهلة بحكم العوامل الجغرافية التى توافرت لهـا من أن تنشأ بها حضارة عظيمة وهى :

١ ـ نهـر النيـل .

٢ ـ الموقـع .

٣ ـ الحـدود الطبيعية .

٤ ـ المنـاخ .

٥ ـ المـوارد الطبيعيـة .

وقد أطلق العلماء على تلك الفترة الطويلة اسم عصور ما قبل التاريخ وتشمل كما عرفنا من قبل .

١ ـ العصر الحجرى القديم .

٢ ـ العصر الحجرى الحديث .

٣ ـ عصر المعـادن .

وخلال العصر الحجرى القديم كان الانسـان المصرى مازال ـ يقطن الصحارى والهضاب التى انتشرت فيها الأشجار والزروع لكثرة

الأمطار ، فعاش على جميع الثمار من تلك الأشجار المتنوعة والمتفرعة ثم على صيد الحيوانات وآكل لحومها والاستفادة من جلودها وعظامها في صنع ملابسه وبعض أدواته ، فعرف الانســـان المصرى طريق الصناعة وكيفية استغلال تلك الموارد البسيطة في صناعة ما يحتاجه ٠

ولما كان يحترف الصيد فقد اضطر الى عمل أدوات ـ تساعده على صيد وقنص الحيوان ، فاتخذ من الصوان قطعا مخروطيـــة الشكل مدببة وأخرى مسننة كالمبرد أو ذات حد قاطع كالسكين أو امتازت تلك الأدوات بكبر حجمها وخشونة ملمسها ، كذلك صنع انسان هذا العصر الفأس الحجرية ثم المناشير والنصال ، وفي أواخر العصر الحجرى القديم عرفت النار التى ساعدته على تطوير أسلوب حياته ، ومهدت لدخوله في دور حضارى جديد ٠

وخلال العصر الحجرى الحديث ما لبثت الحالة المناخية أن تغيرت ، فاستأنس الحيوان بدلا من صـيده ، واشتغل بالزراعة لانتاج القوت بدلا من جمعه ، وبنى لسكناه الأكواخ من الغـاب وغصون الأشجار والطين بعد أن كان يعيش في الكهوف ٠

وتبعا لذلك تطورت صـــناعة الأدوات التى استخدمها ، فأصبحت مصقولة ومتينة ، وكانت خشنة بدائية ، ومنها أسنة الحراب والسهام والفؤوس القاطعة والمدى والمناشـــير والابـر والمكاشط اللازمة لصناعة الجلود ٠

وظهر نوع جديد من المصنوعات في هذا العصر ٠ هى صناعة الأوانى الفخارية الجميلة لحفظ الطعـــام والشراب كالجــرار والأباريق والأكواب والأطبـــاق ، وكانت الطينة تشكل باليد لا بعجلة ، وبعض هذه الأوانى من الفخار الأسود المزين بزخارف هندسية بيضاء ، والبعض الآخر أحمر ذات حافة سوداء ٠

أما الملبس فقد صنع من الكتان ، أما الحلى البسيطة فقد صنعت من عظام الحيوان أو الفخار ، كذلك انسان ذلك العصر على الكثير من الصناعات اليدوية فقام بصنع الحصر والسلال وغزل ونسيج الكتان .

كما قام انسان هذا العصر ببناء البيوت ذات الأشكال المختلفة من اعداد النبات والطمى ثم ما لبث أن استخدم الطوب النيىء ، كما حفر القبر لدفن الموتى وزودها بما توحى اليه عقيدته فى الحياة والبعث .

وبانتقال الانسان المصرى الى عصر المعادن ، عرف المصرى الكثير منها مثل الذهب والنحاس الذى عثر عليه بوفرة فى شبه جزيرة سيناء ، واستخدمه فى عمل المقصات والأزاميل والفؤوس والبلط ذات الحدين ويدل ما عثر عليه من هذه الآلات والأدوات على درجة كبيرة من التقدم الصناعى .

وبالرغم من استخدام النحاس بكثرة فى هذا العصر فقد صنع المصرى القديم بعض أدواته من الصوان كأسنة الرماح والمناجل ، كما صنع من هذه المعادن الكثير من الأوانى والحلى وأدوات الزينة .

أما الفخار فقد صنعت منه أوانى جميلة ذات أشكال وأحجام مختلفة امتازت بتعدد ألوانها وظهور صور الانسان والحيوان والنبات عليها .

وتطور بناء المساكن فأصبحت مستطيلة الشكل بعد أن كانت مستديرة وبنيت باللبن بدلا من الطين والبوص وفرشت بالحصر ،

وأتت بأسرة من الخشب وعليها وسادات القماش أو الجلد المحشو بالقش ، وظهرت فيها مواقد الطهى والتدفئة •

وبصفة عامة شهدت الصناعة فى هذا العصر تطورا عظيما تمثل فى الصناعات التى ذكرناها آنفا • ومنذ ذلك الوقت أخذت الصناعة المصرية تتطور من طور الى طور أرقى على مراحل التاريخ المتعاقبة (١) •

---

(١) زكى الرشيدى وآخرون : مرجع سابق ، صص ٤ ـ ١٠ •

الفصل السادس

دراسة عامة عن الأحوال السياسية والاجتماعية فى مصر

أولا : دراسة الأحوال السياسية :

تمهيد :

- ليس هناك أشق على المؤرخ من أن يتتبع الانبثاق التاريخى لحضارة ما ، خاصة ولأن هذا يخص بالضرورة عصورا كانت الوثائق المكتوبة خلالها معدومة أو بالغة الندرة ، والحقيقة ان تناول الأحوال السياسية فى مصر فى عصور ما قبل التاريخ شيئا بالغ الصعوبة ، فلم يصلنا من الآثار التى تخلفت عن تلك العصور ما ينبىء بأى شكل من أشكال نظم الحكم أو الادارة على أى مستوى من المستويات ، وكيف يمكن أن يصل الينا شىء عن تلك العصور التى ظل فيها المصرى القديم مجرد جامع للغذاء مما تهبه له الطبيعة من حبوب أو ثمار ، ان البواكير الأولى لتاريخ مصر فى عصور ما قبل التاريخ خالية تماما من أى علاقة بين حاكم ومحكوم أو بين سيد وعبد أو غير ذلك ، والأسباب عديدة لعدم وجود تلك الآثار أو الأدلة أو بالأحرى ليس لها وجود تماما .

ب- وتتلخص هذه الأسباب فى الآتى :

أولا : كان لقلة عدد السكان بالنسبة للمساحات الشاسعة التى كانوا ينتشرون فيها دليل مقنع لعدم وجود أى شكل من أشكال

الحكم والادارة وخاصة فى مرحلة الجمع والصيد والذى كان يعيش فيها الناس فرادى ٠

ثانيا : كانت ظاهرة الترحال بالنسبة للسكان القدامى لوادى النيل فى عصور ما قبل التاريخ ظاهرة لصيقة بحياتهم ، وتتفق مع مرحلة الجمع والصيد لهذا أيضا لم يظهر أي شكل من أشكال الحكم والادارة التى ترتبط بظاهرة الاستقرار ٠

ثالثا : السبب الثالث لعدم ظهور أي نوع من الادارة هو انشغال السكان هذا الوادى بالحصـــول على كفايتهم من الثمار المتساقطة أو صيد الحيوانات مما يجعلهم عازفين عن التفكير فى تنظيم العلاقات بينهم ٠ هذا ما كان من أمر العصر الحجرى القديم ٠

العصر الحجرى الحديث :

ـ والواقع ان مصر تجلت بحضاراتها بين دول العالم القديم ٠ منذ بدأ تاريخها كدولة متحدة قوية راسخة البناء وفيرة الموارد ، تسير على أساس ثابت من النظام وحسن الادارة ومع ذلك يجب أن ندرك أن نظام الحكم فى مصر لم ينشأ دفعة واحدة ، بل مر فى أدوارا مضت به تدريجيا من نظام محلي محدود الى نظام حكم ملكى شامل يسود كافة ارجاء البلاد ويضمها جميعا ، وقد وصل المصريون الى ذلك مع جهاد وصراع مستمر ، فقد أدركوا ان وحدة البلاد هى الطريق الى القوة والى الحضارة الشاملة ٠

ـ واذا أوغلنا فى القدم مما تمليه علينا الحيطة فى عصورنا التاريخية وراء تحديد نقطة البدء فى حياتنا المدنية وجدناها فى مواطن الجماعات المصرية الاولى التى أصبحت فيما بعد قرى صغيرة أو كور مصر كما هو فى الاصطلاح اليونانى أو العربى ٠ ويجب

علينا أن نتذكر دائما أن كل واحدة من هذه القرى كانت موطن جماعة من الناس تربطهم بعضهم الى بعض نوع من صلات النسب أو المصالح ، وانها بدأت واستمرت متحدة بعضها عن بعض ، عقيدة وموقعا ومصالح . وليس من اليسير على الباحث ان يقرر انحدار هذه الجماعات الأولى من سلالة بشرية واحدة للتقريب فيما بينهما .

- والثابت انها تعرضت من حيث تكوينها الجنسى لمؤثرات مختلفة . فالمواطن التى كانت تتاخم البوادى (الصحارى) أو التى تقع على خطوط المواصلات الكبرى أو قرب المناطق الجنوبية (الأفريقية) زاد اختلاط أهلها بعناصر بشرية من افريقية أو آسيوية أو غير ذلك . وفضلا عن ذلك كان لأنواع البيئات المصرية أثره فى ايجاد فروق كبيرة بين تلك الجماعات فالجماعات التى سكنت الدلتا غير التى سكنت صعيد مصر كذلك ما جاور البحيرات أو البحر أو الصحراء له أثره العميق بالاضافة الى اختلاف عناصر المناخ ، أو مزايا الموقع الجغرافى الحربية والتجارية وما الى ذلك .

- ومهما كان الأصل أو المنشأ أو الظروف فان تصنيف الكوز فى تكوين المجتمع المصرى أمر بالغ غاية الأهمية ، بل ان اتحاد مصر لم يبطل تأثيرها وآية ذلك التأثير ان انتقال الحكم من أسرة أو مجموعة من الأسرات الى مجموعة أخرى ان هو الا تأكيد متصل للاحتفاظ بنواحى عصبية محلية قوية تستند الى أساس من التقاليد والواقع . وان هذه العصبية المحلية تعمل اذا ما واتتها الظروف على ان يمتد نشاطها الى الوطن بأسره .

- وقد تم تكوين الوحدة المصرية أو المجتمع المصرى عن طريق الفتح ، والفتح هنا معناها لم يعد ان يكون حمل جماعة من الجماعات على أن تقبل ارتباطا ظهرت مزاياه لها ولغيرها . ولا شك فى أنه

بعد ان اتخذت الأقليـة المتحالفة خطوة الاستجابة لتحدى الجفاف ، بمغادرة المرتفعات الآخذة فى الجفاف والجدب ، والاستقرار فى مستنقعات الأحراش فى أسفل الوادى ، وتحويل تلك المستنقعات الى النسق الذى تألفه من حقول مزروعة تشقهـا مجارى الرى والصرف لم يكن أمامها مناص من وضع النهر كله تحت اشراف موحد مركز ، والصحيح أن تكون القوة هى التى استخدمت لبلوغ هذا الوضع • ولكن القوة كانت بالنسبة لعملية التوحيد والاتحاد كلها أقل الوسائل المستخدمة أهمية • وقد أمن المصريون بأن تكوين مصر على هذا النحو الذى تكونت به لأعظم من أن يكون أثرا من آثار عبقرية فردا أو طائفة ، بل هما أجل قدرا من أن يتما الا على أيدى الآلهة كما اعتقدوا (١) •

ـ ويذكر أحمد صادق سعد فى دراسة له حول مصر الفرعونية فيقول تفسيرا لظهور الدولة المركزية ... ان الانتقال من المجتمع القبلى البدائى الى النظام المدنى ـ أى الخضوع للدولة قد حدث فى مصر بفضـل التقدم التقنى وخاصـة تطور الزراعة واستئناس الحيوان • فعندما استقرت القبائل والعشائر فى مشتركات زراعية قام الزعماء المختارون اما لكبر السن أو لتوارثهم معلومات أسطورية أو دينية أو سحرية بأعمال الادارة والتنسيق مع المشتركات المجاورة أو التحالف معها لصد هجمات الرعاة ، أو التصادم معها حول توزيع الماء ، مع استمرارهم فى القيام بالوظائف الدينية وأعمال السحر ، وكان من الطبيعى ان يعطى لهم شىء من النفوذ هو بذرة سـلطة الدولة •

ومع تقدم أساليب العمل والانتاج أمكن لتلك الأقلية ان تصبح حاكمة ... وتحولت الامتيازات البسيطة التى كان أفراد هـذه

(١) محمد شفيق غربال (د•) : مرجع سابق صص ٣٥ ـ ٣٨ •

القيادات يتمتعون بها الى امتيازات فاصلة بينهم وبين المحكومين ..
ثم انتقل الحق الأعلى على الأرض من زعيم المشترك الفردي الى زعيم
الاقليم ثم الى الفرعون (١) .

– ويقول برستد « ومع مضى الزمن كان سكان الدلتا أسبق
فى الحضارة من سكان الصعيد ، وكان هذا السبق فى الدلتا
سببا فى تنظيم أهلها لأنفسهم وتعاونهم فيما بينهم ، وانتهى الأمر
بأن أصبحت لهم حكومة بعد أن مضى عليهم وقت غير قليل عندما
أحس السكان بحاجتهم الى زعيم ، لأن الناس عادة يحسون بضرورة
وجود من يتزعمهم عندما يحتاجونه ليعاونهم فى تنظيم الدفاع عن
أنفسهم اذا ما هاجمهم العدو . ولكن زعامة مثل هذا الزعيم المحارب
لم تضمن دائما حسن الادارة ، لأنه من الأفضل لمثل هذه الجماعة
أن تجد زعيما ليحاسب من عينهم ليهتموا بأمر جداول الرى والترع ،
ويرشدهم اذا احتاجوا الى ارشاد . فان فيضان النيل كان يملأ
الترع بالطمى ، وكان من الضرورى على سكان أى مجموعة من القرى
ان يتعاونوا فيما بينهم ويذهبوا لحفر الترع وتطهيرها فانهم يعلمون
انهم اذا أهملوا ذلك امتنع جريان الماء الى الحقول التى يعتمدون
عليها فى الحصول على الحبوب ولن يكون هناك محصول . أى أنه
لن يتيسر لهم الحصول على الخبز . وكان الاشراف على مثل هذا
العمل يحتاج الى زعيم ليس محاربا فحسب بل تتوافر فيه صفات
كثيرة ، وانتهى الأمر بأن شخصا ذكيا أصبح فى مكان الزعامة
بين كل مجموعة من قرى الدلتا . ومن الجائز ان واحدا من زعماء
مجموعات القرى فى الدلتا أصبح زعيما محليا وأصبح مشرفا على
أعمال الرى فى منطقة كبيرة . وكان الناس فى تلك المنطقة مجبرين
على أن يقدموا له فى كل موسم جزءا من الحبوب أو الحصاد الذى

---

(١) طاهر عبد الحكيم (د.) : مرجع سابق ، ص ص ٥٢ .

جمعوة من الحقول . واذا ما قصر أحدهم في ذلك قال الزعيم يأمر بمنع جريان المياه الى حقله ، بل وربما حدث أكثر من ذلك وهو ان بعض رجال الزعيم يذهبون الى هذا الممتنع لوضــع الأمور في نصابها . وهكذا بدأت أقدم مظاهر الضرائب وهي النواة في وجود الحكومة . ويكاد يكون من المحقق أن كثيرا من أمثال هذا الزعيم وطدوا سلطانهم في الدلتا الى أن تمكن واحد منهم فأخضع الزعماء الآخرين الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم وجعل الدلتا كلها مملكة واحدة وهو ما نطلق عليه مصر السفلى لأنها واقعة في آخر مجرى النيل .

ـ وحدث بعد ذلك ان قامت مملكة أخرى في الجزء الواقع جنوبي الدلتا وشملت النيل أى من قمة الدلتا حتى الشلال الأول وهو منطقة تمتد لأكثر من ٥٠٠ ميل ويطلق عليهــا اسم مصر العليا (١) . وقد لعبت مملكة الجنوب دورا بارزا في تاريخ مصر حين بدأت التجمعات السكانية الكبرى تسبيا تستقر على ضفاف نهر النيل ابتداءا من العصر الحجرى الحديث والذى توصل فيها الأنسان الى بناء القرى والاستقرار المادى والمعنوى ، وهي نتيجة مباشرة لمجهوداته وعاداته وتقاليده وســلوكه وتفكيره واستجابته وترتبط هذه التجمعات في نشأتها وتطورها بحياة صانعها الانسان ومدى تطور تجاربه المتوارثة والمحلية ولكن لم تلبث طبيعة الحياة والمصلحة المشتركة ان خطت بأهل الجنوب من حياة القرية الى حياة أوسع افقا وهي حياة الأقليم الذى تمثل في امارة صغيرة يحكمها أمير يقوم على رعاية شئونها وتدبير أمورها ، وكان لكل اقليم شعار من طير أو حيوان أو نبات أو غير ذلك ، يتخذ منه الناس رمزا يدرأ عنهم الشر ويجلب لهم الخير .

---

(٢) جيمس هنرى برستد : مرجع سابق ، ص ٦٧ ـ ٦٨ .

ـ لقد تطور التنظيم السياسى فى عصور ما قبل الأسرات حيث وصل الى تواجد الأقاليم المستقلة بمعبوداتها وعواصمها وحكامها وآلهتها ونقوشها الخاصة بها • ولقد حاول المؤرخون اكمال المراحل المحتملة لتطور الحياة الاجتماعية والسياسية المحتملة فى عصور ما قبل الأسرات • وذلك بافتراض مراحل عدة ، أفضت فى نهاية أمرها الى توحيد مصر فى مملكة مستقوة واحدة • ومن ثم فعندما استعانوا فى تصوير هذه المراحل بما دلت عليه نقوش الصلايات والمقامع وما دلت عليه رموز الأقاليم المصرية وشعاراتها ، وما تضمنته القصص والأساطير الدينية والأدبية فى عصـــورها التاريخية ، وبما تضمنته متون الأهرام من تلميحات بعيدة وعقائد دينية وأسماء ، ثم ما جاءت به قوائم الملوك التى سجل كتبة العصور التاريخية منها تاريخ أوائل حكامهم القدماء بأسلوبهم الخاص وما دلت عليه الألقاب التقليدية التى توارثها الملوك والفراعنة المصريون منذ بداية عصورهم التاريخية ، وتأتى المراحل التالية فى شكل ممالك تضم العديد من الأقاليم فى كل من الوجهين البحرى والقبلى وكان من بينها مملكة الوجه القبلى التى يمكن تسميتها بمملكة نخن (١) •

ـ وهكذا تطورت الحياة السياسية فى وادى النيل على النحو الآتى : ـ

أولا : انتظام سكان الوادى فى جماعات •

ثانيا : انتظام هذه الجماعات فى قرى •

ثالثا : اتحاد هذه القرى فى شكل اقليم •

رابعا : اتحاد هذه الأقاليم فى شكل مملكتى (الشمال والجنوب) •

---

(١) احمد محمود صابون : مرجع سابق ، ص ص ٣٣ ـ ٣٤ •

ظهور مملكتي الشمال والجنوب :

ـ وهكذا ظهرت مملكة في شمال الوادي وتسمت باسم مملكة الشمال واتخذت لنفسها عاصمة هي بوتو (مكان قرية تل الفراعنة الحالية) ٠

في أقصى شمال غرب الدلتا ، بينما اتخذت مملكة الجنوب عاصمة لها هي مدينة نخن أو نخب (وهي مكان بلدة الكاب الحالية في أقصى جنوب مصر ٠ وكان لعاصمة الوجه البحري معبودة صورت في هيئة أنثى النسر ، وقد اتخذت لكتا المملكتين شعارا من الزهر فالشمالية زهرة البردي وللجنوبية زهرة اللوتس ، كما زين ملك الوجه البحري رأسه بتاج أحمر وحمل ملك الوجه القبلي تاجا أبيض اللون ٠ وقد مرت البلاد في عهد هاتين المملكتين بسلسلة من المنازعات والحروب ، وخاصة بعد ان رفع ملوك الوجه القبلي راية الجهاد من أجل توحيد البلاد (١) ٠

ـ كانتا هاتان المملكتان قائمتين منذ سبعة آلاف عام أي حوالي عام ٥٠٠٠ ق٠م وظلتا متجاورتين ٠ وقد كان الملك يعيش في كل من هاتين المملكتين في عاصمة ملكة ، ولسكان تلك المباني التي أقامها الملوك كانت بسيطة وأقل من أن تقاوم الزمن فزالت ، ولم يصبح لها أثرا ٠ وكان الناس يعيشون في قرى على طول النهر لا تزيد عن عدد من الأكواخ والمنازل الصغيرة المبنية من الطين شبيهة بما كان قائما منها قبل ذلك العهد ، وقد زالت أمثال هذه المباني بالطبع (٢) ٠

ـ ولكن ملوك المملكة الجنوبية وبالمثل المملكة الشمالية ــ هم الذين تسميهم الأسانيد التاريخية المتأخرة باسم « أتباع حور »

---

(١) محمد جمال الدين مختار ، وآخرون : مرجع سابق ، ص ٣٥ ٠

(٢) جيمس هنري برستد : مرجع سابق ، صص ٦٨ ــ ٦٩ ٠

وهى عبارة تردد ذكرها فى سطور مدونة بالرمز • وقد ذكر جاردنر ود• عبد العزيز صالح هذا الرأى بثلاث قرائن وهى : تصوير تسعة ملوك توجوا بتاج الوجه البحرى فى أول السطور الباقية فى مدونة الرمز ، وتصوير ستة آخرين أعقبوهم توجوا بالتاج المزدوج • وذلك مما يرجح انفصال المملكتين قبل توحيدهما فى بداية العصور التاريخية ، واعتراف كاتب المدونة بأن ملوك الوجه البحرى كانوا ملوكا شرعيين وعلى قدم المساواة مع ملوك الصعيد الذين لابد أنه قد رمز اليهم بصور أخرى • وقد استولت أسطورة حور على أتباع حور وجعلت منهم شخصيات قصصية لعبت دورا كبيرا فى عقائد المصريين الرئيسية فاعتبروا فى البدء بوصفهم ملوكا أمواتا ، أرواحا تشغل مكانا وسط بين الآلهة والناس ثم لم تلبث ان تولدت مع الزمن فكرة تزعم ان هؤلاء الملوك كانت لهم صفة النصف الالهية فى حياتهم ، ثم توصلوا بطريق التنقل الدينى الى التطور التاريخى الى ان جلا من أتباع حور أولياء تملكوا على مصر خلال الفترة المديدة التى تفصل فى ذهن المصريين بين الأسرات الالهية الخرافية وبين الأسرات التاريخية وعدوا الهم ملكا طويلا امتدعدة ألوف من السنين وقوة تفوق بكثير ما يستطيعه البشر وان كانوا ملوكا •

ـ ويرى فرانكفورت ان المصريين يمكن أن يسموا « أتباع حور » لأن كلمة أتباع جاءت من الفعل Sms تبع وبعنى أيضا بعيد ، وقد عبد الاله حور فى كل من أنحاء مصر وقد أصبح زعماء نخن يعرفون بعبارة شمسوحور Smsw. Hr. أى أتباع حور شأنهم فى ذلك شأن حكام الدلتا سواء بسواء ، وقد تمسك زعماء نخن بهذا اللقب وجاهدوا حتى أصبحوا زعماء الصعيد من غير منازع • وتعنى عبارة حور أيضا بأنها تعنى أتباع حور الذين التفوا حول رايته بعد ان تمت وحدة البلاد فعلا فى بداية عصر الأسرة الأولى ولا تعنى أتباعه فى فجر التاريخ • ويفترض جاردنر انها تعبر عن

رحلة الملك بنفسه الى الأقاليم عن طريق النهر ، وتعبر عن احتفائه بذكرى ابحار نرمر موحد القطرين فى النيـــل لاتمـــام الوحدة السياسية .

ـ ويقول تيرى أن أتباع حور جاءوا من آسيا الى مصر ، وأدخلوا معهم عبادة الشمس وظلوا متفرقين حتى اتحدوا فى الفترة من التاريخ التتابعى ، وبدأوا عصر ما قبل الأسرات ، وقد أطلق عليهم البعض اســم جنس الأسرات ، ويرون انهم يتميزون عن المصريين بجماجم أكبر وأجسام أطول وأقوى مما يشهد به قدرتهم الذهنية الأكبر وينســـبون اليهم تعريف المصريين البناء بالحجر والنحت كما يرجعون اليهم ابتكار الكتابة والانتقال بالبـــلاد من عصور ما قبل التاريخ الى العصر التاريخى كما افترض ان الموطن الأصلى لأصحاب هذا الجنس وهو غربى آسيا فان وفودهم الى مصر كان عن طريق ســيناء ومنها الى شرق الدلتا عبر وادى الطلميات غربى بحيرة التمساح وبعد ان أخضعوا الدلتا قاموا باخضاع باقى أنحاء البلاد حتى أقصى حدودها الجنوبية وأقاموا غرب هذه الحدود مملكة أخرى .

ـ بدأ الصعيد يرنوا بناظرية نحو الدلتـا ، وأخذ حـكامه يحاولون الاستيلاء عليها اذ أن حواف الدلتا ومصر الوسطى تعرضت حينذاك لهجرات أو غزوات بدوية من الصحراوين الشرقية والغربية وما وراءهما من الأراضى الأسيوية والليبية . وعجزت مملكة الدلتا عن صد هذه الهجرات وحدها ، والتى ربما تهدد مملكة الصعيد بعد ذلك .

ومن ثم خف الملك العقرب ملك نخن الى استخلاص الأراضى التى انتزعت منها وتأديب من عادوا المهاجرين من أهلها ثم توحيد البلاد تحت حكمه وحكم أسرته ما استطاع الى ذلك سبيلا . وقد

زكى هذين الاحتمالين إن رموز الالهة التى صورت على آثار الملك العقرب تضمنته ثلاثة رموز معبرة ، صور اثنين منها بهيئة الالهة ست اله نوبت ودالا على أن ملوك نخن أنصـــار حور تناسـوا خصومتهم مع المتعصبين لعبادة الاله ست وحالفوهم فى سبيل وحدة أرضهم ومصلحتها ، ثم رمزاً لثلاث صـور لثلاثة تلال فوق حامل طويل ، ويذكر ان الملك العقرب حالف أصحاب الأقاليم الشمالية الغربية للدلتا وساعدهم على تخليص أرضهم من المتسللين والصحراء الغربية المجاورة لها ، وترتب على ذلك فيما بعد انهم قدسوا هيئة العقرب فى إقليمهم •

ـ ويرى سيجفريد ثبوت أن الملك العقرب هو الذى أخضـع الأجانب وأخضع أهل الدلتا • ذلك على اعتبار ان هيئة الصقر ترمز إلى الملك نفسه باعتباره رئيسا للاله حور ممثلة على الأرض وصورة حية له وأن الأقواس تعنى غير المصريين ، وان طائر الزقزاق يرمز الى أهل الدلتا وقد عثر على العديد من النقوش والأوانى فى نخن وابيدوس وطرفان وحلوان مما يؤكد انتماءهما لملك واحد وكتابتها فى عصر واحد ، ويوضح ذلك امتداد نفوذ الملك العقرب شمالا حتى حلوان على مقربة من القاهرة •

ـ ويبدو أن شهرة الملك العقرب كانت شهرة عريضـة فى زمانه ، وأن صلته عبر نخن كانت صلة وثيقة ، إذ سجل الفنانون هيئة العقرب التى ترمز الى اسمه فى تماثيل صغيرة من الحجر الجيرى كما سجلوها بنقوش غائرة وجسيمة على أوان ، وقد احتفظت بها أطلال معبدهم الكبير بعد دفنها •

ان المؤرخين إنما يتســاءلون عن الدور الذى قام به الملك العقرب فى اخضاع الدلتا قبل الملك نرمر • وفى الواقع فان هناك أكثر من عقبة تحول دون اعتبار الملك العقرب صاحب الفضــل فى

توحيد مصر . وقد نسب البعض اليه القيام بحروب داخلية دمر فيها بعضا من الحصون ، فضلا عن القيام بحروب خارجية فى أرض التحتو ، وغنم منهـا الكثير من قطعان الماشـية والزيت وغير ذلك .

ـ وقد اصطلح كثير من علماء المصريات بأن الملك العقرب انما هو الملك مينا فقد نادى البعض بهذا الرأى منهم أركل معتمدا فى ذلك على رأس صولجان فى مجموعة تبرى ، ومن ثم ذهب الى أن العقرب انما هو الذى وحد الصعيد والدلتا . وهو الذى عرف فيما بعد باسم مينا ثم خلفه على عرش البـلاد نرمر الذى أكمل الانتصار على الدلتا واستولى على ميناء آسيوى بوضعه الباب الكبير . ثم يعضد أركل رأيه هذا بأن الملك العقرب انما نقش على رأس صولجانه الذى صور فيه مرتديا تاج الصعيد ، قيامه بتحويل مجرى النيل ، تمهيدا لبناء منف، ومن ثم فالرأى عنده أن توحيد الملك العقرب « مينا أمر مؤكد » .

ـ غير أن هناك عدة عقبات تقف فى طريق قبولنا لهذا الرأى منها أولا أن الملك العقرب نفسه ـ رغم اتساع نطاق الانتصارات التى يفاخـر بها ـ فانه لا يزعم انه كان ملكا على مصر الموحـدة ، ومنها ثانيا أنه لم يدفن فى سقارة جبانة العاصمة منف أم أنه قد دفن فيها ولم يعثر حتى الآن على مقبرته .

والأثر الذى عثر عليه من قبل بترى فى أبيدوس وهو عبارة عن شكل العقرب يمسك بعضـا مصوزا على قطعة عاجية للملك نارمر ، لا يدل على وجـود علاقة مباشرة بين كل من الملك العقـرب ونرمر ، ويحتمل الأول فى عهدى خلفائه الذين احتفظوا باسمه ، وأرادوا ان يعبروا عن كونه كان رجل حرب وسلم ، بتصـويره

ممسكا بفأس مرة وبعصا مرة أخرى . ومنها ثالثا ان الآثار التى عثر عليها للملك العقرب انما تحتاج الى تدعيم أكثر بالمادة الأثرية . اذن فان الآثار التى عثر عليها لخليفته الملك نرمر توضح أن التوحيد النهائى للبلاد قد تم على يدى نرمر ، وان لم يمنع ذلك قيام الملك عقرب بدور ايجابى وكبير فى هذا المجال ، ومنها رابعا ان تفسير نقوش مقمعة على انها تشير الى قيام الملك العقرب ببناء سد لتشييد مدينة منف ، وانما هو تحميل للأمور فوق ما تطيق اذ انه من الواضح ان الملك يقوم هنا بحفر قناة لتخدم الأغراض الزراعية ويؤكد ذلك اهتمام الملوك فيما بعد بهذا العصر بالاشراف على شئون الرى والزراعة . وكان ذلك من أول مهام حكومتهم المركزية ، كما حمل حكام الأقاليم لقبا يعنى القائم على حفر الترع مما يؤكد أهمية الاهتمام بشئون الرى والزراعة فى هذا العصر ، وأخيرا خامسا ان الملك العقرب لم يصور أبدا مرتديا تاج الشمال وهو يقوم بتأسيس هذه المدينة الجديدة المتاخمة للأقالم الشمالية . ومن ثم فان احتمالية كون الملك العقرب ومينا شخصية واحدة أمر مستبعد . وبرغم انتصار الملك العقرب على الأقواس التسعة ـ أى الشعوب التى على حدود مصر ـ وكذا على جانب من سكان مصر ، يتردد ذكره فيما بعد كثيرا وهم المعروفون بالا « أرضية أو قوم الزقزاق الذين يرى فيهم جمهرة علماء الدراسات المصرية القديمة انهم سكان الدلتا ، الذين تم اخضاعهم . فيما له دلالة انه رغم اتساع نطاق الانتصارات التى يفاخر بها الملك العقرب ، فانه لا يزعم انه كان ملكا على مصر الموحدة ، وقد احتفظ بهذا الشرف لسلفه (نرمر) الذى يلبس التاج الأبيض لمصر العليا (الصعيد) على أحد وجهى لوحته ، بينما نراه على الوجه الآخر وكذا على مقمعة لهـــا نفس الأهمية ـ يضع التاج الأحمر لمصر السفلى (الدلتا) ومن الواضح انه أول ملك يفعل ذلك فى تاريخ مصر كله .

ـ ويرى بعض المؤرخين انه قبيل قيام الأسرة الأولى بثلاثة قرون ونصف قامت سلالة ملكية أو بيت مالك جديد فى مدينة ثينى (طيبة) وقد انتقل اليها حكام الصعيد بعد نخن وذلك قبل قيامهم بتوحيد البلاد مباشرة نظرا لموقعها الذى يتوسط أراضى الصعيد وقربها من جبانتها ذات الشهرة الدينية والتى اعتبرت من مناطق الحج الرسمية لأنها كانت مقرا لاوزوريس الاله أوزير اله البعث والخلود ، ومن المحتمل أيضا ان أسرة ثينى كانت فرعا من البيت المالك فى نخن ، وكان ملوك ثينى يدينون بالولاء للاله حور بينما يذكر جان بوبوت بأنه بعد ان قام فرع ملوك هيراقوينوليس من تهدئة الشمال آخذوا اماكنهم كبيت ملك جديد هم أول أسرة ملكية فى التاريخ الانسانى .

وهناك أكثر من اعتراض لما ذهب اليه بعض المؤرخين بأن نخن لم تكن صاحبة التوحيد . وان نخن كعاصمة فعلية ومقرا للمملكة الجنـــوبية كانت قاعـدة للعمليـات الحربية ابان عصرى العقرب ونرمر والتى أدت الى توحيد القطرين (١) .

توحيد القطرين :

ـ وأخيرا وفى حوالى القرن الثالث والأربعين قبيل الميلاد قام ملك قوى يدعى نرمر من ملوك الوجه القبلى (الصعيد) اثر انتصاره على صلاية كشف عنها فى نخن ، كما عبرت مقمعته عما أسفر عنه وأن يخلد هذا العمل الذى يبدأ به العصر التاريخى لمصر الفرعونية على صلاية كشف عنها فى نخن ؛ كما عبرت مقمعته عما أسفر عنه توحيد الدلتا من مكاسب .

---

(١) احمد محمود صابون (د٠) : مرجع سابق ، ص ص ٣٦ ـ ٤٤ .

ـ ويذكر برستد أن هذه المملكة الجديدة عرفت باسم الاتحاد الأول ومن الجائز انها استمرت بضع قرون من الزمان ، حكم أثناءها كثير من الملوك وكانوا يعيشون فى هليوبوليس (مدينة الشمس التى كانت العاصمة الأولى فى عصر الوحدة وكانت هذه المدينة بحكم موقعها مركزا وسطا بين المملكتين وظلت دائما أكثر المدن المصرية تقديسا وأهمية (١) ٠

وأخيرا فمن المحتمل أن يكون الملك نرمر هو نفسه الملك مينا الذى ذكره كهنة المعابد لهيرودوت باعتباره أول الملوك الذين حكموا مصر الموحدة ، ومن المحتمل كذلك أن يكون الملك مينا هذا عبارة عن رمزا أو تركيبة من عدة ملوك متوالين بما فيهم الملك العقرب والملك نرمر ، قاموا بعدة أعمال حربية وحققوا انتصارات متوالية الى أن يتم فى النهاية توحيد البلاد تحت حكم ملك واحد ٠ وعلى أية حال فان هذه المسألة لم تحسم بعد من الناحية العملية على نحو قاطع ٠ ويبدو أن علينا أن ننتظر حتى يتم اكتشـاف المزيد من الشواهد التى تحسم الخلاف فى هذه المسألة بصفة نهائية (٢) ٠

ـ ولقد كان اتحاد الشعب المصرى فى ظل حكومة قوية ثمرة جهاد وكفاح طويلين كان هذا الاتحاد ، هو الطريق الى خلق حضارة عظيمة وبناء دولة وطيدة الأركان ، وقد ساعدهم على ذلك نهر النيل الذى ربط بين المدن والقرى والأقاليم المصرية وأوحى للمصريين بالتعاون فى اقامة الجسور وتجفيف المستنقعات وحفر الترع وادخار الماء لوقت الحاجة ٠ وكان لانبساط أرض الوادى ان ساعد الناس

---

(١) سير بل الدريد : الحضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة ، ترجمة مختار السويفى ، القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٨٩ ، ص ٨٦ ٠

(٢) جيمس هنرى برستد : مرجع سابق ، صص ٦٩ ـ ٧٠ ٠

على الاتصال والاختلاط بلا عوائق طبيعية تمنع هذا الاتصال وتجعله صعبا شاقا ، وأخيرا فان خصـوبة التربة ، قد أغرت المصريين بالاتحاد للمصلحة المشتركة ، ومهدت لقيام حكومة قوية متحدة ، استطاعت ان توحد النظام وتنشر العدل وترسى أسس وقواعد حضارة عظيمة قامت فى ظل ذلك الاتحاد الذى ،ضحى مقدسا لدى المصريين والذين تصوروا انه من صـنع الآلهة الذين أوكلوا الى الفراعنة القيام برعايته والمحافظة عليه ·

ثانيا : دراسة الأحوال الاجتماعية فى مصر :

لا يغيب عن المشتغلين فى حقل العلوم الانسـانية ان علم الاجتماع هو أوحد من العلوم الانسانية البارزة ، ولكن عندما يجتمع التاريخ والاجتماع ، يكون التاريخ هو النبع الذى يشتق منه عالم الاجتماع مادته التاريخية ، من خلال الوثائق التى يعثر عليها عالم الآثار ، ومن خلال دراستها من جانب المتخصصين فى علوم الوثائق ، الذى يقوم بنشرها موضحا نصها واعداد مادتها التاريخية لجميع المشتغلين بالعلوم الانسانية وغير الانسانية ، كى يأخذ كل عالم منها ما يخص مادته ·

وفى دراسـة الأحوال الاجتماعية لمواطنى أى شعب ينبغى التنويه من ضرورة تواجد اطار سياسى أو ادارى أو تنظيمى يسبق دراسة الأحوال الاجتماعية ، والا فيجب أن نطلق على هذا الشعب مجموعة الأفراد ، والأطر السياسية أو الادارية تبدأ بمجتمع الأسرة ثم العشيرة ثم القبيلة ثم القرية فالمدينة فالاقليم ثم الدولة · وهذه الأشكال الادارية أو التنظيمية المتعارف عليها تحكمها مجموعة من الروابط المشتركة أو العادات والقوانين المنظمة لحياة هذه المجتمعات على مستوياتها المختلفة · ونظرة لكل مستوى من هذه المستويات الادارية نرى انها تضم عناصر متميزة ومحددة داخل اطار كل منها

يطلق عليهـا فئات المجتمع تبعـا لظروف هذا المجتمع أو ذاك ، فالمجتمع الرعوى غير المجتمع الزراعى والذى يختلف عن المجتمع الصناعى ، فكل مجتمع من هذه المجتمعات له فئات اجتماعية قلما توجد فى مجتمع آخر • وفى حالة توافر هذه الشروط لأى مجموعة من أفراد المجتمع ، يكون من السهل بمكان دراســة الأحوال الاجتماعية لهذا المجتمع أو ذاك وأطار علمى سليم •

وفى دراستنا هذه التى نحن بصددها عن الأحوال الاجتماعية فى مصر فى عصور ما قبل التاريخ ، لابد من التأنى فى هذا التناول حتى لا يتم تناولها تناولا هامشيا ، فدارسة الأحـوال الاجتماعية لشعب مصر من تاريخ بدء الحياة على أرض وادى النيل ، مرورا بالعصر الحجرى القديم ، ثم العصر الحجرى الحديث ، ثم عصر المعادن ، ثم عصر ما قبل الأسرات ليس بالشىء السهل وذلك لقلة المصادر الأساسية لتاريخ تلك الفترات •

والمهتمون بالدراسات المصرية القديمة والمشتغلون بها يعلمون ان سكان مصر خلال العصر الحجرى القديم لم يكونوا سوى مجموعة من الأفراد المختلفين فى المشــارب والمنتشرين فى شمال الوادى أو جنوبه هنا وهناك على مساحة شاسعة من الأرض ليس بينهم أى نوع من الصلات ، هذا بجانب بعض العناصر الأجنبية الوافدة سواء من الشرق أو الغرب أو الجنوب ، يعملون جميعا فى جمع والتقاط الثمار وصيد الحيوانات البرية ، فكيف يتم اعداد دراسة اجتماعية لأحوال هذه العناصر أمام هذه الصورة الغير واضحة الرؤيا • وبالرغم من ذلك فقد تناولنا فى قسم سابق طبيعة سكان الوادى وأحوالهم فى تلك المرحلة الأولى من خلال القسم الثـانى عندما تحدثنا عن عناصر ومؤثرات القوة الدانية لمصر (الموارد البشرية) •

ومع هذا فسوف نلقى بظلال من المعرفة على هذه العناصر ، فكما سبق القول أن علماء الدراسات المصرية القديمة لم يعثروا

على الآثار الكافية التى تروى لنا الأحوال الاجتماعية لهؤلاء الأفراد أو نظم معيشتهم ، اللهم بعض الأدوات الحجرية التى تخلفت عن تلك الفترة والتى تشير الى بدائية تلك الحياة وفى هذا يقول جميس هنرى برستد ٠

« ٠٠٠٠ ان الذى يعرف قصة تحول صيادى عصر ما قبل التاريخ فى غابات النيل الى ملوك ورجال سياسة وعمارة ومهندسين وصناع وحكماء وأنبياء اجتماعيين فى جماعة منظمة عظيمة مشيدين تلك العجائب على ضفاف النيل فى وقت كانت أوروبا ما تزال تعيش همجية العصر الحجرى ، ولم يكن فيها من يعلمها مدنية الماضى ، من يعرف هذا كله يعرف قصة ظهور أول مدينة على وجه الأرض تحمل فى ثناياها صورا خلفية ذات بال ٠

هؤلاء الناس الذين تجمعوا فى وادى النيل وخلفوا تلك المدنية وشكلوا أول دولة مركزية وأول وحدة اجتماعية وسياسية فى التاريخ ، وصلوا الى مستويات مذهلة فى المعرفة سواء فيما يتعلق بالفلك أو الحساب أو الطب أو الهندسة وتكونت لديهم مهارات خارقة فى النحت والبناء والأدب والتنظيم الادارى ، أى نوع من التشكيل الاجتماعى التاريخى كانوا يشكلون ؟ ٠ وهل كان ثمة عامل قوى يسمح بالحديث عن شخصية قومية متميزة لهم ؟ ٠

ومن خلال الاطلاع على بعض المصادر الموسوعية فى هذا المجال نجد أن تعريف القومية يرتبط بالتكوين الاجتماعى ـ التاريخى فهى تعرف القومية بأنها ٠٠٠ جماعة من الناس تكونت تاريخيا على أساس من اللغة المشتركة والأرض ـ المشتركة والاقتصاد المشترك والثقافة المشتركة وهى أمر يسبق تكوين الأمم ٠

وتصف الموسوعة تشكيل القومية بأنه يبرز مع تعزيز التحالفات القبلية والالتحام التاريخي التدريجي للقبائل واستبدالها من علاقات الدم الى علاقات الأرض • وتحدد الموسـوعة بأن المصريين والهلينيين هم من أقدم القوميات التى تشكلت فى العـالم مع بواكير التاريخ البشرى ، وحينما تزداد قوة الروابط بين هذه العناصر السكانية المختلفة فى القرية الناشئة ، فان لغة واحدة منها غالبا الأكثر عددا أو الأكثر تطورا تصبح اللغة المشتركة للقومية ، ومن هنا تتكون جماعة اقليمية وثقافية واقتصادية تحت اسم واحد ، ومع نمـو العلاقات وازدياد الروابط الاقتصادية والثقافية قد تتحول القرية الى أمة •

واذا كانت أوروبا قد اضطرت ان تنتظر الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لتشهد قيام دولة قومية مركزية على يد الرأسمالية الناشئة ، فان القضاء على التجزئة الاقليمية مهمة أنجزتها الدولة المركزية فى مصر منـذ آلاف السنين حينما توحدت دويـلات مصر السفلى ومصر العليا فى دولتين تواجدتا بدورهما فى دولة واحدة ، ولم تكن هناك رأسمالية ناشئة قد ظهرت بعد •

والواقع ان مصر لم تسبق غيرها من بلاد العالم فى قيام دولة وكيان سياسى وحسب ، وانما نفس العوامل التى أدت الى هذا السبق فى ظهور دولة سياسية ، هى نفسها التى جعلت هذه الدولة تتميز عن غيرها من الدول التى ظهرت فيما بعد ، وان يكون فى نفس الظروف التاريخية والاجتماعية ، بالمحافظة على وحدتها القومية عبر التاريخ ، وكانت بعض العوامل الايكولوجية الخاصة بمصر هى التى أعطت دولتها ، وأعطت التكوين الاجتماعى ـ الاقتصادى التى تمارس هذه الدولة سلطتها خصائص فريدة تميزها عن غيرها من الدول أو التكوينات الاجتماعية التى شهدتها تلك الحقبة القديمة •

فالنيل الذى جعل من مصر وحدة هيدرولوجية ـ هو أيضـا عنصر الوحدة الطبيعية من زاوية دورة كوسيلة مواصلات ونقل ، فمن الجنوب الى الشمال ينحدر النهر انحدارا تدريجيا لطيفـا ١ : ١٠٠٠٠ ـ ٤١٠٠٠ ٠ مما يجعل الملاحة مع مجرى التيار سهلة ، والرياح الشمالية السائدة تساعد للملاحة من الشمال الى الجنوب أى بالعكس ، وهكذا كان النيل من زاوية الملاحة النيلية من أدوات الربط المحكم بين أجزاء مصر ، ومن وسائل توحيدها سياسيا ٠ حيث كان النيل من هذه الزاوية يساعد الدولة المركزية على فرض سلطتها على كل الوادى ٠

وكان من الطبيعى فى المراحل المبكرة ، ومع مختلف المواصلات ان تؤدى هذه العزلة الجغرافية والطبيعية الى نمو الشعور بالذات لدى المصريين القدماء الى حد الاستقرار الذاتى (الاجتماعى) ٠

وقد انعكس هذا فى اسم مصر القديمة ذاته ، فكانت كلمة كيمى Khemi تعنى أرض مصر السوداء ، كما تعنى العالم فى نفس الوقت ٠ كذلك فان الشعور المشترك بالأخطار الخارجية المتتابعة منذ فجر التاريخ « قوة لاحمة بلورت الشـعور بالذات وطنيا » كمـا يقول ٠ ج ٠ أ ويلسـون : ربمـا لم تـرد كلمـة وطن الا فى أوراق البردى العائدة الى ما قبل ظهور المسيحية فى مصر بقليل ، ولكن كان هناك بالضرورة وعى بهذا الوطن ، وبحدودها منذ القدم بشكل أو بآخر ٠ فعشرات الآلوف من الفلاحين الذين كانوا يحتشدون من مختلف أنحاء البلاد سواء فى مشاريع السيطرة على النهر أو الرى أو بناء المعابد والقصور والأهرامات ، أو فى جيوش للدفاع عن البـلاد كانوا يتعرفون من بعضهم البعض على النواحى المختلفة للوطن الذى يجمعهم ٠ كانت لمصر أسماء مختلفة . فهى كيمى ، وهى أرض الاله بتاح (جيبتو) بالهيروغليفية والتى جاء منها اسم القبط واشتق منها اسم مصر باللاتينية Egybtos

وباللغات الأخرى المشتقة منها مثل الفرنسية والايطالية والاسبانية وبغيرها من اللغات مثل الانجليزية والألمانية ، كما كانت مصر تسمى أيضا بلاد رع (رب الشمس) ان وجود اسم للبلد متعارف عليه لدى الجميع ، يعنى الوعى بهذا البلد والشعور بالانتماء اليه كانت أعلى بكثير لدى الفئة الحاكمة من المعنية بأمور البلاد كلها اداريا واقتصاديا ودينيا وعسكريا . فلقد كان هناك طابع وطنى عام يتمثل فى وحدة الديانة والطقوس والمراسيم والعادات والملابس والسكن وأساليب الزراعة ووحدة مواسمها ، وبعض الحرف كصناعة الأوانى والكتان والزيوت ، وهو ما يعنى انه كانت هناك أيضا حياة قومية يشارك فيها عامة الشعب .

لكل ما تقدم فان هناك ما يبرر الحكم بأن تلك الجماعة من الناس التى تشكلت تاريخيا فى أرض مشتركة هى مصر ، وتحت دولة مركزية قومية Etat-National Central وكان لها عبر العصور لغة مشتركة ـ وحتى وان تغيرت فانها كانت تتغير بالنسبة للجماعة كلها ـ وكان لها ثقافتها المشتركة وطابعها القوى المشترك اللذان كان يعطيان تكوينها النفسى والذهنى سمات مشتركة ، وكانت تشكل وحدة اقتصادية واجتماعية . هذه الجماعة كانت تشكل أمة ، وكان العامل القوى أو ما نصطلح على تسميته بالشخصية الوطنية المصرية ، يعبر عن نفسه فى صورة نضال من أجل علاقات اجتماعية وسياسية أرقى للحفاظ على الكيان القومى(١) .

ومما سبق ذكره نستطيع أن نتأكد ان هذه القلة من المصريين الذين عاشوا فى أنحاء متفرقة فى أنحاء الوادى وبرغم قلتهم ، وعدم

---

(١) طاهر عبد الحكيم (د٠) : مرجع سابق ، ص‌ص ٥٩ ـ ٦٥ .

استقرارهم خلال العصر الحجرى القديم ، الا انهم مروا بالعصر الحجرى الحديث ، وعصر المعادن ، وعصر ما قبل الأسرات ، لم يستمر الحال على ما كان عليه من تخلف وتفرقة وتفكك ، بل سرعان ما وجدنا ان تلك الفئات أو العناصر المتناثرة استطاعت ان تتحد وترتقى فى سلم الحضارة درجة بعد أخرى خلال تلك العصور بفضل نهر النيل واضفائه على هذه المجموعة من ضرورات تاريخية متمثلة فى الوحدة الجغرافية والطبيعية والبشرية والسياسية والاجتماعية وكذلك الوحدة العسكرية ، فكانت تلك النواة من هذه العناصر السكانية هى نواة لأمة ذات حضارة عظيمة ٠

فئات المجتمع المصرى خلال عصور ما قبل التاريخ :

حفلت أرض مصر فى عصور ما قبل التاريخ بالعديد من الفئات الاجتماعية المتنوعة كان أولها الصائد ، ثم الفلاح ، ويذكر هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد فى الجزء الثانى من كتابه تخصيص الأخبار يقول : « ٠٠٠ وتوجد سبع طبقات من المصريين تسمى طبقة الكهنة ، طبقة المحاربين ، رعاة البقر ، التجار ، المترجمون ، الملاحون » ٠ وهذا الوصف الذى يقدمه لنا المؤرخ الاغريقى عن النظام الاجتماعى السائد ابان القرن السادس قبل الميلاد بذكر وجود هذه الطبقات الاجتماعية التى ترجع أصولها الى أقدم العصور ، ومع ذلك فان التعرف على هذه الطبقات يبعث على الحيرة ، ولا يتفق مع الأوضاع الاجتماعية فى العصور القديمة (١) ٠

والحقيقة ان هذه الوثيقة أهملت ذكر طبقة الفلاحين وطبقة عمال المناجم باعتبارهم من الطبقات الاجتماعية التى برزت على سطح

---

(١) دومينيك فالبيل : مرجع سابق ، ص ١٥ ٠

الحياة خلال عصور ما قبل التاريخ والتى شكلت غالبية المجتمع المصرى انذاك ٠

والواقع اننا لا نعرف من عامة الشعب المصرى سوى القليل فالآثار التى تركوهـا عن وجودهم لا تذكر ولا يعتد بها ٠ كانت الفاقة والأمية من نصيبهم ، وتواروا بعد وفاتهم فى مدافن بدائية مجهولة الهوية ، والأهم من ذلك انهم لم يروا شيئا عن حياتهم أو أحوالهم ، حقيقة أن الخط الفاصل بين من خلفوا شيئا للأجيال اللاحقة وبين من سقطوا فى طى النسيان هو خط رفيع جدا ، وتغير بتغير العصـور وبالصدفة التاريخية المرتبطة بعملهم ٠ فالأكواخ المتواضعة التى سكنتها الجماعات التى عاشت على أطراف الصحراء استطاعت ان تقاوم معول الزمن وكثافة المدن الزاحفة ٠ وصمدت أكثر من منازل الميسورين التى شيدت فى الوادى ٠ برغم أن هذه الأكواخ قد شيدت من العريش بسبب ندرة الماء ، وحيث ان هذه العمالة من حيث تعريفها هى محور كل نشاط فى البلاد ٠ وبسبب كثرة أعدادهـا فقد كانت محل فخر واعتزاز المشرفين عليها لقد اشتهرت هذه العمالة بالمهارة والتفانى والاخلاص ، فوضعت أحيانا صور أفرادها وأسماؤهم بجوار سادتهم على جدران المعابد ٠

ولم يعثر على أية سجلات خلال تلك العصور أو فى فترة الدولة القديمة تتعلق بالسكان الذين خضعوا لأعمال السخرة ومن وقعت على كاهلهم مهمة تنفيذ كافة أعمال الانشـاءات الكبرى فى ذلك العصر مثل شق القنوات الضرورية للزراعة وبناء مراكز العمران الكبرى وتشييد منف العاصمة الجديدة لمصر ٠ أما أسرى الحرب فقد احتفظوا فى كثير من الحالات بصـورهم الرمزية وأعدادهم مصورة على الحجـر ، ولا يستبعد اضـافة أعداد من هؤلاء الرجال ونساؤهم الى جانب جموع العمالة الماهرة والخدم من المصريين مما زاد من أعدادهم ٠

ومن ناحية أخرى لم يهتم المصريون بتدوين يوميـات تسجل حياتهم الخاصة ، ومن ثم فغالبا ما يصعب علينا تصور نشـــاطهم اليومى • ومع ذلك فقد احتفظت بعض القيادات المهنية فى المعابد ، أو فى مواقع العمل ، بكشوف المستخدمين وبمذكرات كاملة شاملة الى حد كبير حول سير العمل وتقل المؤن وغياب العاملين وأسبابه ، الى جانب مختلف الحسابات الأخرى ، فصار فى الامكان متابعة نشاط أحد الكهنة أو أحد العمال منذ اللحظة التى يستيقظ فيها فى الصباح حتى يأوى الى فراشه فى المساء • وكان من المفترض أن تقتصر معلوماتنا على الأنشطة المهنية ، ولكن لا يوجد فصل بين حياة المصريين القدماء المهنية وحياتهم العائلية أو الاجتماعية •

ونقرأ أحيانا فى السجلات الادارية بيانات ذات طابع خاص محض ، تسمح بترتيب صـور الحياة اليومية فى نسق مترابط ترابطا نسبيا ، ولا ينسحب هذا بالطبع على كافة الفئات المهنية فى المجتمع ، وحسبنا ان نعرف أحيانا طبيعة العمل الذى أنجزه أحد الأشـــخاص فى لحظة من لحظات حياته • ورغم ثغرات التراجم الذاتية ، وتحيزها الواضح ، الا انها توفر لنا ما يكفى من المعالم التى تساعدنا على تصور خصائص وظيفة بعينها ، أو الترقيات فى سلم الوظائف • وبعض النصوص الأخرى ذات الطابع الرسمى فتعدد مناصب الأعيان فى الدولة وتوضح لنا التقاليد المتبعة (١) •

نخلص مما سبق الى الآتى :

أولا : ان وحدة المجتمع المصرى بدأت بالفرد فى العصر الحجرى القديم ، ثم تطورت الى نظام الأسرة ، فالجماعة ، فالقرية فى نهاية العصر الحجرى الحديث . ثم الى الاقليم واتحادها فى مملكتين مملكة

---

(١) دومينيك فالبيل : مرجع سابق ص ص ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٧ •

الشمال ومملكة الجنوب وذلك خلال عصر المعادن ، ثم كانت وحدة المملكتين على يد نرمر مع عصر ما قبل الأسرات ٠

ثانيا : كانت الفئات الاجتماعية المستخدمة على مدى تلك الفترة تقتصر على : ــ

١ ــ الصياد ٠
٢ ــ الفلاح ٠
٣ ــ المحارب ٠
٤ ــ الكاهن ٠
٥ ــ العمال فى عدد من المهن ٠
٦ ــ الملاحون ٠
٧ ــ التجار ٠
٨ ــ رعاة البقر ٠
٩ ــ المترجمون ٠

وللأسف لا تسعفنا النصوص القديمة التى وصلت خلال تلك الفترة فى القاء الضوء على أصحاب هذه الفئات الاجتماعية ، اللهم القدر اليسير ٠

ثالثا : لم توضح لنا النصوص التى وردت فى تلك الفترة أى عادات أو تقاليد اجتماعية يمكن أن نرتكز عليها فى شرح طبيعة المجتمع وأحواله ٠ ولكننا مع بداية الوحدة وعصر الأسرات نجد مادة تاريخية غريزة يمكن من خلالها القاء الضوء بصورة وأكثر تفصيلا على الأحوال الاجتماعية فى مصر خلال الحقب التاريخية اللاحقة للفترة التى تؤرخ فيها ٠

وفى نهاية العرض يمكن القول ان المصرى اجتماعى بفطرته مجبول على حب الأسرة ومولع بمنزلة دينية ، ويحافظ على الصلات الاجتماعية وعلى العلاقات الأسرية .والأخلاق السائدة والأسرة عنده عظيمة

الشأن وذلك واضح في آداب ومأثورات قدماء المصريين ٠ والمصرى منذ القدم اجتماعى من ناحية انتظام بيئته الجغرافية والاجتماعية ، فهو يحافظ على انتظام العادات وانتظام العلاقات منذ أجيال وهذا هو أقوى ما يربطه بالمجتمع سواء عندما كان يجتمع هو الأسرة أو العشيرة ثم عندما تطور الى أمة ثم بالحياة القومية فكان ارتباطه بالمجتمع أقوى من ارتباطه بالنظام السياسى والمراسيم الحكومية (١)٠

(١) محمد عبد الفتاح ابو الفضل ، تأملات فى ثورات مصر ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ ، ص ١٩ ٠

الفصل السابع

«دراسة عامة عن الاحوال الدينية»

في مصر

تمهيد :

ان دراسة الأحوال الدينية منذ عصور ما قبل التاريخ شيء مثير ومشوق للنفس ، فهذه الدراسة في جوهرها لها وضع يختلف كل الاختلاف عن دراسة الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية ، وذلك لأسباب متعددة هي أهمية الدين والعقيدة كمحور ارتكازى رئيسى في حياة المصريين منذ أن ظهرت الحياة على أرضها • بل وتعقد هذه الحياة الدينية كلما تقدمت ، وتطور حياة المصريين ، هذا الاثراء الذى حدث فى الحياة الدينية للمصريين كان منشوءه عدم القدرة على تفسير الظواهر الطبيعية المحيطة بهم أو بالكون بصفة عامة فعلى سبيل المثال فيضان نهر النيل الذى ارتبط في عقيدتهم بعدد من الآلهة ، وغيره من الظواهر ، لذلك تعددت الآلهة ، وارتبطت تلك الآلهة في قدرتها بتغييرات خيالية غامضة ومعتقدات بالية ، كذلك ربط المصرى القديم بين هذه الآلهة وبين الحكام والفراعنة وأصحاب السلطة الذين حكموه ، ومدى قدرتهم على القيام ببعض الأعمال التى لا يستطيع الفرد

العادى القيام بها • لذلك ترسخت تلك العقائد فى ايمانهم بتلك الآلهة رسوخا قويا ، وأصبح لها من القدسية والمكانة ما لا يفوقها مكانة برغم أن هذه الآلهة لم تكن تخرج عن رموز حجرية أو معدنية لها شكل الحيوان أو النبات أو الحشرات أو بعض الأشكال الغامضة ، فقد أرجع المصرى القديم كل شىء فى حياته الى اله ، لذلك عظمت مكانة رجل الدين أو الكاهن فى المجتمع وأصبحت مكانته تفوق مكانة أى فرد • ان الخوض فى دراســـة الأحوال الدينية بكل دقائقها وتفصيلاتها ليس هو محور تلك الدراسة ، انما يعنينا من هــذه الدراسة هو معرفة الخطوط والقواعد الرئيسية لهذه الأحوال خلال تلك الفترة السحيقة من تاريخ مصر فى عصور ما قبل التاريخ •

وقد بذل المصريون كثيرا من مالهم ووقتهم ومهارتهم وجهودهم فى بناء مقابرهم وتأثيثها ، وذلك لعقائد خاصة بالحياة بعد الموت ، اذ اعتادوا على دفن موتاهم قبل أن يكون لهم ملوك أو مملكة بآلاف السنين ، ومع هؤلاء الموتى وضعوا الأدوات التى كانوا يستعملونها أثناء الحياة حتى فى الوقت الذى كان يعيش فيه سكان وادى النيل كصـــيادين بدائيين ، دفنوا موتاهم ومعهم أســلحتهم وآوان فيهــا المآكل والمشرب ، فلما تقــدم الزمن وصــار لهم ملوك وحضــارة زاد ما كانوا يدفنونه مع موتاهم ، فبنوا المقابر الضخمة ووضعوا فيهــا الأثاث الجنــائزى الكثير ، وبالرغم من أن المصريين كانــوا يعتقدون أن الموتى سيحيون حياة أخرى فى مكان بعيد عن القبر وبعيد عن الجســد الموسد منه فانهم لم يســتطيعوا يوما من الأيام أن يفصلوا فصــلا تاما بين الجسد الذى فى القبر وبين تلك الحياة الأخرى ، ولم يتصوروا الخلود للموتى دون أن يكون للجسد نصيب منه ، ولهذا كانوا يحرصون على سلامته وكانوا يتفنون فى المحافظة عليه حتى وصــل بهم الأمر الى اقامة تلك المقابر العظيمة المبنية بالحجر • ولم يقف بهم الأمر عند بذل الجهد لايواء وحماية الجسد بعد الموت بل بدأوا أيضا فى تحنيط تلك الأجساد وحفظها كموميات•

وكانوا يهدفون من وراء ذلك أن يظل ذلك الجسد المحنط محتفظا بشكله فى حجرة صغيرة عميقة داخل القبر تحت بناء عظيم من الحجر . وهذه العقيدة هى السبب الذى جعل كل حاكم من الحكام ينفق الموارد الطائلة على بناء قبره ليكون مقرا لجسده ليأمن سلامته بعد الموت ، وحذا أقارب الملك والموظفون حذو سيدهم فى الاستعداد للحياة بعد الموت وكثيرا ما كانوا يرتبون الأوقاف للصرف منها على صيانة مقابرهم .

ولكى نفهم تلك العقيدة الخاصة بالحياة بعد الموت يجدر بنا أن نعود بذاكراتنا الى الوقت الذى كان يعيش فيه الصيادون فى العصر الحجرى ونذكر كيف غيروا طريقة حياتهم وأصبحوا يزرعون الأرض ويحصلون منها على القوت . فلا شك أن الزرع الأخضر الذى نبت من الأرض السوداء قد لفت نظرهم الى التفكير فى أصل الحياة . وكان لهذا التغيير فى حياتهم من صيادين الى زراعيين فى الأرض أثره فى عقيدتهم الدينية ولم يكن هذا قاصرا على المصريين فحسب بل كان عاما فى شعوب بلاد الشرق الأدنى الذين اعتمدوا على الزراعة فى حياتهم ، وبدأوا منذ وقت مبكر يعتمدون فى حياتهم على ثمرات الأرض . وكان كفاحهم لأجل البقاء يدور حول تلك الزراعة وما تمدهم به من حاصلات . وبث فيهم هذا الاحساس روح الاحترام والاعتراف بالجميل وأدخل على ديانتهم لونا جديدا ، وهذه الروح الجديدة هى الاحساس الذى تقوم عليه عقائد هنود أمريكا الشمالية ، بل انها فى الواقع ما زالت ذات أثر كبير فى ديانتنا حتى اليوم . وقد ورثناها كاحدى النتائج الهامة لما طرأ على أفكار الناس من تغيير عندما تركوا حياة الصيد الى الحياة الزراعية ، رأى الزارع أن تلك الحبة التى بذرها نبتت واخضرت وآتت ثمارها ثم زرع من تلك الثمار حبة أخرى فتكررت معجزة الحياة ، وفكر فى تلك الحياة المتميزة التى لا يمكن أن تموت موتا

نهائيا ، وكان من الطبيعى أن يدخل فى روعة الاعتقاد بأن هذا الشىء الحى الذى لا يموت يجب أن يكون الها ٠ وسمى المصريون هذا الاله باسم أوزوريس واعتقدو أنه روح هذه الحياة الخضراء النابتة من الأرض وكانوا يرون هذه النباتات المخضرة تذوى كل عـام وتتراءى لناظرها كأنها ماتت وفارقت الحياة ولكنها كانت تعود مرة أخرى الى حياتها ونضرتها ٠ وانتشرت مثل هذه العقيدة على طول الجانب الشرقى من البحر المتوسط وامتدت الى الخليج الفارسى ، وكان هذا الاله يسمى فى غرب آسيا وأحيانا باسم « تموز ٠٠ وأحيانا باسم أدونيس ٠٠ » كما كانت له أسماء أخرى تختلف من بلد الى آخر ٠ لذلك نرى فى قصة أوزوريس أحب الالهة الى قلوب المصريين القدماء أنه عاش ثم مات ثم بعث بعد الموت ٠ وهذا هو ما حدث لجميع الآلهة المحلية فى غرب آسيا وبخاصة فى سوريا وفلسطين وآشور وبابل ٠

ولم ينس المصريون هذه الصـلة القديمة التى تجمع بينهم وبين آسيا فى العقيدة فنقرأ فى أسطورة أوزوريس أنه مات ثم سبح جسمه حتى استقر أخيرا فى جبيل على الشاطىء الفينيقى حيث عادت اليه الحياة فأصبح شجرة خضراء وعاش مرة أخرى ٠

وكانوا يرمزون فى غرب آسيا للحياة المتجددة بشـجرة ٠ وكانوا يقيمون فى كل عام احتفالا كبيرا ينصـبون فيه شـجرة ويزرعونهـا ثم يزينونهـا ويكسونهـا بالأوراق الخضراء ٠ وورث الغربيون هذه العادة ، وما زالوا يحتفلون بها عندما يقيمون « عامود شهر مايو » الذى ينصبونه ويزينونه ويقيمون المآدب ويرقصون حوله احتفاء بعودة الربيع ٠

وكان الناس يقصدون من هذا العيد أن يعبروا عن شعورهم نحو اعتمادهم على تجديد الأرض للحياة ، ذلك التجديد الذى أمدهم

بالقوت ، الذى يحصلون عليه من حقول الحبوب ، وبعبارة أخرى كان مظهرا دينيا لاعتراف الناس بفضل الزراعة عليهم ٠

ولم يكن هذا الاعتقاد في غرب آسيا ذا تأثير يقود الناس الى الايمان بحياة ينعمون بها بعد الموت وفى العالم الآخر ، أما فى مصر فانهم يفضلون أن يؤمنوا بأن أوزوريس لم يكن القوة التى تمدهم بالحياة وتعطيهم القوت فى هذه الدنيا فحسب ، بل انه كان يعنى بهم أيضا فى الحياة الأخرى ، فيعيشون سعداء عندما يأتى اليوم الذى يموتون فيه وتستقر أجسادهم فى القبور التى يدفنون فيها على حافة الصحراء ٠

آمن الناس ايمانا قويا بأن عقيدتهم فى أوزوريس تيسر لهم حياة مباركة فى العالم الآخر ، وكانوا يرون فى هذا الاله رمزا للموت ثم الحياة مرة أخرى ، وكانوا يرمزون له بشجرة فى بعض الأحيان وفى الوقت ذاته كان يرى فيه بعض المصريين أنه هو الأرض السوداء التى تخرج منها الحياة المخضرة ويرسمون سنابل الحب وهى تنبت من جسده ٠ ورأى البعض أن الأرض لا يمكن أن تؤتى ثمارها الا اذا روتها مياه النيل فاعتقدوا أن أوزوريس هو النيل وهكذا اعتقد المصريون أن نهرهم العظيم فى أرضهم الخصبة التى ترويها مياهه والحياة المخضرة التى تزدهر بسببه ليست الا شيئا واحدا هو اله واحد هو أوزوريس الذى كانوا يرون فيه رمزا للحياة فى الأرض التى لا تفنى ٠

واعتقد المصريون أيضا فى آلهة كثيرة ولكنهم آثروا عبادة اثنين كان لهم السبق على جميع الآلهة الأخرى ، احدهما أوزوريس الذى يقهره الموت ، والآخر هو الشمس التى تنير بضيائها فى سماء مصر الصافيـة ، هذا هو الاله رع الذى كان أعظم الآلهـة المصرية

كاله للأحياء والذى أقام المصريون لعبادته أفخم معابدهم ، ولم يكن الهرم الا رمزا مقدسا له (١) ٠

والواقع ان المرء عندما يتصل بعالم الآلهة فى مصر القديمة فانه يقع فى شيء من الحيرة أمام هذه الوفرة من المعبودات والحيوانات الالهية أو المقدسة ٠ والآلهة التى تتخذ فى قليل أو كثير شكل الحيوان ، ويدور فى خلد المرء تجاه مثل هذا الخليط المتراكم من الأوصاف والنعوت والشعارات المميزة فى حدود متفاوته ، أن يفكر فى ديانات مصرية متعددة وتلك نظرة سطحية تماما للأشياء ٠

والشيء الملفت للنظر فى الآلهة المصرية ، هو الدور الذى تقوم به الآلهة المحلية ٠ فقد كان لكل مدينة الهها أو آلهتها ٠ كانت مدينة بوتوا (بالقرب من تل الفراعين) فى أقصى الشمال تعبد آلهة لها شكل ثعبان وتستوى على ساق بردى ، وفى منديس كان يسود اله له مظهر التيس ، وفى هليوبوليس كان الههم يتخذ شكلا آدميا على الأقل فى العصر التاريخى وفى اطفيح كان لحاتحور الهة الحب وجه امرأة ، وان برزت من شعرها المستعار اذن بقرة ٠

وكانت هيرا كليوبولس (أهناسيا القديمة) تقوم على عبادة للاله الكبش حرسافى وكان تحوت وله رأس منجل رب ــ هرموبوليس (الأشمونين) ٠ وفى أسيوط كان أفويس **Ophois** يبدو فى مظهر ابن أوى ٠ وكان لحورس ادفو حيوان مقدس هو الصقر الذى هيأ مصوروه وضع رأسه على جسمه البشرى ، وكان خنوم فى اسنا أو فى الفنتين يبدوا برأس كبش ٠ أما الآلهة المسماه بحورس بالنوبة فكانت دائما تتميز بمدنها التى نشأت فيها ٠ وعلى هذا

---

(١) جيمس هنرى برستد : مرجع سابق ، ص ص ٩١ ــ ٩٤ ٠

فان لهذه الجغرافية الدينية بالغ الأهمية · لقد قامت الأمكنة المقدسة في مصر بدور عظيم · ولابد أنها وجدت منذ أبعد عهود ما قبل التاريخ ، وحتى اذا كانت الآلهة التى تعبد فيها تغيرت ، فانها ظلت عزيزة لدى القوى غير المرئية وواصل الناس ، على الرغم من حركة التاريخ الدائمة ، تقديم العبادة لها ·

على أننا نكتشف هذه التغيرات أكثر مما نعرفها · فنحن نخمن أن أوزوريس حل محل عنجى Andgety فى أبى صير (أبو صير بنا) فى الدلتا ومحل خنتى مينتيو khentya Mentyou أى الذى يرأس سكان الغرب ، فى أبيدوس بمصر العليا · وفى ابان العصر التاريخى فى الدولة القديمة ، استعلى رع على أتوم فى هليوبوليس · ولكن حتى فى هذه الحالة المختارة ، لا تصل الى ادراك السبب الذى دعا مدينة معينة الى اتخاذ اله جديد · يجب أن يكون هناك شيئا فى امكانه تقديم العون لنا · انه الأصل المشتق منه أسماء الآلهة · ان بعضها ينتمى فى جلاء الى اللغة المصرية · ان رع هو الاسم الشائع للشمس · وآمون مستمد من الأصل آمن أى الخفى وآتوم من تم أى الكامل وهكذا ·· وفى الواقع أنه لا يوجد ما يؤكد لنا أن هذه ليست الا آلهة مصرية أضيفت الى آلهة سابقة · وعلى أية حال فان بعض الأسماء الالهية تم عن أصل سابق للمصرية ·

ويجب أن نلحظ هنا أن كثيرا من الآلهة لا تحمل اسمها الحقيقى ، وقد كان الاسم يحمل عند الأقدمين ذات الشىء وجوهره ويمنح من يعرفه بعض القدرة على هذا الشىء ، وعلى هذا كان من الأهمية البالغة ألا يباح باسمه الحقيقى الى أى كائن مهما كان · وقد عرف التاريخ كيف يتكشف أسماء آلهة وعبادات ومازالت متشابكة الخيوط ·

ان الدين الذى نعالج موضوعه قد بلغ الغاية فى تطوره كما أن الخصائص التى كانت له فى الدولة القديمة تماثل فى مجموعها الخصائص التى بدأ فيها فى العصر المتأخر ومن الأفضل أن نبين ملامح هذه الكتلة الضخمة من الآلهة المصرية وتبدأ بالطائفة العظيمة من الآلهة المحلية فى كل مدينة وقرية أو حتى فى الصحراء ثم أن هناك مجموعة ثانية من المعبودات شائعة فى مصر بأكملها ولها سمات جغرافية • وعلى مدى التاريخ انضم اليها ، أى هذه الالهة الوطنية فى غضون التاريخ ، بعض المعبودات الأجنبية التى استعيرت من الشعوب المجاورة وتمصرت الى حد ما • وأخيرا اذا ولجنا الى المعابد نجد ان الآلهة المحلية توجد فى أسمى رتبـــة فى جميع المصنفات اللاهوتيـة فرع اله هليوبولس وتحوت اله هرموبولس تقدم لهما العبادة فى كل مكان •

وعندما يلم المرء بعلم لاهوتى فانه يتبين خصائص لها فى كل مكان • ثم اننا سنجد معبودات ليس لها أية عبادة محلية وقديمة • ولكن اسمها جلى فى اللغة المصرية وهى العناصر الأربعة التى آلهت : الأرض والسماء والهواء والماء والمحيط الأزلى تصـورونه فى أشكال مختلفة •

وأخيرا نخص بالذكر آلهة الامبراطورية العظام بتاح وآمون وآتون وقد ارتقت بتطور التاريخ الى أعظم المصائر رفعة وقد رأى الكهنة أن يعمقوا فى أغوار طبائعها وينسبون اليهـا علم لاهوت المراكز الدينية العظيمة التى عرفت كيف تصنع الآراء عن الطبيعة الالهية وتنصب فى النهاية فى تيار علم اللاهوت (١) •

---

(١) فرانسوا دوماس : آلهة مصر : ترجمة زكى موسى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ ، صص ١٨ ـ ٢٠ •

وكان من أهم مظاهر تلك الحياة الدينية الحافلة ظهور طبقه الكهنـة الذين تعـددت درجاتهم منهم الكاهن الخادم ، والكاهن المساعد ، والكاهن القارىء وكان الكهنة هم الذين يقررون مسبقا برامج الاحتفال بالأعياد ومدتها • كانوا هم أيضا الذين يقومون بجميع الطقوس الدينية سواء فى المنازل أو المعابد أو القصور لذلك كان لهم وضعهم المتميز كطبقة اجتماعية لهـا وظائفها المؤثرة فى الحياة العامة (١) •

ومجمل القول ان دراسـة الديانة المصرية ما تزال فى طور الطفولة • وقد شهدت السنوات الأخيرة ظهور اتجاه بارز ينزع الى الاعتماد على مضمون النصوص المصرية عند دراستها اعتمادا يفوق ما اعتاده علماء الجيل السابق ، وليس بوسعنا أن نفهم الأدب الدينى ولو بعض الشىء ـ من وجهة نظـر مؤلفيه وهو بالتحديد أصعب الأمور التى يلاقيها العلماء فى دراستهم (٢) •

والحقيقة فى هذه الدراسة أننا أمام عدد لا يستهان به من الدراسات العلمية المفصلة فى الديانة المصرية القديمة والآلهة المصرية والرمز والأسـطورة والمعبودات فى هذه الدراسات كلها لها سمة التخصص مما يحيد عن موضوع دراستنا فى هذا البحث • لذلك فقد حاولنا الالمام بالاطار العام لهذه الأحوال الدينية حتى لا نقع فريسة لهذه الدراسـات المتخصصـة والتى قد تخرج بنا عن طبيعة هذا البحث •

---

(١) نمين سلامة : مرجع سابق ، ص ١٢٢ ـ ١٢٤ •

(٢) رندل كلارك : الرمز والأسطورة ، فى مصر القديمة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨ ، ص ٩ •

الفصـل الثـامن

دراسة عن الأحوال العسكرية فى مصر وأسباب وأشكال الصراع مع الاشارة الى أمثلة تاريخية قديمة

تمهيــد : ـ

فى الواقع أن دراسة التاريخ العسكرى أو الحربى لكل دولة أو أمة من الأمم عبر عصـور التاريخ المختلفة ـ يمثل لأبناء هذه الدول كل الفخر والشرف لهم ولأبنائهم من بعدهم ، وليس معنى ذلك أن السجلات التاريخية لكل الأمم حافلة بالانتصارات خالية من الهزائم ، ان من يعتقد هذا فهو لا يعى تماما حقائق التاريخ العسكرى كما ينبغى أن تكون ٠

والتاريخ العسـكرى لأية أمة يتألف من المعارك العسـكرية المتتابعة التى حارب فيها الشعب ، وأحوال جيوشها أو تطورها ، والوقائع التى خاضتها والقادة الذين أبلوا فيها ، وما الى ذلك من شئون تتصل بالحياة العسكرية وهى قائمة طويلة لا تعد ولا تحصى من الموضوعات الفرعية ٠

ولقد أهملت دراسة التاريخ العسكرى العديد من البلاد . ومن بينها مصر التى لا تزال بعض حلقات التاريخ العسكرى لها معقدة لم يتناولها باحث أو منقب ·

فالمعارك التى خاض أوراها المصريون منذ فجر حياتهم ما تزال حتى اليوم غامضة ، شأنها كطلاسم القدماء · مع أن الحوادث العسكرية لو تمحصت وجرت عليها البحوث بصورة فنية علمية ، لتبدد من حولها الغموض ، ولكانت عاملا ذا شأن فى صقل الروح الوطنية · فلا ريب أن تاريخنا العسكرى ، اذ لم يكن قد فاق أمثاله فى تاريخ الأمم الأخرى ، فلا يقل عنه خطورة ·

فقد نهض الجيش الوطنى المصرى منذ تكوينه بأروع الواجبات وصلة هذا الجيش بتاريخ مصر وثيقة منذ ستة آلاف عام · وهذه المدة على وجه التقريب هى أيضا تاريخ الجيش المصرى ·

وقد ساعد الموقع الجغرافى فى مصر مساعدة عظمى ــ فكان من أشق الأمور وأصعبها اغارة الجيران القدامى وكانت صحراء ليبيا أو سيناء أو النوبة الى حد ما عائقا يقف عقبة أمام المغيرين عليها · على حين أن سواحلها الشمالية لم تتعرض لأى خطر كبير ·

ففى ذلك العهد ، لم يكن لمصر أعداء لهم أساطيل قوية تهاجم شواطئها · أما الأقوام الذين يسكنون وراء حدودها الشرقية والجنوبية ، فانهم كانوا أقل منها مدنية وثقافة وقوة ، فكان خطرهم بتهديد سلامتها شيئا لا يحسب له حساب · ثم نهض المصريون للحفاظ على رفعة وطنهم ، وكانوا فى ذلك مدفوعين بغريزة الحرص على الحياة ، والدفاع عن النفس ، فانطلقت الجيوش المصرية الى هضاب آسيا الصغرى ، وروابى سورية ، وبادية شبه الجزيرة . الأراضى الليبية ، وأعالى النيل ·

ولم تكن المراحل التاريخية التى مرت بمصر مراحل كلها مراحل تقدم وظفر ونصر فحسب ، بل مرت بها أيضا فترات خمول كالتى مرت على جميع دول العالم التى سادت فى يوم من أيامها أو تسود اليوم ، فكما لا يغيب عن البال لا توجد أمة خلقت قوية أو ظلت محتفظة بحيويتها طوال حياتها ، فهى فى ذلك كالفرد يتعرض للعلل والأمراض ، أى عوامل الضعف والوهن • ومصر احدى هذه الأمم ، غزاها أقوام ، كان أولهم بدو سيناء ، فالهكسوس ، فدانت لهم الأراضى المصرية ، ولكن لم تعترف بسلطتهم على النفوس ، وأعقب احتلالهم ببعث ونهوض ، فأضاف المصريون تراثا جديدا ، وأدركوا أين وكيف يحمون دولتهم •

حارب الجندى المصرى فى آسيا وأفريقيا وأوروبا ، فوطئت أقدامه أرضها ، وامتطى ظهر مياهها ، وامتزجت دماؤها بتربتها ، وخلد ذكرى لم يدانيها جندى مثله ، فقد حمل الجندى المصرى أعلام النصر والأمم كلها تتيه فى بيداء الجهالة •

وقد قاد هؤلاء الرجال قادة عظام من أمثال مينا وأحمس وتحتوتمس ورمسيس وصلاح الدين وابن طولون وبيبرس البندقدارى وسيف الدين قطز ومحمد بن قلاوون ، وعلى بك الكبير وابراهيم ابن محمد على وغيرهم • فكان كل منهم يضيف نصرا على نصر ومجدا على مجد •

ولماذا نرتد الى الماضى السحيق وقد رفع هذا الجندى أعلام النصر على روابى جزيرة كريت واليونان والأناضول ، وبفضل حماس هذا الجندى امتدت حدود بلادنا الى منابع النيل فى الجنوب ، وحتى سواحل المحيط الهندى كما أن أباطرة روما كانوا استنجدوا بالجيش المصرى فى معارك شتى ، بعد أن باءت قواتهم بالفشل •

لقد عاشت مصر مثلما تعيش أمة مستقلة بفضل جنودها ، ومن هذا الوادى تدفقت الجيوش المصرية رافعة أعلامها ، لا تستحثها رغبة التوسع على حساب الآخرين · فالمصريين فى شتى حروبهم ، كانوا أبدا دائبين للوصول الى حدودهم الطبيعية ليأمنوا غزوات المعتدين أو نقض المتعاقدين من أجل الدفاع عن حليف أو صديق ·

كانت الجندية فى مصر القديمـة فى طليعة المهن التى تسبغ الشرف على صاحبها ، وتمنحه ميزة ـ اذا لم تكن ميزات ـ على أقرانه ، بل أكثر من ذلك ان الجندى حظى بالتقدير والاحترام مثلما حظى الكاهن نفسه ·

وأمعانا فى السـمو بروح الجندية ، ظلت وقفا على طبقات خاصة من الشعب ، كما ظلت مستأثرة بسمعتها وقيمتها ، وإن كان هذا لا يمنع أن تكون خدمتها اجبارية فى الظروف الطارئة وهى ظروف الحرب ·

وتتبدى هذه الظـاهرة بجلاء حين نشاهد النقوش الأثرية مشتملة على صور الفتية من الجنود ، وهم يتنقلون فى صفوف منتظمة ، أو فى أفنية التدريب ، يعدون أو يتلقون دروس الرماية بالقوس ، أو الطعن بالحراب · ولما عرفت مصر ميزات الأسـلحة المدرعة والسريعة أدخلتها فى جيوشـها ، ودربت جندهـا على استخدامها ·

بل ان هذا الاجلال الذى بسطته الدولة على الجندية جعلت الشباب يطمع فيها ، ولا ينفك يسعى اليها ، فلم يك بدعا ان تموج المدن المصرية فى أيـام الفراعنة ، بالشباب المتوقد حماسا ونشاطا الزاخر بالاقدام وحب الجندية ·

وانما كلما نتأمل تمـارين القتال البادية على النقوش الأثرية تمثل لنا صـــورة رائعة لأمة حربية آلفت الحرب لأنهـــا آمنت بأن الأمن والسلام لا يتأتى الا فى ظل النصر .

وليس هذا فحسب كل ما أحرزه الجنود المصريون من مزايا ، فقد منحهم الملوك والفراعنة والســـلاطين أشتاتا من المزايا ، لم يشاركهم فيها أحد من الطبقات الأخرى سوى رجال الدين ، فقد جرى على منح الجندى الذى يزود عن حياض وطنـه ما يفوق على عشرة أفدنة معفاة من الضرائب . يستغلها أهله اذا ولى وجهه شطر ميدان الجهاد ، فاذا عاد من ميادين القتال ركن الى مزرعته ، حتى اذا استدعاه الفرعون لكى يشمر عن سـاعده ألقى الجندى فأسـه جانبا وتقلد سلاحه وغادر أرضه الى ميدان القتال .

وما يقـال بأن الجنـود المصرية كانت تمتلك ثلث الأراضى الزراعية ، على عهد حكم أسرة سنوسرت ما يكفى للدلالة على صدق ما رويناه . ومن الامتيازات التى كان يتمتع بها الجندى المصرى أيضا ، أن لا يودع السجن اذا لم يدفع دينا فى عنقه ، ولا يتولى القبض عليه رجال السلطة المدنية ، بل كانت جل شؤونه يهيمن عليها العسكريون وكان كل جندى يحافظ على جميع أدوات القتال الضرورية كما يحافظ على حياته .

فقد كان على أهبة القتال لدى نداء الوطن ، أو حينما يستدعى لتأدية الخدمة العسكرية ، فى احدى الحاميات ، أو قلاع الحدود . ولم يك يقبض على الجندى لغير جنايتى السرقة أو القتل بشرط أن يضبط متلبسا بارتكاب أيهما .

وفى مصر الفرعونية لم يتقاض الجندى راتبا ما ، ولكن اذا ما انطلق للحرب كانت توزع عليه ادارة الجيش طعامه وشرابه .

ولم تصل الينا مقادير الكميات التي كان يتناولها الجندي ، ونظن أنه كان يتساوى وجندي الحرس الملكي الذي كان يتلقى تعيينا يوميا مؤلفا من رطلين من لحم البقر وخمسة أرطال من الخبز وكمية من الشراب ومثل هذه الكمية وفيرة للغاية .

وكان حظ الجندي المصري من الغنائم يجري بطريقة عادلة ، فبعد انتهاء المعركة تبدأ الكتيبة في احصاء أكوام الأيدي التي تقطع من أجساد الأعداء ، وعندما يتم هذا تصنف الغنائم وتوزع على الجنود بما يناسب نصيب كل وحدة من قتلى الأعداء ، وما يتبقى من الغنائم من الأسلحة والنفائس يجمعها الحراس وبعاد احصاؤها ومن ثم تنقل الى مصر ليشهدها الشعب عن قرب .

ولا يغرب عن الفكر أن الجيش المصري كان أول جيوش العالم في استخدام الموسيقى ليسير الجندي على انغامها ، في خطى متزنة . يمين ... كما كان الجندي المصري أول من استخدم وسائل التخفية الطبيعية والصناعية لكي لا يظهر للعدو في وضوح ، فكان يطلني غطاء رأسه وملابسه وعربته وجواده ، بطلاء ملون في غير انسجام وعلى نسق ما يفعل اليوم الجند في عرباتهم المسلحة ودباباتهم وعنادهم الحربي . كما أن كلمة « نفر » التي يعرف بها جندي اليوم هي كلمة فرعونية Nefer ومعناها الشاب الصالح ، وكلمة أمير التي تطلق على قائد الوحدة الكبيرة والتي معناها أو تعادل رتبة لواء (أمير ميشا) (١) .

الأحوال العسكرية في مصر في عصور ما قبل التاريخ :

ان تاريخ مصر يعد من أجل تواريخ الأمم وأعظمها وأرفعها شأنا ، ومجدها العسكرية قد ملأ أسماع الدنيا وسيظل يملاؤها

---

(١) عبد الرحمن فهمي : (د.) : مرجع سابق ، صص ٣ ـ ٧ .

ما جرى ماء النيل ، وبقيت أرض مصر ، ان تراث مصر التاريخى والحضارى كان أمانة فى يد جيشها الباسل وهو تراث ضخم عريق كبير ، قل أن يتوافر مثله لشعب من شعوب الأرض أو تضمه أرض أمة من الأمم .

ان التاريخ والآثار هما من أهم الوسائل التى نستطيع من خلالها دراسة تاريخنا العسكرى ، والذى منه نستطيع ان نعمق الشعور بالانتماء القوى الى مصر والاعتزاز بكل ما هو مصرى والارتباط بأرض هذا الوطن .

أنه من المستحيل أن نفهم أنفسنا ونقرر قدراتنا الا اذا ألممنا بماضينا الذى نحن من صنعه ونسيجه ، بل ان فهمنا لماضينا ما هو الا فهم لذواتنا .

ان تتبع سيرة تاريخنا العسكرى والحضارى بسلبياته وايجابياته ، بطفولته وخبراته على مدى آلاف السنين لجدير بأن يزرع الثقة فى نفوسنا ويساعدنا على تخطى النكسات والكوارث التى تبدو فى ضوء استمرارية الوجود العسكرى المصرى ظواهر فنية وطارئه .

ان ذلك الزعم أو الرأى القائل بأن شعب مصر القديمة كان عزوفا عن القتال كارها له ، وانه كان ينفر ويبعد عنها نتيجة لعجزه عن ممارستها وعدم ميله للاقدام عليها لزعم كاذب ورأى باطل ، ان المصريين القدماء كانوا بالفعل شعبا مسالما كان ينعم بالاستقرار والسلام . ولكن اذا دعى داعى الحرب فان الشعب المصرى كان ينهض عن بكرة أبيه يحمل سلاحه للكفاح والاستبسال

ضد الأعداء مهما بلغت قوتهم أو عتادهم أو شهرتهم الحربية (١) .

واذا عدنا الى عصور ما قبل التاريخ المصرى ، لوجدنا انه خلال العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث يكاد يخلو التاريخ العسكرى المصرى من أية اشارات أو آثار أو وثائق تدل على وجود أى نوع من الصدام العسكرى الداخلى أو الخارجى . بمعنى أن الانسان المصرى كما عرفنا مما سبق الحديث عن حياته خلال تلك العصور ، لم تكن قد توصل بعد الى حياة الاستقرار أو اكتشاف الزراعة ، أو بلغ من المستوى الحضارى والوحدة الاجتماعية والسياسية ما يؤهله للتفكير فى اعداد الجيوش وتنظيمها وتدريبها ، بل اقتصر الصراع خلال تلك الأحقاب التاريخية السحيقة ضد الطبيعة بما فيها (من الحيوان وغير ذلك) وكذلك الظروف القاسية المحيطة به ، فصنع هذا الانسان لنفسه بعض الأسلحة البدائية البعض منها من العظام والآخر من الأحجار مثل السكاكين والحراب ، وغير ذلك من الأسلحة التى يستطيع بها صيد الحيوانات وقتلها لطعامه أو دفاعا عن نفسه ، وبدخول الانسان المصرى عصر المعادن بدأت تتجلى قدرة هذا الانسان على فرض ارادته على البيئة المحيطة به والتأثير فيها وتسخيرها لمصلحته . فعرف الزراعة والاستقرار ثم كان لاكتشافه لبعض المعادن نقطة تحول هامة فى تاريخ الحضارة المصرية بل والحضارات القديمة ، فاكتشف النحاس والصوان والحديد وغير ذلك ، وتعددت هذه الأنواع من الأسلحة ذات الأشكال المختلفة والأغراض المختلفة ، وتطورت بتطور الأيام من أسلحة ذات نصل واحد أو ذات نصلين ، وعرف الرمح والأسهم والبلط وغير ذلك .

---

(١) احمد قدرى (د.) : المؤسسة العسكرية المصرية فى عهد الامبراطورية ، القاهرة ، هيئة الآثار المصرية ، ١٩٨٥ ، صص م - س .

الجيش المصرى فى عصر ما قبل الأسرات :

المقصود بالجيش ، مجموعة الأفراد المسلحين والمنظمين الذين يكلفون بأعمال القتال البرية ، ويتألف من الأفراد الذين يتدربون عسكريا للدفاع عن الدولة • ويطلق هذا التعريف العام على جميع الذين يحترفون مهنة الجندية ويتخذونها عملا مستديما ، وكذلك أفراد قوات الاحتياط الذين يتدربون على القتال • وقد تطورت فى خلال التاريخ نظم الجيوش تبعا لتغير النظم الاجتماعية والعقائد السياسية عند الشعوب • وأخذت الجيوش تبعا لذلك أنماط مختلفة على مر العهود • ولا يخفى أيضا مدى ما كان لتطور الأسلحة من آثار على تنظيم الجيوش ، فضلا عن التطور التكنولوجى فى زمن من الأزمنة ، كانت المشـــاه هى عماد الجيش ، وفى زمن آخر استبدلوا بالفرسان المسلحين ، ونرى اليوم المدرعات الميكانيكية هى التى يقع على عاتقها أعنف مراحل القتال • وكانت الجيوش فى بعض العصـــور تؤلف من الجنود المحترفين أو المتطـوعين أو المرتزقة • هؤلاء الذين يحاربون سعيا وراء الغنائم والحصول على المال أو الشهرة والحفاوة • وفى بعض الأزمنة تألفت الجيوش من الوطنيين الذين يقاتلون فى سبيل الدفاع عن أوطانهم ومن أجل المثل العليا • وهؤلاء يعتبرون القتال حقا لهم وليس واجبا •

وهكذا تنوعت وتطورت نظم الجيوش بين الشعوب ، مواكبة تطور الأحوال الاجتماعية فى العالم • ولقد كانت مصر منذ القدم أسبق الأمم فى تكوين الجيوش المنظمة والمدربة منذ أيام الدولة القديمة •

وقبل أن نتحدث عن أحوال الجيش منذ أقدم عصور مصر التاريخية ، ينبغى أن نلم بالمراحل التى مرت بها البلاد فى العصر

العتيق (ما قبل التاريخ) وقد أوجز المؤرخون تلك المراحل فى أربع هى كالآتى : ـ

١ ـ كانت البلاد منقسمة الى مملكتين مملكة الشمال وعاصمتها بوتو ، ومملكة الجنوب وعاصمتها نخن (الكوم الأحمر بمركز ادفو) ·

٢ ـ بعد ان استولت مملكة الشمال على مملكة الجنوب ، وحدت البلاد وكانت كل فترة من هاتين الفترتين طويلة جدا ·

٣ ـ توصل الجنوب فى فترة يصعب تحديدها الى التمرد على الشمال ، وخلال هذه الفترة حكم الملكان عقرب ، ونرمر ·

٤ ـ توحدت مصر من جديد ، ولكن ملوك الجنوب هم الذين كانت لهم الغلبة هذه المرة على ملوك الشمال · ومنذ ذلك الوقت دخلت مصر فى الحقبة التاريخية ، وبدأت الأسرات المصرية ·

ومن المحتمل أنه كانت محاولات فى سبيل توحيد مصر قبل مينا ، بيد أن تلك الوحدة لم يكتب لها الاستمرار أما وحدة مينا أو نرمر فهى التى بقيت واستقرت ، وجعلت مصر دولة واحدة ، تولى أمرهـا عدد كبير من الأسرات المصرية حتى فتحها الفرس والاسكندر الأكبر ·

وفى خضم تلك الأحداث أصبح للعسكريين قطاع هام فى المجتمع وكانوا كثيرون من أفراد جميع الطبقات ، لذلك لا يمكن اعتبارهم طبقة ممتازة أو متميزة عن غيرها · أما بعد وحدة البلاد ، فمن المحتمل جدا أن يكون المحاربون جميعا من شعب البلاد التى ينتمى اليها الملك أو الحاكم ، ولما استتب السلام والأمن فى ربوع

مصر واستقرت سلطة الملك فى طول البلاد وعرضها ، وامتداد التجنيد حتى عم جميع أفراد الشعب بلا استثناء (١) ٠

الأمن الداخلى فى العصر العتيق :

كانت الوحدة فى ذلك الوقت فى أول عهدها ، وكانت النظم فى بداية نضجها ، ولذلك كان من الطبيعى أن تضطرب الأمور بعض الشىء ، وتظهر الفتن السياسية والدينية بين الحين والحين ، قبل أن تصل البلاد الى كمال نضجها فى ظل اتحادها وتتمتع بالاستقرار الذى عرفته خلال الدولة القديمة ٠

لم تكن وحدة القطرين أمرا هينا سهلا ، فبذور الانفصال العميقة الجذور ، لا يمكن أن يقضى عليها مجرد الانتصار الحربى ، وهكذا لم تكد تتم الوحدة حتى نجد مينا يشيد منف ويحيطها بسور ضخم لحمايتها من بعض الثورات التى كانت تقوم على الأرجح بين سكان مصر السفلى المغلوبين على أمرهم ، وربما استمرت القلاقل خلال الأسرة الأولى لأننا نجد أول ملوك الأسرة الثانية يتخذ لنفسه اسم (حتب غنحوى) ومعناه مهدىء القوتين ٠ ثم نعرف بعد ذلك أن (نى ــ نتر) من ملوك الأسرة الثانية حارب مدينة (ثم رع) ومدينة بيت الشمال بالوجه البحرى ٠ ويزيد من اضطراب الأمور فى هذه الفترة حدوث فتنة دينية كبرى فى النصف الثانى من الأسرة الثانية ، تتمثل فى رد فعل شديد ضد نفوذ الاله حورس اذ نرى الملك « برى أب سن » ضع سخم يحذف اسم حورس من القابه ، ويضع بدلا منه منافسه القديم ست ، بل يذهب أبعد من ذلك فيضع ست فوق اسمه المكتوب داخل رسم بمثل واجهة القصر ، ويعلن انه هو رمزه تمثل فيه ٠ ولكن هذا التعبير لم يدم بعد وفاته

---

(١) عبد الرحمن زكى و (د٠) : مرجع سابق ، صص ٢٠ ــ ٢١ ٠

لأن خلفه على العرش خع سنحموى عاد الى عبادة حورس وتمجيده مرة ثانية ٠

وانتهى هذا الصراع الدينى نتيجة لجهود سنحموى الذى اتخذ لنفسه شعار الالهين حورس وست مجتمعين فاستطاع بذلك أن يرد الى البلاد نعمة الهدوء والاستقرار (١) ٠

والواقع ان الأمن الداخلى فى مصر خلال فترة حكم الملك العقرب ونرمر وسلالة ملوك الأسرة الأولى والثانية قد صادفه الكثير من العقبات المتمثلة فى الآتى : ـ

أولا : كثرة ثورات حكام الأقاليم تحت حكم مملكة الشمال وكذلك مملكة الجنوب ٠

ثانيا : كثرة المناوشات العسكرية وشبه العسكرية بين حكام مملكتى الشمال والجنوب ٠

ثالثا : كثرة المناوشات ضد المهاجرين الى مصر من جهة الشرق من البدو ومن جهة الغرب من الليبيين ومن جهة الجنوب من النوبيين ٠

رابعا : حتى بعد قيام الوحدة لم يخل الأمر من الصراع بين سكان الشمال والجنوب لأية أسباب اقتصادية دينية أو اجتماعية ٠

---

(١) بهاء الدين ابراهيم (د٠) : الشرطة والأمن الداخلى فى مصر القديمة ، القاهرة ، هيئة الآثار المصرية ، ١٩٨٦ ص ٢١ ٠

خامسا : لم يكن للملوك خلال هذه الفترة من القوة ما يسمح لهم بالسيطرة على جميع أنحاء المملكة وفرض سلطانهم عليها لقلة عدد الجيش واتساع أرجاء المملكة ٠

سادسا : اهتمام الملوك بتوزيع القوات المتوافرة لديهم للدفاع عن حدود المملكة أو حماية العاصمة والحراسة الشخصية ٠

لهذه الأسباب وأسباب أخرى اضطرب الأمن الداخلى فى مصر خلال تلك الفترة حتى جاء حكم فراعين الدولة القديمة الذين استطاعوا السيطرة على زمام الأمور ٠

لمحة سريعة عن صناعة الأسلحة فى مصر القديمة :

قبل أن نتكلم عن صناعة الأسلحة فى مصر القديمة ، جدير بنا أن نوضح أهم المعادن التى كانت تصنع منها تلك الأسلحة كالسيف ، والمدية ، والخنجر ، والرمح ، والسهم ، والبلطة ، وبعض أجزاء العجلة الحربية ٠

اتفق معظم علماء الآثار على اطلاق أسماء أهم المعادن المعروفة فى العصور التاريخية البارزة منذ القدم وأهمها : ـ

١ ـ عصر النحاس ويمتد بين عام ٤٠٠٠ ق٠م ـ عام ٢٠٠٠ ق٠م ٠

٢ ـ عصر البرونز ويمتد بين عام ٢٠٠٠ ق٠م ـ عام ١١٥٠ ق٠م ٠

٣ ـ عصر الحديد ويمتد بين عام ١١٥٠ ق٠م ـ عام عصر الصلب ٠

وقد مرت الحضارات القديمة بالشرق الوسيط ، وهي حضارات الآشوريين والمصريين والفينيقيين خلال تلك العصور ، وكان انتقال احداها من عصر معدني الى آخر يلاحقه تطور حضاري كبير ، وكان له أكبر الأثر في تطور شامل بعيد المدى في كافة الاتجاهات ٠

وكان استغلال النحاس من مناجم سيناء حتى الأسرات المصرية القديمة الأولى من أهم ما أنسمت به حضارة قدماء المصريين ، كذلك استغلت مناجم الذهب في صحراء مصر الشرقية ٠ ذلك لأن النحاس كان منذ بدء الحضارات المعدن الرئيسي للمعاملة بين دول العالم القديم ، حتى حل البرونز مكانه ٠ فلا غرو أن يكون لمصر السيادة في شرق البحر الأبيض المتوسط زمنا طويلا امتد على الأقل الى القرن الثالث عشر ق٠م ٠

ومن الطبيعي أن صناعة الأسلحة في مصر تطورت حسب تلك العصور المدنية المختلفة ٠

ونقسم أسلحة قدماء المصريين الى قسمين :

١ ـ الأسلحة الهجومية وهي : الفؤس ، الرمح ، الجريدة ، المقلاع ، السيف القصير المستقيم ، الخنجر ، المدبة ، السيف القصير المحدب ، البلطة ذات اليد القصيرة ، بلطة القتال ، الصولجان ، اللبسان الذى يشبه العصى المعوجة ٠

٢ ـ الأسلحة الدفاعية : وتشمل الخوذة ، واقية الرأس ، الدرع سترة الزود المصنوعة من الصفائح المعدنية ٠

والحقيقة أن جميع هذه الأسلحة لم تظهر فى فترة واحدة بل تطلب اكتشاف وامكانية صناعة الأسلحة فترات طويلة امتدت من عصر ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة الحديثة (١) ٠

أمثلة لمعارك الجيش المصرى :

معركة مجدو ٠

معركة قادش (١) ٠

---

(١) عبد الرحمن زكى (د٠) : مرجع سابق ، صص ٨٩ ـ ٩٣ ٠

ملحق الوثائق

الوثيقة رقم (١)

من الأمثلة التاريخية القديمة

على بطولات الجيش المصرى هما معركة مجدو وقادش اللتين صورتهما الآثار التاريخية التى وصلتنا أروع تصوير ، واللتين أشاد بهما كبار الخبراء العسكريين والمؤرخين الأجانب ، وصدر بخصوصها العديد من المراجع الهامة وسوف نستعرض خلال الصفحات التالية تفاصيل هاتين المعركتين .

أولا : معركة مجدو :

لمعركة مجدو فى تاريخ مصر خاصة والشرق عامة مكانة كبرى فهى من أشهر أحداث العـالم القديم ولذلك يجب أن نخوض فى غمارها وأن نجول بمواقعها أولا :

أرض المعركة :

حدثت وقائع هذه المعركة بمنطقة مرج بن عامر ، وهو عبارة عن سهل فسيح منبسط بين جبال الجليل فى الشمال والسامرة فى الجنوب والكرمل فى الغرب ، يضيق قرب حيفا لينفذ الى سهل عكا . الساحلى ــ ثم يتصاغر عند جنين فى الجنوب وينحدر فى نؤدة شرقا الى بيسان (غور الأردن) ويحف به جبل طابور الجاثم

فى شماله الشرقى . قلما تقع العين على أزهى من حلته القشيبة التى يكسو اياها الربيع حتى اذا جاء الصيف جرده منها ، فاذا جاء الشـــتاء هطلت الأمطــار بقوة فانتزعت نهيره (المقطع) فيتدفق (نهر الوقائــع) الى البحر واذا بالميــاه تفيض على جانبيه واذا بالمستنقعات منتشره وليس مرج ابن عامر هذا بمنقطع عن الدنيا رغم انحصاره ، فان الجبال أبت الا أن تنحسر عنه قليلا فى أطرافه فكونت له أودية يتصل بها سهل عكا ومكنته من الاتصال بمنطقة بحيرة طبرية والحولة من الشمال قرب جبل طابور ومن ثم الى دمشق وما اليها كما أنه يتصل بعجلون وحوران بطريق بيسان . هذا فى الشمال أما فى الجنوب فيتصــــل بالسهل الساحلى الجنوبى ــ سهل شــارون ــ بطريق جنين ــ نابلس ــ طولكرم ــ وبطريق وادى عامرة الجبلى الضيق الوعر وبطريق وادى الراحة الغربى عند ملتقى هذه الطرق وتقاطعــا وفى نهاية وادى ــ عارة وعلى الحد الفاصل بين الكرمل والسامرة وبين السهل والجبل ، وفى مكان يشرف على أجزاء المرج من أدناه الى أقصاه وعلى بعد نحو ثلاثين كيلو مترا الى الجنوب الشرقى من حيفا يقع تل « مجدو » .

ولا شك فى أن مرج ابن عامر هو طريق الاتصال الطبيعى بين شمال سوريا وجنوبها ومن ثم بين العراق وآسيا الصغرى من جهة ، وبين وادى النيل من جهة أخرى ، وقد كانت القوافل التى تدخل مرج بن عامر من ســـهل عكا ــ انما تفعل ذلك لتعبره الى السامرة بطريق جنين أو ال شارون بطريق مجدو .

وهذا الموقع المهم حربيا وتجاريا استرعى نظر الفاتحين ورجال الحكم من أقدم الأزمنة الى وجوب العناية بهذه المسالك ، والاحتفاظ بهذا السهل وجعله فى قبضتهم فيسعى كل زعيم الى الاستحواذ عليه . وقد أقيمت سلسلة من الحصون والقلاع قرب منافذ المسالك

التى ذكرت . أهمهـــا بيت شـــان (بيســـان) ومجـدو (تل المتسلم) ودور (الطنطورة) على الساحل ، وتكاد مجدو تكون أكبرها قيمة لتوسطها القلاع والطرق ، ويلى هذه الأربع فى الأهمية قلعة طـابور التى حصـــنت مرات عـــدة ويقنعـــام (القيمـون أو الكيمون الآن) .

وتل مجدو هذا تبلغ مساحة قمته ٥٣٠٠٠ متر مربع ، ينحدر نحو الغرب والجنوب الغربى انحدارا فجائيا ، أما الجهات الأخرى ، وهى المواجهة للسهل فانحدارها تدريجى . الى الشمال عين ماء تسمى (عين القبة) ويعرف التل اليوم باسم « تل المتسلم » ذلك لأن أحد متسلمى عهدة الدولة العثمانية أقام فى ذلك المكان ، ولعل اقامته كانت قصيرة اذ لم يكن هناك آثار أبنية متسعة ولا غيرها ، والمتسلم موظف عثمانى ادارى كان يلتزم بلادا بأكملها فيديرها ويدفع ما عليه من المال اللازم ويلاحظ أن هذا نظام اقطاعى الى حد بعيـد .

وقد عرفت مجدو قديما بأسماء كثيرة منهـا مجدو كما فى يشوع والقضاه ومجدون كما فى زكريا (١٢ : ١١) وهى مجدون كما فى رؤيا يوحنا اللاهوى (١٦/١٦) وتعنى « تل المعارك » وقد أعطت المدينة اسمها للسهل المجاور لها فعرف باسم « بقعة مجدو » فى عهد العبرانيين وبقى معروفا بذلك الى العهد الرومانى فان جيروم (٣٤٠ ــ ٤٢٠ م) يذكره باسم سهل مجدو ، سهل اللجون .

ولا تزال هذه البقعة أخصب سهول فلسطين وأوفرهـا ماء وتمتاز بموقعها فى منتصف الطريق العظيم الذى يربط بين مصر وبين بابل والشرق ــ فقد كانت بذلك خير أرض يعسكر فيها جيش ، وقاعدة ترتكز عليها العمليات الحربية فيما بعد فى أى اتجاه ،

وكانت تغل محاصيل وافرة وتهيىء رعى غنيا معظم أيام السـنة لعديد من قطعان الماشية . ومن فوق التلال المشرفة على الناصرة فى يوم صحو فية الأضواء والظلال مواتية يستطيع الانسان أن يرى هناك فى الجانب الآخر « الجنوبى » من السهل نتوءا مسـتوى القمة مطمئنا فى أحضان التلال التى تكون الحدود بين البحر وبين الأرض الداخلية الأكثر ارتفاعا .

هذا هو موقع ارمجدون « تل مجدو » الذى كان يوما مفتاح امتلاك السهل برمته . أما الآن فقد اختفى كل ما يمكن أن يدل على أهميته حتى الاسم قد ضاع فى التسمية الشائعة بين الأهالى وهى « تل المتسلم » غير أن المكان بتسميته القديمة قد ترك فى صحائف التاريخ القديم أثرا لا يمحى .

ولما كانت مجدو تتحكم هكذا فى أكثر الطرق استقامة عند حاجز الكرمل المسـتعرض فقد كانت اذ ذاك معقلا له أهميـة استراتيجية حاسمة . فاذا تسنى الاستيلاء على هذا الحصن القوى تفتحت طرق كثيرة الى عدة بقاع الى الشمال والشرق ، وكان أولا الطريق المباشر المنحدر مع السهل مارا بجزريل وبيسان ثم شمالا صعودا مع نهر الأردن .

أما الثانى فكان يتحد مع الأول حتى جزريل ثم يدور نحو الشمال عابرا المجارى الشرقية الصغيرة فى هرمون حتى يصـل الى وادى الأردن شمال بيسان وكان الثالث يحف بهذا التل مارا خـلال « نين » و « ك أردور » ثم يندمج مع الطرق الأخـرى ، أما الطريق الشمالى الكبير فكان يعبر الممر العميق عند الناصرة ثم يتفرع ، بطريق يتجه الى البحر الجليل والآخر الى هاذور ، ذلك العقل القوى للملك الذى أذل ـ اسرائيل فى عصر القضاة .

أحداث المعركة :

طريق جيش تحوتمس الى مجدو : ســـنكتفى هنا بتلخيص حركات جيش « تحوتمس الثالث » الأولى التى قام بها لتنفيذ خطته التى رســمها لنفسه من بادىء الأمر فقد ســار بجيشه من قلعة « سيل » (وهى القنطرة الحالية) فى اليوم الخامس والعشرين من الشهر الرابع من فصل الشتاء فى السنة الثانية والعشرين من حكمه • وهــذا التاريخ على حسب قول الدكتور نلسن يوافــق ١٩ ابريل سنة ١٤٧٩ ق٠م • مخترقا الصحراء التى تقع على الحدود الشرقية والحدود الجنوبية لفلسطين ، فوصل « غزة » بعد مسيرة عشرة أيام قطع فيها نحو مائة وخمسة وعشرين ميلا وكان قد حط رحــاله فيها فى اليوم الرابع من الشهر الأول من فصل الصيف فى السنة الثانية والعشرين من حكمه • كما يدل على أن الجيش كان يقطع فى سيره يوميا نحو اثنى عشر ميلا ونصف الميل ، وهى سرعة حسنة فى بقاع معظم طرقها صحراوية قاحلة ، وبخاصة اذا عرفنا ان عددا عظيما من جيشه كانوا مشاه • ولم يمكث « تحوتمس » فى بلدة غزة الا ســواد ليلة ، وفى الصباح الباكر سار على رأس جيشــه ميمما شطر « يحم » ، (يحتمل أن تكون يما الحالية) وتقع على مســافة ثمانين ميلا من غزة وعلى الرغم من أن النقوش التى فى متناولنا قد أغفلت ذكر يوم وصوله اليها ، نستطيع أن نستنبط أنه ألقى فيها عصا تسياره فى اليوم الحادى عشر من نفس الشهر ، وذلك اذا فرضنــا انه كان يســير يوميا بنفس السرعة التى كان يزحف بها فى ذهابه الى غزة •

الجيش يعسكر فى بلدة « يحم » ويعقد فيها تحوتمس مجلسا حربيا :

والظاهر أن الجيش قد ضرب خيامه فيها بضعة أيام استطاع فى خلالها تحتوتمس أن يطلق عيونه ليقفوا على مواقع العدو ومكانه ،

وفى اليوم السادس عشر من نفس الشهر عقد الفرعون مجلسه الحربى ليتشـــاور مع ضباطه فى أحسن الطرق التى يجب أن يقتحمها الجيش الى « مجدو » وسيقص المؤرخ المصرى علينا سير الحوادث ٠

(السنة الثالثة والعشرون) الشهر الأول من فصل الصيف اليوم السادس عشر فى بلدة « يحم » لقد أمر جلالته أن يعقد مجلس حربى ليتشاور فيه مع رجال جيشه فيقول : ان هذا العدو الخاسىء صاحب « قادش » قد جاء بجيشه ونصب خيامه فيها ، وهو سيقيم بها فى تلك الآونة وقد ضم اليه كل أفراد الأقاليم الذين كانوا يدينون بخضوعهم لمصر حتى نهر الفرات ومعه الســوريون وقوم « قــودة » بخيلهم وجنودهم وعشــيرتهم ، وانه يقول على حسب ما وصـــل الى مسامعنا ··· سأقف هنا لمحاربة جلالته فى بلدة « مجدو » فحدثونى ما يدور بخلدكم فى هــذا الخطب فأجـابوا جلالته قائلين : كيف يتسنى للمرء أن يسير فى هذا المضيق ؟ ، وقد وصلتنا الأخبار بأن العدو على تمام الاستعداد هناك فى خارج المدينة ، وأن عددهم قد أمسى هائلا ، وهل يكون السير مستطاعا الا اذا سار الجواد والجندى اثر الجندى أيضا ؟ وهل ستكون مقدمة الجيش بهذه الطريقة فى ساحة القتال فى حين أن المؤخرة تكون هناك واقعة هنا فى « عرونة » عاجزة عن محاربة العدو ؟ ٠ على أنه يوجد طريقان آخران واحدة منهما يؤدى الى « تاغناخ » والآخر يقع فى الجهة الشمالية من بلدة « زفتى » مؤديا الى شمال مجدو وبذلك لا نضطر الى أن سلك هذا الطريق الوعر ٠

وفى هــذه الأثنــاء جىء بمعلومات عن ذلك العدو الخاسىء وبذلك استمر النقاش فى موضوع الخطة التى كانوا يتحدثون عنها فيما قبل ٠

ثم أجاب الملك قائلا :

انى مادمت حيا ومادام الاله « رع » يحبنى ومادام والدى « آمون » يراعانى ومادام نفس الحياة ينعشنى بالحياة والقوة ، فلم أسلك الا هذه الطرق المؤدية الى « عرونة » وليذهب منكم من يشاء فى احدى هاتين الطريقين الآخريين اللتان تحدثتم عنها وليتبعنى منكم من يريد أن سلك الطريق التى سيتخذها جلالتى لأن الأعداء الذين يمقتهم الاله « رع » سيقولون : هل سلك جلالته طريقا آخر لأنه يخاف بأسنا وبطشنا وعندئذ أجابوا على جلالته قائلين : ليت الاله « آمون » والدك رب تيجان الأرضين وساكن الكرنك يرعى شعبك ويتعهده : نأمل . أنا سنكون فى ركاب جلالتك أينما توجهت لأنه من واجب الخادم أن يتبع سيده دائما . وعندئذ أمر جلالته باصدار اعلان لكل الجيش جاء فيه : ــ

ان سيدكم المظفر سيكون فى طليعتكم لاقتحام ذلك المسلك الوعر الضيق تأملوا . لقد أقسم جلالته يمنيا قائلا انى لم أسمح لجيش أن يشق طريقه ألا فى هذا المكان ، لأن جلالته عقد العزم على أن يتقدم طليعة جيشه بنفسه .

وقد وزعت التعليمات على كل جندى بالأمر بالزحف على أن يكون الجواد فى أثر الجواد فى حين أن جلالته كان يسير فى مقدمة جيشه .

الجيش يعسكر فى عرونا :

وفى السنة الثالثة والعشرين من الشهر الأول من فصيل الصيف اليوم التاسع عشر ، استيقظ الفرعون فى السرادق الملكى الذى كان قد ضرب له فى بلدة « عروثان ثم سار جلالته موليا

وجهه شطر الشمال فى رعاية الاله « آمون » رب تيجان الأرضين لفتح الطريق أمامه ... وكان الاله « آمون رع » يشد ساعد جلالتى ... وزحف جلالته على رأس جيشه المنظم فرقا (ولم يجد للعدو أثرا) **بل كان قد عسكر جناحه الأيسر عند بلدة « تاعناخ »** فى الوقت الذى كان جناحه الأيمن قد ضرب خيامه فى المنحنى الجنوبى من وادى مجرى « قنا » .

وقد نادى جلالته أن يسيروا فى هذا الطريق ، فالتقى بالعدو فكسره وولى ذلك العدو الخاسىء الأدبار .... فيا أيها الجند مجدوا المليك وتغنوا بشجاعة جلالته لأن ساعده أشد بأسا من أى ملك ، *وأنه هو الذى سيحمى مؤخرة جيش الوطن فى « عرونا »* .

كانت مؤخرة الجيش المصرى لا تزال فى بلدة « عرونا » فى حين أن مقدمته قد ظهرت فى وادى مجرى « قنا » وملأ الجنود فم هذا الوادى .

وعندئذ قال رجال الجيش لجلالته : حقا ان جلالته قد ظهر بجيشه المنتصر وملاء جنوده الوادى فليصغ جلالته لقولنا هذه المرة فيحمى لنا سيدنا مؤخرة جيشه وقومه الذين معه ، وعندما تتصل بنا المؤخرة نحارب أولئك الأجانب ، اذ لا تكون فى شغل شاغل من جراء مؤخرة جيشنا . وعلى أثر ذلك اتخذ جلالته مكانه عند فم الوادى حاميا مؤخرة جيشه المظفر ، وعندما تم خروج الفرقة الأمامية على هذه الطريقة كان الظل قد حال (أى عند الظهيرة) .

الجيش يعسكر عند مجدو للاستعداد للموقعة :

ووصل جلالته جنوبى مجدو على شاطىء مجرى نهر قنا فى مدة سبع ساعات بعد ميل الشمس . وقد ضربت خيام معسكر

جلالته هناك ، ثم أصدر أمرا لكل رجال الجيش وهاك نصه : استعدوا أيها الجنود وانتضوا سيوفكم لأن الفرعون سيخوض غمار حرب مع ذلك العدو الخاسيء عند الصباح الباكر لأنه ... ثم ذهب الفرعون ليستريح فى السرداق الملكى ، وقد أمد الضباط بما يحتاجونه ووزعت الجرايات على الجنود ، واتخذ كل حارس مكانه بعد أن تلقى التنبيهات بأن يكون ثابتا فى مكانه شجاعا .

السنة الثالثة والعشرون ، الشهر الأول من الفصل الأول — . اليوم الحادى والعشرون وهو اليوم الذى أعلن فيه الضباط عيد الهلال الجديد ، وفيه ظهر الفرعون فى الصباح وقد أعطى كل رجال الجيش الأوامر من استعداد للمعركة وبعد ذلك انطلق سيادته فى عربته الذهبية الناصعة ، مدججا بدرعه وزرده مثل الاله « حور » القوى الساعد رب البأس ومثل الاله « منتو » اله طيبة (وهو اله الحرب) وكذلك كان والده أمون يشد ساعده .

وكان جناح جيش جلالته الأيسر يقف على ربوة جنوبى « قنا » أما الجناح الأيمن فكان يعسكر فى الشمال الغربى من « مجدو » وكان جلالته فى وسطها يحميه الاله « آمون » فى حومة الوغى . وكان قوة بأس الاله « ست » (اله الحرب) تدب فى أعضائه ، ففاز جلالته فوزا مبينا وهو على رأس جيشه وقد رأوا (أى الأعداء) جلالته والنصر حليفه ، ولذلك ولوا الأدبار نحو « مجدو » بوجوه يغمرها الذعر والهلع تاركين خيلهم وعرباتهم المصنوعة من الذهب والفضة وتسلقوا أسوار هذه المدينة بملابسهم (أى مستعملين ملابسهم ليتسلقوا بها) وذلك لأن أهل المدينة قد أغلقوا أبوابها فى وجوههم ، ولكنهم مع ذلك أدلوا بملابسهم ليجروهم بها الى داخل المدينة ولو أن جنود جلالتى لم يتهالكوا على نهب متاع العدو لكانوا فى استطاعتهم الاستيلاء على « مجدو » وقتئذ عندما كان عدو قادش

الخاسىء وعدو هذه المدينة يجرون متسلقين الأسوار ليدخلوا المدينة هربا لأن الخوف من جلالته كان قد سرى فى أجسامهم وضعفت أسلحتهم ، واستولى جلالته على خيلهم وعرباتهم المصنوعة من الذهب والفضة غنيمة سهلة ، أما صفوف جنودهم فكانوا قد طرحوا أرضا مثل السمك فى جائل شبكة وجيش جلالتى المنتصر كان يفحص متاعهم لأن سرادق هذا العدو الخاسىء الذى كان محلى بالفضة ... وقد أخذ الجيش كله بأسباب الفرح مقدما الثناء لآمون لما وهبه من نصر لابنه فى هذا اليوم ، وكذلك قدموا الشكر لجلالته فخورين بانتصاره ثم أحضروا الغنيمة التى استولوا عليها حتى الأيدى والأسرى والخيل والعربات المصنوعة من الذهب والفضة والكتان الجميل .

وقد درس الأستاذ سليم حسن المؤرخ المصرى ــ معركة مجدو ــ مبينا أهميتها فى تاريخ الحروب قائلا : « ان أهمية سرد حوادث هذه الموقعة لا ينحصر فى وضعها وحسب ــ بل كذلك لأننا نقرأ فى وثيقة تاريخية لأول مرة فى تاريخ العالم أن قائدا حربيا لم تقتصر مواهبه على أنه جندى شجاع وقائد قدير ماهر فقط ، بل كانت لديه الشجاعة كذلك ليخوض غمار مخاطرة قد كان يعرف عواقبها من قبل ليصل الى غرضه بسرعة خاطفة ــ بل أنه قد أظهر فضلا عن ذلك مهارة حربية فى وجه العدو الذى جعله يتأرجح فى يده كاللعبة فى يد الصبى » .

المعركة فى اليوميات التاريخية :

وهـذا ما نقرأه عن وصف المعركة فى اليوميات المدونة على معبد الكرنك . فى الصباح الباكر صدر الأمر الى جميع فرق الجيش بأن تتحرك لتتخذ مواقعها وذهب القائد الباسل فى مركبته الحربية

وقد ارتدى ملابس الحرب مدججا بالسلاح وكان يشبه الاله الصقر رب القوة وقد قوى ساعديه أبوه آمون ورابط الجناح الجنوبي لجيش جلالته فـوق تل واقع في جنوب نهـر تبنا • أما الجناح الشمالي فكان في شمال مجدو الشرقي بينما كان جلالته في قلب نصف الدائرة « وقد أوضح المؤرخ ويجبل ذلك قائلا » في هذا الوضع تحرك الجيش المصرى جنوبا وكان القلب يتألف من نخبة الجيش ، وانتشر الجناحان غربا وشرقا على شكل مروحة للحيلولة دون التفـاف قـوات العدو بمدينة مجدو التي وقفت عاجزة بين الجيشين وأبوابها موصدة وتحرس أسوارهـا حامية ضئيلة وقد اختبأ في المدينة الأمراء المتحالفون الذين اجتمعوا هناك وعندئذ تقدمت قوات العدو بحركة استعداد للقتال نحو الشرق ، وكان فرعون يقوم بمناووراته ليتخذ موقعه غربا ولابد أن يكون الاصطدام بين الجيشين قد حدث في مكان يقع على نحو ميلين من جنـوب المدينة ، وأخيرا قاتل المصريون في أسفل التل في اتجاه جنوبي شرقي ، وحينئذ ـ على ما يقوله المؤرخ ـ هجم الملك ونخبة جيشه على العدو والحقوا به الهزيمة ـ ففر جنوده (أي جنود العدو) وواجهتهم مدينة مجدو واندعر أخذ منهم كل مأخذ تاركين خيلهم ومركباتهم المزخرفة بالفضة والذهب • أما أهل المدينة (مجدو) فقد جذبوا اللاجئين الى داخـــل المدينة بملابسهم لأنهم كانوا قد أوصدوا أبوابها فأدلوا إليهم الثياب وجذبوهم بها •

يخيـــل الينـــا أن تحوتمس باعتماده على السرعة في حركاته المحكمة واجتنابه التعرض لعاملي البطء والانتظار ، وهما عاملان في الحرب الهجومية كان أول من ابتكر الحرب الخاطفة التي عرفت في الحروب الحديثـة ، وقد نجح فيهـا بدليل أن هجوم مركبات فرعون الحربية أفضى الى وحر جيوش يغلب على الظن أنها كانت أكثر عددا من الجنود المصريين فانه على الرغم من أن الجمود الحربي الذي ساد عهد حتشبسوت بدأت مصر منذ عهد أحمس الأول وحروبه

بتحرير البلاد لتصبح دولة عسكرية بمعنى الكلمة فقد كان لها جيش مسلح أتم التسليح ٠

ويقول « دريتون » أن معركة مجدو كانت كارثة للأمراء المتحالفين الذين فروا بلا نظام ولجأوا الى مدينة مجدو المحصنة ٠

وبعد أن لجأ هؤلاء الأمراء الآسيويون الى المدينة قرروا التأهب المدفاع ويقول « دريتون » كذلك فان ملك مجدو أحاط المدينة بخنادق تقطع كل صلة بالخارج ، ومع ذلك فبعد مضى وقت لا نستطيع تقديره لسوء الحظ ـ اضطرت المدينة الى الاستسلام ولم ينج من الأسر واحد من الأمراء المتحالفين اذا استثنينا أمير قادش الذى استطاع الفرار ٠ ويقول الأثرى المؤرخ ويجل أن حصار مجدو لم يدم سوى بضعة أيام ٠ وما أن استسلمت المدينة وخضع الأمراء عفا تحوتمس عنهم وعينهم موظفين أو جعل منهم حكاما تابعين للامبراطورية المصرية فأظهر بذلك تسامحا عظيما ٠ والواقع أن ذلك كان دهاء من تحوتمس أو بالحرب كياسة سياسية لأنه لم يستعمل حقه فى الانتقام الا من زعيم هذا الائتلاف ، ويعنى به أمير قادش الذى لاذ بالفرار فقد قبض على أولاده واقتادهم الى طيبة كرهائن ٠

وجرى تحتوتمس بعد ذلك فى كافة حروبه التى انتهت بالانتصار فى آسيا على سنة القبض على أبناء أمراءها واقتيادهم الى طيبة كرهائن سواء أكان هؤلاء الأمراء مهزومين ، أو حلفاء ثوار أو خاضعين ٠

وهؤلاء الرهائن الذين كانوا يهيأون لحكم بلادهم تحت سيادة الامبراطورية المصرية كانوا يرسلون منذ نعومة أظفارهم الى مدارس أو قل الى الأكاديميات الحربية التى أنشأها تحوتمس فى طيبة لكى

يتلقوا في بيئة مصرية تعليما مطابقا لخطة رسمها الفرعون وقصد بها الى توحيد سياسي وثقافي ، وقد كان من وراء هذا الأسلوب البارع في التربية أن وجد لفراعنة الأسرة الثامنة ولاءا صادقا من الأمراء الأجانب التابعين لهم ·

وعاد تحوتمس الى مصر ، وبلغ طيبة في ١١ أكتوبر ١٤٧٩ ق·م في احتفال رائع ·

الغنـــائم :

ان قائمة الغنائم التي غنمها تحوتمس الثالث في مجدو ، أتى ذكرها في نقوش الكرنك وهي تكشف لنا عن ثروة تلك البـلاد المفتوحة وما كان يتمتع به أمراء سورية ومن نعم العيش والأبهة ، فضلا عن أنها تعطينا فكرة عن مدى ما كانت عليه تلك البلاد من التقدم في الصـناعات والحرف وفنون الحياة · وسـنذكر هنـا بالتفصيل قائمة هذه الأسلاب التي استولى عليها الجيش المصري من مجدو لنعطي فكرة عامة عن مقدار ثراء القوم واستعداداتهم التي كان لابد للفرعون أن يقف أمامها وجها لوجه ·

فاستولى على ثلثمائة وأربعين أسيرا وثمانين يدا (كان الجندي تقطع يده) وألفين وواحد وأربعين فرسا ومائة وتسعين مهرا وستة جياد وعربة مغطاة بالذهب وقضبانها من الذهب من متاع العدو · وعربة جميلة مصـفحة بالذهب يمتلكها أمير مجدو ، وثمانمائة واثنين وتسعين من عربات جيشه المخذول ، مجموعها تسعمائة وأربع وعشرون عربة ودرع جميل من البرونز ملك الأعداء ، ودرع آخر من البرونز لأمير مجدو ·· وعلى مائتي درع من دروع الجيش الخاسر وعلى خمسمائة قوس وسبعة قضبان من خشب المرو مصفحة بالفضة

وهى من قضبان سرداق العدو « واستولى جلالته على شتى أنواع الحيوان من المدينة » ثلثمائة وخمسة وثمانين ··· وألف وتسعمائة وتسعة وعشرين من الحيوانات الكبيرة وألفين من الحيوانات الصغيرة وعشرين ألف وخمسمائة من حيوانات بيضاء صغيرة » ·

هذا بالاضافة الى كل السلع التى هى ملك تلك المدن التى خضعت وأحضرت لجلالته وهى : أربعمائة وسبع وأربعون من نسائهم ، والأمراء الذين كانوا معهم وثمانى وثلاثون سيدة من سيداتهم وسبعة وثمانون طفلا من أطفال العدو من الأمراء الذين كانوا معهم وخمسة من أشرافهم وألف وستمائة وستة وتسعون من الذكور والاناث من العبيد والاماء والأطفال ، هذا غير المحاربين الذين استسلموا بسبب الجوع الذى لا قوة · ومائة وثلاثة رجال فيكون مجموعهم ألفين وخمسمائة واثنين (والعدد المدون فعلا هو ألفان وتسعة وعشرون فلابد أن يكون العدد الناقص وهو أربعمائة وأربعة وسبعون) قد جاء ذكره فى الأماكن المهشمة من المتن · هذا الى جانب الأطباق من الأحجار الغالية والذهب وأوان أخرى · واناء ذى مقبضين من صنع خارو (البلاد الآسيوية) وأوان وأطباق مفرطحة وأقداح للشرب مختلفة وغلايات وسكاكين يبلغ وزنها سبعمائة وأربعة وثمانين دينا (أى أن الأدوات السالفة الذكر يبلغ وزنها ١٩١ رطلا من الذهب) هذا الى جانب خواتم من الذهب كانت فى يد الصناع وفضة مصنوعة من خواتم عدة تبلغ زنتها نحو تسعمائة وستة وستين دينا (أى ما يقابل ٢٣٥ر٤٦ رطلا من الذهب) وتمثال من الفضة مصنوع رأسه من الذهب وعصا بأوجه بشرية وستة كراسى للعدو من العاج والأبنوس وخشب الخروب كلها مغشاه بالذهب وستة مساند للأقدام من متاع العدو ، وست موائد من العاج فى هيئة صولجان من تاج هذا العدو أيضا وكلها

مصفحة بالذهب وتمثال لهذا العدو من الأبنوس مصفح بالذهب ورأسه مرصع باللازورد وأوان من الشية وملابس كثيرة للعدو ٠

وهذه المدن الثلاث التى استولى منها فرعون على الأســلاب الأخيرة تقع بعضها قريبة من بعض فى الطرف الشمالى من لبنان ؟ وقد هاجمها تحوتمس الثالث عن قصد لغرض معين وذلك أنه فكر أولا فى ايجاد وسيلة لمنع ملك قادش من الوصول اليها ٠ وكان هذا لم يقهر بعد ، فزحف جنوبا ليجعل الطريق الشمالى الواقع بين جبال لبنان فى قبضة يده لأهميته بالنسبة لحركاته الحربية ولذلك سار تحوتمس بجيشه شمالا والى هذه المدن ٠ ومما يؤكد ذلك أنه بنى هناك قلعة تحوتمس قاهر الأجانب (١) ٠

ان حملة هذا العاهل المصرى من الأحداث التى سجلها التاريخ واليوميات التى تركها لنا وتحدث عنها تحوتمس الثالث على جدران معبد الكرنك نابضة بالحياة فى تفاصيلها وستظل دائما صورة مجسدة للأعمال الحربية فى تلك العصور ، مع أنه بلا شك قد تلاها كثير من حوادث العصور لا تقل عنها روعة ٠

---

(١) عبد الرحمن زكى (د٠) : الجيش فى مصر القديمة ، القاهرة ، ادارة الشئون العامة للقوات المسلحة ، ١٩٦٨ ، صص ١٤٠ ـ ١٤٢ ـ ١٤٤ ـ ١٧٧ ـ

الوثيقــة رقــم (   )

ثانيــا معركة قادش

تمهيــد تاريخى :

فى أخريات شهر أبريل من العام الخامس من حكم رمسيس الثانى ــ كما ذكر فى القصيدة المنسوبة الى بنتاؤر ــ قاد حملتــه مبتدئا من ثارو فى الشمال الشرقى من حدود مصر • وكانت تتألف من أربع فرق ــ يقود الأولى منها وهى فرقة آمون التى كانت مقدمة الجيش ــ تتبعها الفرق الثلاث • فرقة رع وبتاح سوتنخ •

والطريق الذى اتبعته تلك الفرق فى مسيرها الى فلسطين من الصعب معرفته بالتأكيد • ولكن ما كادت تقترب من جنوب لبنان حتى اتخذت الطريق المحاذى ــ كما يتبدى من نصــوص قصيدة بنتاؤر ــ وكان رمسيس قد ثبت قدميه عليه فى العام الســابق للحملة ــ بعد احتلاله مكانا على الشاطىء أطلق عليه اسم رمسيس هذا المكان يقع عند مصب نهر الكلب حيث أقام نصبا لايزال فى مكانه الى اليوم •

وعقب ثلاثين يوما من مغادرة الملك مدينة ثارو أقام معسكره جنوبى مدينة قادش واتجه صوب الشمال الى نقطة تقع جنوبى

وادى الأورنت •

ولا يتعين علينا أن نتتبع رمسيس الى المعركة التى كان ينتظر نشوبها فى قادش قبل التعرف على جغرافية أرض المعركة ـ فعند هذا الحد نصطدم مباشرة بالحقيقة المعقدة حيث الجغرافية وطبيعة الأرض فى فلسطين معروفة ومدروسة جيدا على عكس ما تم منها فى شمال سورية •

أرض المعركة :

عندما نذكر أن رمسيس اتجه شمالا محاذيا نهر الأورنت للوصول الى قادش وأن هذا الاسم كان يطلق على بحيرة حمص كما ورد فى تاريخ « أبو الفداء » يتضح لنا أنه ينبغى البحث عن قادش على نهر الأورنت بالقرب من البحيرة المذكورة ـ وقد وصف المؤرخ أبو الفداء (القرن الرابع عشر) بحيرة قادش ما يلى :

« بحيرة قدس وهى بحيرة حمص طولها من الشمال الى الجنوب نحو ثلث مرحلة وسعتها طول السد الذى سنذكره ، وهى مصنوعة على نهر الأورنت فانه قد صنع فى طرف البحيرة الشمالى سد من حجر من عمارة ـ الأوائل وينسب الى الاسكندر وعلى وسط السد المذكور برجان من الحجر الأسود وطول السد شرقا وغربا ألف ومائتان وسبع مائة وثمانون ذراعا وعرضه ثمانية عشر ذراعا ونصف • وهو حابس لذلك الماء العظيم بحيث لو ضرب السد لفاض الماء وضربت البحيرة وصارت نهرا وهى فى أرض مستوية وهى تبعد عن حمص يعرض يوم بغربيها ويصاد بها السمك •

تم يعود أبو الفداء الى ذكر البحيرة مرة أخرى عندما يصف مجرى نهر الأورنت •

وكنتيجة لكل الأبحاث التى عملت للوقوف على مكان قادش ، يمكن القول بأن قادش لابد أنها كانت على مقربة من موقع البحيرة حتى اذا كانت البحيرة قد تكونت فيما بعد • وأن قادش المدينة كانت تقع على نهر الى جنوبى البحيرة •

فاذا انتقلنا الى الربوة المعروفة باسم (تل النبى مند) التى تقع على الضفة اليسرى لنهر الأورنت على مسيرة ساعتين شمال « ربلة » ومسيرة ساعة من بحيرة قادش لوجدناها أهم الأغراض الطبيعية فى تلك المنطقة ، حيث نستطيع تعيين موقع قادش • وسنرى فى أى المناسبات جاء ذكرها فى أرض المعركة •

يقول الملك رمسيس الثانى أن آخر نقطة عسكرت فيها قواته قبل وصوله الى قادش كانت على « المربوة الواقعة على جنوبى قادش » ثم انه اتجه شمالا ووصل الى جنوبى مدينة « شايتونا » ثم اتجه الى الشمال ووصل الى الشمال الغربى من قادش • ويتفق هذا النص مع ما جاء فى نص قصيدة بنتاؤر • وقد تمت كل هذه التحركات بمحاذاة نهر الأورنت وكانت آخر مراحل السير « الربوة الواقعة الى جنوبى قادش » ومنها قصد قادش ليحارب المعركة الفاصلة على رأس قواته ، وقد تم ذلك فى يوم واحد •

ولما كان من الممكن فى تلك الأيام السالفة أن تكون سرعة التحركات عبارة عن خمسة عشر ميلا فى اليوم تقريبا • فمن المنتظر أن تكون قادش واقعة شمال هذه الربوة بخمسة عشر ميلا •

والواقع أنه كان لموقع قادش أهمية كبرى ، فهى أهم مفترق للطرق الرئيسية الفاصلة بين السهول والجبال الشامية ومفتاح الطرق المؤدية من الداخل الى البحر ــ ولتلك الأهمية نفهم الأسباب

التى كانت تدفع بملوك مصر الفاتحين فى العهود القديمة الى الاستيلاء عليها • فقد استنفذت جهود ثمانية أعوام قضاها تحوتمس الثالث محاربا أعدائه قبل استيلائه عليها ـ الى أن وقعت فى قبضته ـ ثم أصبحت فيما بعد مركز الحلف السورى الذى ناصبه العداء حوالى عشرين سنة من الجهاد المستمر بين الطرفين • فلما استولى على قادش ، بعد حصار طويل ، أصبح تحوتمس سيد الموقف وقضى على مقاومة المتحالفين ضده •

وفيما بعد لما انحدر الحيثيون وأحلافهم من جنوب آسيا الصغرى ، مكتسحين كل الدويلات التى أمامهم ، كان هدفهم الاستيلاء على قادش ، لتكون قاعدة أمامية لهم وحرمان ملوك الأسرة الثامنة عشرة المصرية من الانتفاع بها ـ ولقد تم لهم ذلك ـ وعرفوا مزاياها مدة طويلة ـ وقاوموا رمسيس الثانى فى تقدمه نحوهم فى العام الخامس من حكمه •

وقد وقفنا على موقع الربوة التى تقع جنوبى قادش من خلال ما ذكرناه عن مكان قادش ـ وهذه الربوة هى تل قموات الهرمل أما « شابتونا » فلابد أن تكون واقعة على نهر الأورنت بين الربوة المذكورة وقادش وقد مر بها رمسيس الثانى فى ذهابه الى المعركة وهى المعروفة باسم « ربلة » •

أما أرانا فهى جنوب شابتونا ، وقد مرت بها فرقة بتاح فى تقهقرها الى الجنوب •

تقع مدينة قادش فوق التل وتحيط بها من كل الجهات تقريبا مجارى مياه طبيعية تخرج من الزاوية العمودية التى يكونها النهر ، وتبعا لاختفاء جيش الحيثيين فى الجانب الآخر من المدينة فان المصريين عندما يصلون قبالة المدينة لم يرقبوا شيئا منه لوجود

التل والمدينة فيما بين الجانبين المتصادمين ، وسيكون كل قول من القولات المصرية عند عبوره المخاضة وخروجه من الغابة التى تقع على مسافة أميال قلائل فى الشمال غير منظم وغير ملتئم الصفوف ٠

ولهذا كانت خطة الحيثيين فى تلك المرحلة من المعركة هى أنه عندما يكون رأس كل قول فى مواجهة قادش تعبر النهر قوة كبيرة من وحدات العربات مجتازة المخاضة على مسافة ميلين جنوبى المدينـة فتقطع قول المصريين فى منتصفه وتطوى رأس القول ثم تشتبك بمؤخرته ، وعند خروجها من الاحراج الكثيفة الأشجار فى مجموعات صغيرة ، وينبغى أن نلاحظ أن وقاية قوات الحيثيين قد وضعت على أسـاس الاستناد الى النهر ، والى اعداد نقط للرقابة فى أعلى أسوار المدينة ، وكانت الخطة على بساطتها قوية رائعة ، وتبدى قوة المصيدة التى أعدت لرمسيس وجنوده ٠٠٠ ترى هل كان القدر يقضى أن يقع فيها ؟ ٠

أحداث المعركة :

تكلمنا عن أهم مراجع المعركة المصرية ، ثم حددنا أمكنة أهم بقاع السير والتقدم والتحركات ٠ ولنستهل الحديث عن أدوار القتال وتكتيكات المعركة ٠

فى عام ١٢٨١ ق٠م بدأ رمسيس الثانى الحرب ضد الحيثيين فى سورية ، وكان العام الأول عام اعداد وتجهيزات فوصل فى نهايته الى نهر ليسيوس على مدى سبعة أميال شمال بيروت وفى بيروت أو على مقربة منها أنشأ قاعدة لعملياته الحربية فى العام الثانى ٠ فلما انتهى منها قفل راجعا الى مصر مع بقية جيشه ٠

وحين حل الربيع التالى ـ العام الخامس من حكمه ـ خرج الى ميدان القتال فى نهاية ابريل ووصل قاعدته مجتازا فلسطين

فبلغها بعد ثلاثة أسابيع ، وهنا نظم جيشه فى تشكيل القتال . وضم حامية القاعدة الى جيشه الذى كان قد وصل الى عشرين ألف جندى مشكلين فى أربع فرق سميت حسب ترتيب السير : ـ

فرقة آمون ـ فرقة رع ـ فرقة بتاح ـ فرقة سوتنح ٠

وقد وضع جنود الحامية ، الذين تزعم بعض المصادر بأنهم من الجنود الجدد أو صغار السن ، فى قلب الجيش بينما كان الفرعون نفسه مع الحرس الأمامى لفرقة آمون وراكبى العربات بنسبة متساوية ٠ وكان جنود المشاه مسلحين فى الغالبية بالحراب والدروع بينما كان راكبو العربات مسلحين بالأقواس والسهام ٠

وبالرغم من أن الجيوش لم تكن تعرف فى ذلك الوقت التنظيمات الخاصة بالامدادات والتموين وكان الجند يعيشون على ما فى المنطقة التى يقيمون فيها من طعام ، فان جنود الفرعون لم تعش عالة على الآهلين ، ولهذا كان فى مؤخرة جيش الفرعون عدد كبير من الماشية والأبقار والماعز ٠

وكانت كل فرقة من الجيش مؤلفة من جميع الأسلحة وتستطيع أن تقاتل مستقلة عن غيرها ، وكانت للقوة المعنوية للجيش عالية وتنظيماته لسير الاقتراب فى درجة من الروعة ليست قليلة ٠على أن قوة جيش فرعون لم تكن فى عدده وعدته ، بل كانت فى شهرة ومهارة القائد الأعلى وهو رمسيس الثانى ، الذى لم يكن قد تخطى الثلاثين بعد أن كان وصل نهاية الحقبة الثالثة من عمره ، تلك الشهرة التى جعلته فذا بين محاربى عصره ٠

ولقد يتسنى لنا أن نقارن رمسيس الثانى بالملوك القادة الذين نالوا انتصارات حاسمة فى فجر حياتهم كالاسكندر الأكبر أو نابليون ٠٠٠٠ مع بعض الفارق فى نواحى أخرى ٠

والآن يتيسر لنـا أن نتجه بالحديث الى الحيثيين الذين هم أصلا من آسيا الصغرى ونلقاهم فى فجر هذه الحملة يتجمعون على مقربة من حماه وكانت قاعدتهم الأمامية فى حلب ٠ ولسنا نعرف اسم ملك الحيثيين ٠٠٠ ولكنه لا ريب كان خصما عنيدا لرمسيس ولم يك جيشـه يقل عددا من جيش رمسيس الثانى ، كما كان نصفه ـ على وجه التقريب ـ من راكبى العربات بنسبة ثلاثة من الجنود لكل عربة ، ولم يك الجيشان الأساسيان قد التقيا فى القتال فى العام السـابق ، وكان كلاهما يمتلئان بروح هجومية قوية ٠

سير الاقتراب للمحاربين المتضادين :

فاذا تركنا الحيثيين فى حماه يواجهون الجنوب ، وعدنا الى مصاحبة المصريين فى الطريق التى سلوكها ، فاننا نلقى رمسيس لا يتوقف الا القليل جدا فى قاعدته الأمامية ، ثم يتابع السير فى خطوات سريعة ، هذه الخطوات التى بدت واضحة فى مراحل سيره الأولى منذ ترك وادى النيل متجها للشرق ، فلما عبر سلسلة الجبال بين ممر فى شرق بيروت اندفع فى الوادى قاطعا طريقا من أقدم الطرق المعروفة فى التاريخ فوصـل الكرمل بعد ثلاثين يوما من مبارحة مصر ٠

وكان قد قطع أربعمائة ميل فى هذه الأيام الثلاثين ، أى بنسبة ثلاثة عشر ميلا فى اليوم الواحد ، وهى سرعة تدل على سرعة حركة تعتبر مثالية لجيش كبير نسبيا فى ذلك العصر ٠ وفى ذلك المكان

فوق مجرى النهر عند أعلى التل ، أقام رمسيس معسكره لقضاء الليل . ولم يك قد اشتبك بعد بقوة ما من جيش الحيثيين أو وصل الى علمه شيء من أنباء الاشتباك . وكانت جميع الظروف توحى بحقيقة واحدة ، وهى أن الحيثيين مازالوا بعيدين فى الشمال . وكانت مدينة قادش ذات الأسوار العالية لا تزال على مسافة خمسة عشر ميلا من معسكره . وقرر رمسيس أن تكون قادش هدفه فى اليوم التالى .

واستهل جيش فرعون سيره مبكرا مع ظهور الضوء . فلم يكن من سبيل البقاء أكثر من ذلك لانعدام المياه فى ذلك المكان من التل . واندفع رمسيس بجنوده مسرعا نحو سفوح التلال صوب السهل عن طريق « ربلة » . وقبل أن يصل رمسيس الى تلك المدينة بلغه نبأ هام ـ فقد أمسك جنود الرقابة الأمامية بتلابيب اثنين من البدو ربما كانا قد هجرا الصفوف من جيش الحيثيين وأوربا أن زملاءهما ، يتوقون الى الفرار جملة والانضمام الى المصريين ، وقال البدويان أيضا أن الحيثيين عندما سمعوا باقتراب الفرعون توقفوا عن السير بجوار حلب . كما أرشدا رمسيس الى مخاضة فى النهر شمال المدينة هى أصلح طريق لعبور جيش الفرعون .

وكانت هذه الأنباء كافية لأن تهب رمسيس الفكرة التى كانت قد اختمرت فى رأسه من قبل . وهى أن الحيثيين لازالوا بعيدين وهكذا تابع رمسيس مسيره فى ذات التشكيل ... وكل فرقة تصل المخاضة تنتشر بالدور . الواحدة تلو الأخرى لترتوى ولتعد طعامها فيتناوله الأفراد .

فاذا رجعنا الى الحيثيين فاننا نلقى شيئا غريبا ، فان ملك الحيثيين بدلا من أن يرتد الى حلب سار جنوبا بكل جيشه ، وكان اذ ذاك يحتل مواقعه شرق قادش مع قوة غير قليلة فى المدينة نفسها .

وكان الهدف الذى عنــاه ملك الحيثيين هو أن يقوم بالهجــوم وأن يدمر جيش عدوه وكان هدف رمسيس مثله تماما ، الا أن ترتيبات ملك الحيثيين كانت أوفر تنظيما لأن هذين البدويين اللذين قالا أنهما هجرا الجيش للانضمام الى المصريين كانا رسولى الحيثيين بعثوا بهما لتضليل الأعداء .

على أن الخطة قد سارت شــوطا أبعد من هذا . فان الرجلين بحديثهما لم يعرضا رمسيس وجيشه لعامل المفاجأة وحده بل انهما على اغرائهما رمسيس على اتخاذ طريق خاص لسيره هو الطريق الذى يجرى على الشاطىء الأيسر للنهر ــ فانهما كانا يمكننان الحيثيين من الحصول الى جانب المفاجأة على عامل آخــر هو تطبيق عامل الحشد لقوة أكبر فى النقطة الحاسمة ، وهذا يمكن ادراكه بواسطة توزيع قوات جيش المصريين وكانت الخطة بسيطة ، وكانت بساطتها من أهم الأسباب التى تجعلها قوة مؤثرة عند تنفيذها . ولكى نستطيع أن نتبين مدى قوة خطة الحيثيين بارسالهما هذين الرجلين لخداع رمسيس ومدى تأثيرها عندما تتم فصولها .

اقتراب الجيش المصرى :

وبدأت فرق جيش مصر ترتوى وتتناول طعامها ، ثم تجتاز المخاضة .. وقد تم هذا دون أية حادثة .. ولازالت القوات فى تشكيلها الأول .

ولكن رمسيس لايزال يتولى القيادة فى مقدمة جيشه بنفسه راكبا عربته الحربية .

وكان من الطبيعى أن كل فرقة ، تبعا للاضطراب الذى يحدث فى تنظيم الصفوف أثناء العبور ، كانت مقدمتها تتوقف عن السير

عند الشاطيء البعيد لتمكين مؤخرتها من الاقتراب ، وهكذا كانت توجد ثغرة من ميل الى ميلين بين كل فرقة وأخرى وفقدت القوات المشاة بين بعضها ثانية فى خلال اجتيازها الاحراج ، ولكن بعد أن وصل رمسيس الى الشاطىء الشمالى للنهر لم يفكر فى الانتظار حتى تنضم اليه فرقة أمون ، بل تابع سيره ، ثم أن مدينة قادش كانت قد بدت على مرمى لهم • ووصلت مقدمة فرقة أمون الى المكان المختار للمعسكر فى المساء المبكر ، كان هذا ايذانا بأن الجيش قد أكمل مسيره خمسة عشر ميلا فى أرض وعرة وفى يوم واحد وهذا نجاح منقطع النظير •

وفجأة لاح فى أعلى جدران المدينـــة جماعات من الجنود المسلحين ولهذا بعث رمسيس بدورياته وأقيمت زريبه من الدروع القوية حول المعسكر وحطت فرقة آمون رحالها وقد أقيم المعسكر على مسافة ميل تقريبا غربى المدينة وثمانية أميال شمال المخاضة وتقدم لنا المعلومات التى وصلتنا صورة طيبة لمعسكرات الاقامة ، وهذه الصـــورة توضح لنا أن أصـول الحرب لم تتغير ولن تتغير منها الا وسائل وأساليب تطبيق هذه الأصول بل ولا شك أن أصول استخدام العربة والجواد لايمكن أن تتغير • فان العربات تجمع بعضها البعض •

وتوقفت الخيول فى صفوف متراصة على مقربة من العربات ، فاذا كان أحد الرجال مشغولا باعداد العلف للخيول ، فان آخر يكون يقوم بسقيهم بينما يكون ثالث الرجال لكل عربة جالســا يتناول غذائه •

على أن هذه الصورة صالحة لحياة السلم فى معسكر ـ للاقامة بعيدا عن العدو ولم يكن هنـــاك من ســبب يدعو لتعديل هذه الصورة • أليس جيش العدو وقد توقف عن الســير عند حلب

عندما وصل الى الحيثيين نبأ سير رمسيس ·· أذن ففيم الخوف ؟·
وفجأة اضطرب الجو ·· فقــد جاءت احدى الدوريات باثنين من جنود استطلاع العدو أمسكت بها على مقربة من جدران المدينة وقد رفض الرجـــلان أن يتكلما حتى جلدا ، واذ ذاك قالا بأن جيش الحيثيين ليس بعيدا كما كان رمسيس يؤكد بنفسه بل أن العدو فى الجانب الآخر من المدينة ، وكانت دهشـــة رمسيس بالغـة وكانت ثورة غضبه كبيرة ، فقــد التفت الى أركانى الحرب مؤنبـا أياهم على سوء ترتيباتهم لتسقط أنبـــاء العدو ولكن ماذا يفيد اللوم والتأنيب والأنباء السيئة تجىء فى أثر بعضها البعض ·

على أننا قبل أن نمضى بعيــدا فى الحديث عن المعـركة ، فمن الضرورى أن ندرس موقف الجيشين المتضادين ، هذه الدراسه التى نجدها واضحة فى الرسوم التى تصحب هذا الفصل ·

ففى أحد هذه الرسوم يبدو لنا الموقف الحرج الذى كان فيه جيش الفرعون ممتدا لمسافة ثمانية أميال بفواصل فسيحة بين فرقة ، بينما كان جيش الحيثيين متجمعا محتشدا متأهبا لتوجيه ضربته لجيش الفرعون ·

وقد نظم ملك الحيثيين ضربته فى ترتيب زمنى جيـــد ، والحشد يمكن من التوقيت الزمنى الجيد دون مراء ، سيما اذا قدرنا أن تطبيق مبدأ الحشد فى صورة طيبة انما معناه الحشد فى المكان والوقت الصحيحين ·

ووجه ملك الحيثيين ٢٥٠٠ من راكبى العربات و ٧٥٠٠ من المشاه تجاه المخاضة بعيدا عن نظر المصريين ، وعبرت النهر هذه القوة الكبيرة واندفعت نحو الجنب المعرض لفرقة رع ، ولم يكن

المصريون قد فكروا في حراسة جنبهم ، ثم أن هذا الاندفاع العنيف جاء مفاجأة بدرجة كبيرة واستطاعت العربات أن تقسم فرقه رع من منتصفها وأن تدور الموجات التالية حول أجناب القسمين المتوزعين وأن يقوم المشاه بهجوم اقتحامي قوى ، وفي ذلك الوقت استطاع ضابط مصرى من فرقة « رع » أن يشق طريقه وسـط عربات الحيثيين وأن يصل الى معسكر رمسيس حاملا اليهم النبأ السيىء بأن الهزيمة تدب في صفوف جيشه ٠

نشاهد الآن صورة فذة لهجوم القوات المدرعة وهى تفاجىء قوات فى تشكيل السير لم تأخذ أهبتها للقتال على أن الصربة على شدتهـا وعنفها لم تمزق أكثـر من شرايين قليلة فى جسم جيش مصر ٠

وهنا حانت الفرصـة ليظهر رمسيس معدنه الصلب وتحكمه فى أعصابه وتفكيره فى اللحظـات الحرجة كقائد مدرب له قدم موطدة فى الصراع ، وانتهى رمسيس بسرعة من دراسة موقفه ، ولم يكن أمامه غير خطوتين اثنتين يتعين عليه أن يخطوهما سريعا ٠

الخطوة الأولى أن يزيد من سرعة سير فرقتيه الآخـرين ، وهذا أمر وكله الى وزيره أى (رئيس أركان حربه) ٠

والثانية أن ينظم هجوما مضادا بفرقة آمون الأمر الذى قدره وقرر أن يتولاه بنفسه واندفع رمسيس من مخيمه فأمتطى عربته التى كانت معدة بعد أن بعث الانذار فى جنبات المعسكر ايذانا بهجوم العدو فربطت الجياد الى العربات وأسرع الجنـود الى أسلحتهم ، ولكن فى تلك اللحظة زاد الاضطراب والجذع اللذان كانا يبدوان بجلاء فى وسط المعسكر بوصول بعض جنود فرقة رع الذين كانوا قد أطلقوا سـيقانهم للريح نحو المعسـكر للفكاك من المذبحـة التى يقـوم بهـا الحيثيون الذين تعقبوهم مندفعين

فى موجات متتابعة وسـط جنود رمسيس ، وتزاحمت عربات الحيثيين تحيط بمعسكر المصريين • وبالرغم من انهماك الكثير من المشـاه للدفاع ولدفع هجوم الحيثيين جانبا الا أن ضغط هجوم الآسيويين كان كبيرا وبدا لرمسيس أن لا فائدة من البقاء لامد أطول من هذا ، فجمع ما تبقى من فرقة آمون واتجه للشمال •

وسقط المعسكر غنيمة باردة فى يد الحيثيين ، وهنا أضاع الآسيويين الفرصة التى سنحت لهم وما كانت لتسنح لولا عامل المفاجأة والحشد اللذين فقدهما رمسيس فى أول جولة نتيجة ضعف تنظيمات مخابراته ، فان هؤلاء بدلا من أن يتأهبوا لمطاردة المصريين المرتدين فى صحبة الفرعون ، انصرفوا الى نهب المعسكر واستطاع رمسيس أن يعيد تنظيم فرقتى آمـون ورع وأن يعاود الهجوم بهما لقتال الحيثيين •

ويتعذر الاعتماد على المراجع التى وصلت الى أيدينـا وقد لايكون هذا غريبا لأن القتال على ما يبـدو كان مضطربا ، وهو لايزيد على هجمات مضادة متتالية عنيفة قطعت ثلاث ساعات طويلة من ذلك اليوم •

وفى أثناء هذا ألقى الحيثيين بالف من العربات للمعاونة فى القتال ولكنه هو نفسه لم يعبر النهر ولم يبعث بأى جديد من مشاته للقتـال •

ولكن ماذا كان يحدث فى الجنوب اذ ذاك ؟

كان وزير فرعون قد بعث ، عندما تلقى تعليمات رمسيس وأوامره ، جنـديا لينقل الأوامر الى الفرقتين اللتين تجيئان فى

المؤخرة للاسراع لنجدة فرعون ، ويلوح أن الوزير أجمع أمره على أن الأصلح أن يذهب هو بنفسه واندفع بعربتـــه فى أعقاب رسوله ، بعيدا عن ميدان المعركة .

ولقى فى طريقه جماعة كبيرة من جنـود القاعدة عند طرف الاحراج فوجههم لمهاجمة الحيثيين الذين يحتلون المعســكر من الغرب ، ثم فكر فى أن يندفع نحو فرقة « بتاح » ليقود جندها بنفسه لمهاجمة المعسكر من الجنوب فى هجوم أمامى .

وكانت فرقة « سوتيخ » لاتزال بعيــدة فى الجنوب وعلى مسافة لاتمكنها من الاشتراك فى القتال فى ذلك اليوم ، وقد اتجه جنود القاعدة كما أمرهم الوزير الذى تابع طريقه للبحث عن فرقة « بتاح » فوجدها . وبدأ سيره فى الاتجاه الجديد يقود بنفســه فرقة كاملة لنجدة فرعون .

ونتيجة لهذا كانت عربات الحيثيين تلقى الأمرين ، فرمسيس يقاتل بنفسه وبجنوده قادما من الشمال ، بينما يتقدم الجنـود الجدد من الغرب متجهين الى الشرق فى قوة وعنف ، فهم لم يشهدوا القتال بعد ولم يقابلوا الحيثيين من قبل ، فهم لا يقدرونهم بأكثر مما يمكن أن يقدروا أيا من خصوم رمسيس الذين أعتاد آباؤهم من قبل الانتصار عليهم . وفى أثناء هذا جــاء هجوم جديد من الجنوب بفـرقة كاملة يتــولى قيادتهــا وزير رمسيس ورئيس هيئة أركان حربه .

وتلفت الحيثيون حولهم للبحث عن مدد ، بيد أن شيئا لم يبد فى الأفق . فان مشاة الحيثيين بقوا فى مكانهــــم فى الجانب الآخر من النهر وفى المدينة ولم يقم ملك الحيثيين بأية محــاولة

جدية لمعاونة قواته الخفية على ما يظهر من المراجع التى وصلت الى أيدينا ، وان كان بعض الناس يقولون أن ملك الحيثيين قد حاول عبور النهر على رأس قوة كبيرة الا أنه قد غرق لأن المراجع المصرية القديمة تذكر أن جثته انتشلت من مياه النهر بسحب قدميه · ولهذا أمكن التعرف عليه من درعه وثيابه · وتبدل الموقف وتبادلت كفتا الميزان ولم يصمد أمام الحيثيين من راكبى العربات الا أن يستشعروا طعم الهزيمة فداروا على أعقابهم وأسرعوا للفكاك من قبضة المصريين · وكان الاندفاع نحو المخاضة غريبا فكل فرد يعمل على أن يسبق زميله لينجوا · وارتطمت الجياد والعربات وبات التزاحم عند المخاضة أخطر من حراب المصريين الذين تابعوا المطاردة بعنف وهم يقذفون الحيثيين بغلالة كثيفة من السهام ·

وانتهت المعركة ··

ولم يبق على الضفة الآسيوية (الغربية) آسيوى واحد ··

وبات الفرعون سيد ميدان القتال بلا منازع ·

نظرة الى المعركة :

ولكن لماذا لم يدفع ملك الحيثيين بمشاته للقتال ؟ ·

كثير هو ما يمكن أن نفكر فيه عند محاولة التعليق على المعركة ·· بيد أن شيئا واحدا هو هذا السؤال الذى قدمنا به الحديث يسيطر على رأس الباحث فلا يمكنه من التفكير فى شىء آخر ·

يبدو أن ملك الحيثيين قد فشل في ادراك عاملي « التعاون والحشد » وكان فشله في المزج بين هذين العاملين هو المؤثر الأول في اخفاق ادراكه لأصول الحرب الأخرى ٠

ولو كان ملك الحيثيين قد تابع النجاح الذى استحوذ عليه في المرحلة الأولى للمعركة بأن دفع كل عرباته للقتال وسار في أعقابها بكل مشاته أما عن طريق المخاضة ذاتها أو بالدوران من الشمال للمدينة لحصل بلا شك على نصر حاسم ٠ على أن السبب الحقيقى لفشل ملك الحيثيين يمكن أن يكون نفسيا أكثر من أى شيئا آخر ، فقد كان موفور القوة الذهنية ، وكان من هذه الناحية يضمن أفضلية ساحقة على الفرعون ولكنه كان يحس في قرارة نفسه بشيء آخر ، فقد كان موفور القوة الذهنية ، وكان من ناحية أخرى يشك بأنه أضعف من خصمه ٠٠ ولهذا لم تتوافر فيه الجرأة لتنفيذ خطته الحكيمة ٠٠

ومن جهة أخرى نلقى الفرعون ووزيره يهملان في بداية المعركة أصول الحرب ٠ من الوقاية الى الحشد ٠٠ الى الاقتصاد في القوى ، ولكنه لم يلبث أن استعاد السيطرة على كل هذه الأصول نتيجة لفشل ملك الحيثيين في الاحتفاظ بها ٠

والواقع أن رمسيس الثانى كان صورة فذة وسط خصومه وقد بقى الساعة بعد الأخرى يقاتل ضد قوات تزيد عددا عن جنوده ، منقطعا عن بقية جيشه لايستطيع حتى الاتصال بفرقتيه اللتين لاتزال قوتهما كاملة ، ولكن كانت ثقته برئيس هيئة أركان حربة كبيرة ٠٠ وكان يعرف أنه لن يخذله ٠٠ وهكذا استطاع الرجلان نتيجة تعاونهما معا أن يقلبا الهزيمة الى نصر حاسم ٠

على أن المعركة في الواقع بالرغم من أنها كانت صورة رائعة لفن القتال الا أنها كانت أبعد من أن تكون حاسمة من ناحية

النتائج • فان مشاه الحيثيين كانوا لايزالون فى قوة كاملة • وكان من الممكن أن يقاتلوا فى أكثر من معركة ثم أن الحيثيين كان لايزال لديهم بعض العربات يتهيأ لجنودها أن يقاتلوا فى سلسلة من المعارك للارتداد شمالا أو الانتظار لامدادات أخرى من الشمال •

ولم يكن فى استطاعة رمسيس كذلك أن يقاتل بقوة نظـرا لخسائره الجسيمة ، علاوة على أن تأثير المعـــركة فى نفسه كان كبيرا وذلك لم يكن مثار غرابة أن يقبل رمسيس الصلح وأن يعود بجيشـــه الى مصر •

ولكن مع هذا فان المعركة تبين بدرجة كبيرة أن أصول الحرب ثابتة ، وأن الذى يتغير وحده هو تطبيق هذه الأصول •

وانتهى القتال بأن وقع الفريقان المتحاربان معاهدة صــلح حوالى عام (١٢٧٢) قبل الميلاد •

المعاهدة بين مصر وخيتـــا

ذكر الأستاذ برســـتد أنه فى السنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثانى (أى حوالى سنة ١٢٧٢ ق•م) وصلت رسل (خيتار صار) ملك خيتا الى القصر الفرعونى وكان وقتئذ بالدلتا ولابد أن تكون الحكومتان المصرية والحيثية اتفقتا سابقا على صورة معاهدة بمساعدة ممثليهما لأن الآثار دلت على أن الرسل لم يرسلوا وقتئذ الا للموافقة النهائية على المعاهدة وقد نقشت هذه المعاهدة على لوح فضى وتشمل ثمانية عشرة مادة رسم فى أعلاها المعبودة « سوتخ) محتضنة ملك الحيثيين المدعوة (بوتوخيبا زوج خيتــا صــار) وبجوار هذه الرسوم وضعت أختام (سوتخ) معبودة

الحيثيين و (رع) و (رمسيس) و (خيتا صار) ويرجع أن ملك الحيثيين احتفظ بنسخة أخرى من هذه المعاهدة ٠

وتعتبر هذه أقدم معاهدة دولية معروفة وفيما يلي ترجمة ديباجتها وملخص موادها :

١ ـ الديباجـة :

معاهدة منقوشة على لوح فضى بين ملك الحيثيين (خيتا صار) الشجاع بن (ميراسار ملك الحيثيين الشجاع بن (سبل) ملك الحيثيين الشجاع فريق أول ٠

ورمسيس الثانى الملقب (أسرة رع استبنرع) حاكم مصر الأعظم الشجاع بن (سيتى) الأول حاكم مصر الأعظم ابن رمسيس الأول حاكم مصر الأعظم الشجاع (فريق ثان) ٠

هذه المعاهدة الطيبة دونت لحفظ السلام والأخاء واستتباب السكينة بين الطرفين الى الأزل ٠

٢ ـ العلاقات السابقة بين الأمتين :

كانت العلاقة منذ الأزل بين ملك مصر وملك الحيثيين ودية مانعة للمشاحنات وموطدة للمعاهدة ثم أتى أخى (مثلا) فحارب (رمسيس الثانى) ، بعد ذلك أتى دور خيتا صار فأراد توطيد السلام بين الأمتين مانعـــا بذلك الحروب الى الأبـــد مستعينا بالمعبودين (رع) معبود المصريين و (ســوتخ) معبود الحيثيين ٠

٣ ـ المعاهدة الجديدة :

ومنذ اليوم أصبح (خيتا صار) ملك الحيثيين فى صـــفاء واخاء مع رمسيس الثانى) ملك مصر ، وستكون ذرية ملك الحيثيين الأعظم فى اخاء وصـــفاء مع ذرية (رمسيس الثانى) ملك مصر وستكون كذلك مملكة الحيثيين فى اخاء وصفاء مع المملكة المصرية.

٤ ـ عدم الاعتـــداء :

تبطل الحروب بين الفريقين الى الأبد ويتعهد ملك الحيثيين بألا يغزو الأراضى المصرية للاستيلاء على شىء منها ويتعهد رمسيس الثانى بألا يغزو مملكة الحيثيين للاستيلاء على شىء منها .

٥ ـ الاعتراف بالمعاهدات السابقة :

يتعهـد ملك الحيثيين الحالى بمراعاة نصـــوص المعاهدتين واللتين أبرمهما أبوه وجده من قبل ويتعهد رمسيس الثانى بأن يراعى أيضا المعاهدتين المذكورتين منذ اليوم .

٦ ـ التعهد الدفاعى :

اذا هاجم عدو المملكة المصرية واستنجد (رمسيس الثانى) بملك الحيثيين ، فعلى هذا الأخير أن يأتى بنفسه ويشترك فى صد العدو واذا ، لم يرغب ملك الحيثيين فى الحضور فعليه أن يرسل قواته الحربية من مشاه وعجلات لقتال مهاجم مصر

واذا شقت مستعمرة مصرية عصـــا الطاعة على ملك مصر وأراد هذا الأخير أن يعاقبها ويخضعها ، فعلى ملك الحيثيين أن يساعد ملك مصر على ذلك .

واذا هاجم عدوا مملكة الحيثيين واستنجد ملك الحيثيين بملك مصر فعلى هذا الأخير أن يأتى بنفسه ليشترك فى صد العدو . واذا لم يرغب ملك مصر فى الحضور فعليه أن يرسل قواته الحربية من مشاه وعجلات لقتال مهاجم الحيثيين ، واذا شقت مستعمرة حيثية عصا الطاعة على ملك الحيثيين وأراد هذا الأخير عقابها واخضاعها فعلى ملك مصر أن يساعد ملك الحيثيين فى ذلك .

٧ ــ معاملة الهاربين السياسيين المصريين :

اذا هبط مصرى رفيع المقام أرض الحيثيين وكان هاربا سياسيا فيتحتم على ملك الحيثيين ألا يأويه فى مملكته بل يرسله الى فرعون مصر رمسيس الثانى .

٨ ــ معاملة المهاجرين المصريين :

اذا هاجر مصرى أو مصريان من طبقة الشعب المجهولة (أى الوضيعة) الى مملكة الحيثيين ليعاملوا معاملة رعايا الدول الأجنبية فان مثل هؤلاء لا يصرح لهم بالبقاء بالأراضى الحيثية بل يرسلون الى رمسيس الثانى حاكم مصر الأعظم .

٩ ــ معاملة الهاربين السياسيين الحيثيين :

اذا هبط حيثى رفيع المقام الأراضى المصرية وكان هاربا سياسيا فيتحتم على ملك مصر ألا يأويه فى مملكته بل يرسله الى ملك الحيثيين .

١٠ ـ معاملة المهاجرين الحيثيين :

اذا هاجر حيثى أو حيثيان أو ثلاثة من طبقة الشعب المجهولة (أى الوضيعة) الى المملكة المصرية ليعاملوا معاملة رعايا الدول الأجنبية ، فان ملك مصر لا يسمح لهم بالبقاء بالمملكة المصرية بل يعيدهم الى حاكم الحيثيين الأعظم ٠

ويلى ذلك ملحق يحض على استعمال الرأفة فى معاملة هؤلاء الأشخاص والاستشهاد بألف معبود ومعبوده من مملكة الحيثيين وألف معبود ومعبودة من مملكة مصر لهذه المعاملة ، وقد علمنا منها عدة معبودات حيثية ومحل عبادتها ، وتنتهى المعاهدة بصب اللعنات على كل من يخالف شروطها ويطلب الرحمة والسلام لكل من يحترمها ٠ والظاهر أن الملاحظة الأخيرة صيغت فى آخر الكلام ، وقد أمر رمسيس بنقش صورتين من هذه المعاهدة بسرعة على جدران معبدين له بطيبة قدم لهما بوصف وصول رسل ملك الحيثيين ، (آراد بعد ذلك رسم المعبودات والأشخاص الوارد ذكرهم فى اللوح المذكور ولم يرد بهذه المعاهدة بيان حدود المملكتين المصرية والحيثية ولكن يرجح انها حددت فى معاهدة سابقة (١) ٠

---

(١) عبد الرحمن زكى (د٠) : مرجع سابق ، صص ٢٠٠ ـ ٢٢٦ ٠

« بيـــان »

« بمراجع الدراسة »

١ ـ ابراهيم القوديرى :

حـــركة التاريخ من البـداوة الى الحضارة ، بيروت ، دار النهار للطبع والنشر ، ١٩٥٤ ٠

٢ ـ احمـــد قدرى (د ٠) :

المؤسسة العســكرية المصرية فى عصر الامبراطورية ، القاهرة ، هيئة الآثار المصرية ، ١٩٨٥ ٠

٣ ـ احمد محمـود صابون (د ٠) :

مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨ ٠

٤ ـ ارنــولد توينبى :

الفكر التاريخى عند الاغريق ، ترجمـــة لمعى الطيعى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠ ٠

٥ ـ أمين سـلامة :

الحياة اليومية عند قدماء المصريين ، القـاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ ٠

٦ ـ بهاء الدين ابراهيم (ل ٠ د ٠) :

الشرطة والأمن الداخلى فى مصر القديمة القاهرة ، هيئة الآثار المصرية ، ١٩٨٦ ٠

٧ ـ جـون لويس :

الانسان ذلك الكائن الفريد ، ترجمة د ٠ / صالح جواد الكاظم ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٦ ٠

٨ ـ جيمس هنرى برستد :

انتصـار الحضارة تاريـخ الشرق القديم ، ترجمة د / أحمد فخرى ، القاهرة ، مكتبـة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٥ ٠

٩ ـ جميس ، نوكلاس :

مذكرات فى التاريخ العسـكرى وفن الحرب ، ترجمة مختـار الأيوبى ، دمشـق ، دار الوادى للطبع والنشر ، ١٩٨٨ ٠

١٠ ـ د ٠ ج دى جورج :

تراث العالم القديم ، ترجمـة زكى سوس ، القاهرة ، دار الكرنك للنشر والطبع ، ١٩٦٥ ، جـ ١ ٠

١١ ـ دومينك فاليـــل :

الناس والحياة فى مصر القديمة ترجمة طاهر جويجاتى القاهرة ، دار الفكر للدراســات والنشر والتــوزيع ١٩٨٩ .

١٢ ـ زبيدة عطــا :

الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاســلامى القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠ .

١٣ ـ زكى رشيد وآخرون :

تطور الصناعات فى مصر القديمة والاسلامية ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥٥ ، جـ ١ .

١٤ ـ رنـــدل كلارك :

الرمز والأسطورة فى مصر القديمــة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة لكتاب ، ١٩٨٨ .

١٥ ـ سعيد رزق حجاج وآخرون :

منهج البحث التاريخى ، القـــاهرة ، مطبعة الحســين الاسلامية ، ١٩٨٨ .

١٦ ـ سمير عبد الباسط وآخرون :

تاريخ مصر ، القاهرة ، دار المنار للنشر ، ١٩٦١ .

١٧ ـ سـير الن جاردنر :

مصر الفراعنة ، ترجمـة نجيب ميخائيـل ابراهيم ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ ٠

١٨ ـ سـيريل ألدريد :

الحضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة ، ترجمة مختار السـويفى ، القـاهرة ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٨٩ ٠

١٩ ـ طاهر عبد الحكيم : (د ٠) :

الشخصية الوطنية المصرية (قراءة جديدة لتاريخ مصر) ، القاهرة ، دار الفكر للدراسـات والنشر والتوزيع ، ١٩٨٦ ٠

٢٠ ـ عبد الرحمن فهمى (د ٠) :

الجيش فى مصر القديمة ، القاهرة ، ادارة الشئون العامة للقوات المسلحة ، ١٩٦٨ ٠

٢١ ـ عز الدين اسماعيل أحمد (د ٠) :

تحركات القوى العظمى فى أفريقيـا (مقالة بكتـاب محاضرات الدورة الاعلامية التثقيفية عن أفريقيا خـلال الفترة مـن ١٩٨٦/١١/٢٢ الى ١٩٨٦/١١/٢٥) ٠ القاهرة ، الجمعية الأفريقية ، ١٩٨٧ ٠

٢٢ ـ عبد الحليم السيد :

مذكرات فى جغرافيـــة حصر الســـياسية ، بـيروت ، دار الندوة ، ١٩٦٤ ٠

٢٣ ـ فرانسو دوماس :

الهة مصر ٠ ترجمة / زكى ســـوس ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ ٠

٢٤ ـ المجالس القومية المتخصصة :

السياحة فى ســـيناء ومستقبلهـــا حتى عام ٢٠٠٠ ، القاهرة ، رئاسة الجمهورية ، ١٩٧٩ ٠

٢٤ ـ محمد جمال الدين مختار وآخرون :

تاريخ مصر القديم ، القاهرة ، دار الطباعة الحديثـــة ، ١٩٩١ ٠

٢٥ ـ محمد شفيق غربال (سفير) :

تكوين مصر عبر العصور ، القـــاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠ ٠

٢٦ ـ محمد عبد الفتاح ابو الفضل :

تأملات فى ثورات مصر ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتـــاب ، ١٩٩٢ ٠

٢٧ ـ محمد عوض محمد (د •) :

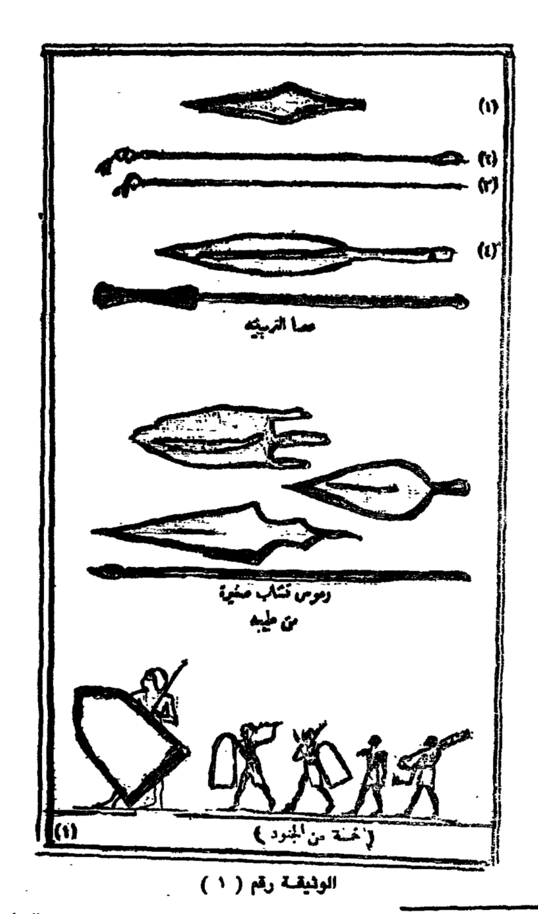
نهر النيل ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢ •

٢٨ ـ محمد عوض محمد (د •) :

الشعوب والسلالات الأفريقية ، القاهرة ، الدار المصرية للتألف والترجمة ، ١٩٦٥ •

٢٩ ـ هنرى برجسـون :

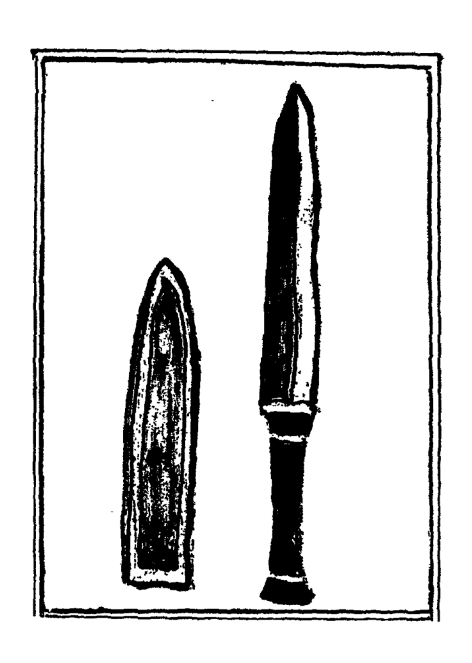
التطور الخالق ، القـاهرة الهيئة المصرية العـامة للكتـاب ، ١٩٨٤ •



الوثيقة رقم (١)

---

(١) عبد الرحمن زكى (د٠) : العيش فى مصر القديمة ، القاهرة ، الشئون المعنوية للقوات المسلحة ، ١٩٩٨ ، ص ١٠٠ ٠

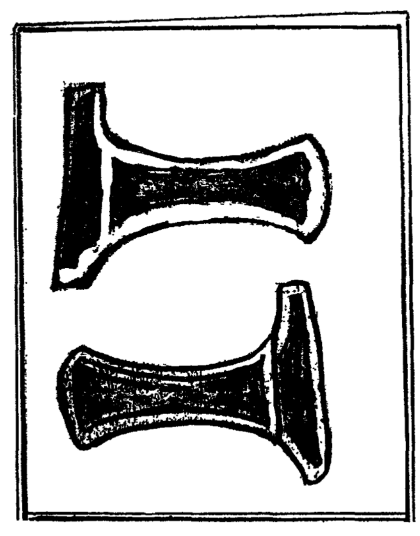


الوثيقة رقم (٢)

خنجر ذهبى ذو مقبض منقوش للملك توت عنخ آمون (١)

---

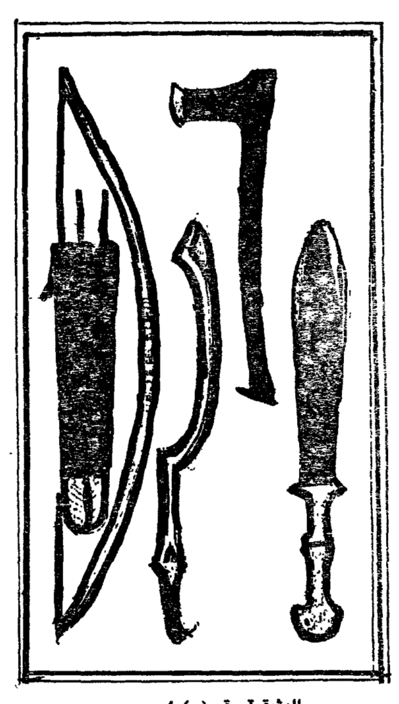
(١) عبد الرحمن زكى (د) : الجيش فى مصر القديمة ، القاهرة الشئون المعنوية للقوات المسلحة ، ١٩٩٨ ، ص ١٦٣ .



الوثيقـة رقم (٣)

مجموعة من البلط (١)

(١) عبد الرحمن زكى (د٠) : الجيش فى مصر القديمـة ، القـاهرة ، الشئون المعنوية للقوات المسلحة ، ١٩٦٨ ، ص ١٥٧ ٠

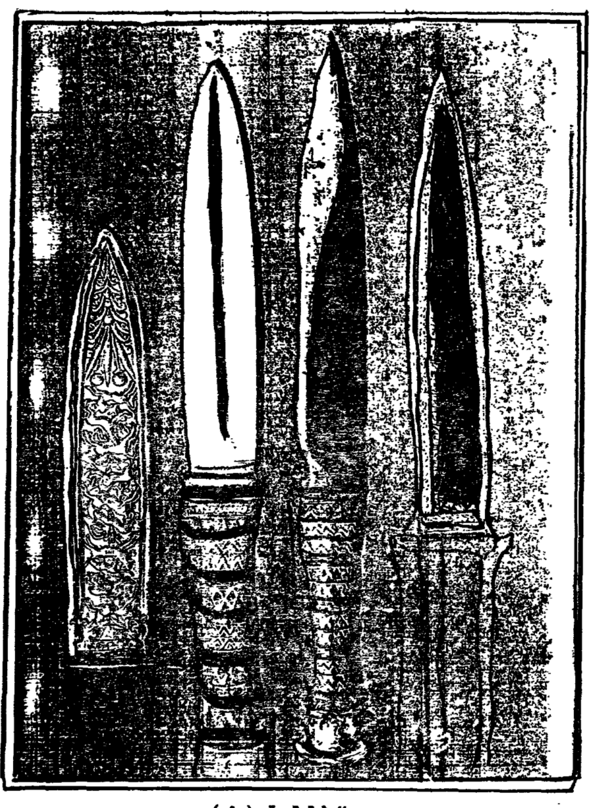


الوثيقـة رقم (٤)

انواع من الأسلحة التى استعملت فى الدولة القديمة (١)

---

(١) بهاء الدين ابراهيم (د٠) : الشرطة والأمن الداخلى فى مصر القديمة ، القاهرة ، هيئة الآثار المصرية ، ١٩٨٦ ٠

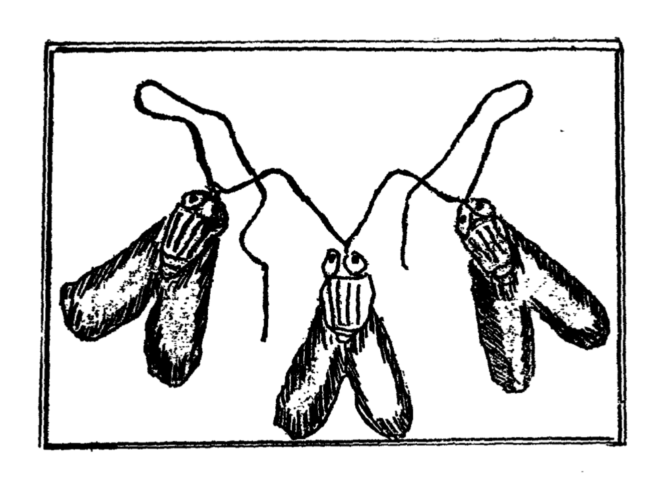


الوثيقـة رقم (٥)

اسلحة وخناجر مصرية (١)

---

(١) احمد قدرى (د٠) : المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية ، ١٥٧٠ ق٠م ـ ١٠٨٧ ق٠م ، القاهرة ، هيئة الآثار المصرية ، ١٩٨٥ م ٠



الوثيقة رقم (٦)

(ش ١٥) شارات الذبابات الذهبية التى ينعم على الضباط الشجعان (١)

(١) عبد الرحمن زكى (د٠) : الجيش فى مصر القديمة ، القاهرة ، الشئون المعنوية القوات المسلحة ، ١٩٦٨ ، ص ١٧٣ ٠



الوثيقة رقم (٧)

فرقة الحراسة الملكية (١)

---

(١) بهاء الدين ابراهيم (د٠) : الشرطة والأمن الداخلى فى مصر القديمة ، القاهرة هيئة الآثار المصرية ، ١٩٨٦



الوثيقة رقم (٨)

« فرقة من جنود حراسة حدود مصر » (١)

(١) بهاء الدين ابراهيم (د٠) : الشرطة والأمن الداخلى فى مصر القديمة ، القاهرة هيئة الآثار المصرية ، ١٩٨٦



الوثيقة رقم (٩)

مجموعة طابور ـ حملة الدروع والرماح والبلط (١)

(١) عبد الرحمن زكى (د٠) : الجيش فى مصر القديمة ، القاهرة ، الشئون المعنوية للقوات المسلحة ، ١٩٦٨ ، ص ٣٤ ٠



الوثيقة رقم (١٠)

جنود الجيش المصرى فى عهد الفراعنة من حملة الدروع والرماح (١)

(١) عبد الرحمن زكى (د٠) : الجيش فى مصر القديمة ، القاهرة ، الشئون المعنوية للقوات المسلحة ، ١٩٦٨ ، ص ٨٨ ٠

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع **الصفحة**

صدر فى هذه السلسلة

١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ،
د. عبد العظيم رمضان، ط ١، ١٩٨٧، ط ٢، ١٩٩٤.

٢ - على ماهر،
رشوان محمود جاب الله، ١٩٨٧.

٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة،
عبد السلام عبد الحليم عامر، ١٩٨٧.

٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة،
د. محمد نعمان جلال، ١٩٨٧.

٥ - غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى،
د. علية عبد السميع الجنزورى، ١٩٨٧.

٦ - هؤلاء الرجال من مصر جـ١،
لمعى المطيعى، ١٩٨٧.

٧ - صلاح الدين الأيوبى،
د. عبد المنعم ماجد، ١٩٨٧.

٨ - رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية،
د. على بركات، ١٩٨٧.

٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل،
د. محمد أنيس، ١٩٨٧.

١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية،
محمود فوزى، ١٩٨٧.

١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية،
شكرى القاضى، ١٩٨٧.

١٢ - هدى شعراوى وعصر التنوير،
د. نبيل راغب، ١٩٨٨.

١٣ - أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان: رؤية تاريخية،
د. عبدالعظيم رمضان، ط ١ ١٩٨٨، ط ٢، ١٩٩٤

١٤ - مصر فى عصر الولاة، من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٨.

١٥ - المستشرقون والتاريخ الإسلامى،
د. على حسنى الخربوطلى، ١٩٨٨.

١٦ - فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر: دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢-١٩٥٢)،
د. حلمى أحمد شلبى، ١٩٨٨.

١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى،
د. محمد نور فرحات، ١٩٨٨.

١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية،
د. على السيد محمود، ١٩٨٨

١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين،
د. أحمد محمود صابون، ١٩٨٨.

٢٠ - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩: المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبدالرحمن فهمى،
د. محمد أنيس، ط ٢، ١٩٨٨.

٢١ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى جـ١،
د. توفيق الطويل، ١٩٨٨.

٢٢ نظرات في تاريخ مصر
جمال بدوي، ١٩٨٨

٢٣ـ التصوف في مصر إبان العصر العثماني
جـ٢، إمام التصوف في مصر: الشعراني،
د. توفيق الطويل، ١٩٨٨.

٢٤ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩-١٩٣٦)،
د. نجوى كامل، ١٩٨٩.

٢٥ـ المجتمع الإسلامي والغرب،
تأليف: هاملتون جب وهارولد بوون،
ترجمة . د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، ١٩٨٩.

٢٦ـ تاريخ الفكر التربوي في مصر الحديثة،
د. سعيد إسماعيل علي، ١٩٨٩.

٢٧ـ الفتح العربي لمصر جـ١،
تأليف: ألفريد ج. بتلر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩.

٢٨ـ الفتح العربي لمصر جـ٢،
تأليف: ألفريد ج. بتلر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩.

٢٩ـ مصر في عهد الإخشيديين،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٩.

٣٠ـ الموظفون في مصر في عهد محمد علي،
د. حلمي أحمد شلبي، ١٩٨٠.

٣١ـ خمسون شخصية مصرية وشخصية،
شكري القاضي، ١٩٨٩.

٣٢ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ٢،
لمعي المطيعي، ١٩٨٩.

٣٣ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقي: نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية،
د. خالد محمود الكومي، ١٩٨٩.

٣٤ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢،
د. يونان لبيب رزق، محمد مزين، ١٩٩٠.

٣٥ـ أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة،
عبدالحميد توفيق زكي، ١٩٩٠.

٣٦ـ المجتمع الإسلامي والغرب جـ٢،
تأليف: هاملتون بوون، ترجمة: د. أحمد عبدالرحيم مصطفى، ١٩٩٠.

٣٧ـ الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد: تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن،
تأليف: د. سليمان صالح، ١٩٩٠.

٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني،
د. عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، ١٩٩٠.

٣٩ ـ قصة احتلال محمد علي لليونان (١٨٢٤-١٨٢٧)،
د. جميل عبيد، ١٩٩٠.

٤٠ـ الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨،
د. عبدالمنعم الدسوقي الجميعي، ١٩٩٠.

٤١ ـ محمد فريد: الموقف والمأساة، رؤية عصرية،
د. رفعت السعيد، ١٩٩١.

٤٢ـ تكوين مصر عبر العصور،
محمد شفيق غربال، ط٢، ١٩٩٠.

٤٣ـ رحلة في عقول مصرية،
إبراهيم عبد العزيز، ١٩٩٠.

٤٤ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر، في العصر العثماني،
د. محمد عفيفي، ١٩٩١.

٤٥ـ الحروب الصليبية جـ١،
تأليف: وليم الصوري، ترجمة وتقديم: د. حسن حبشي، ١٩٩١.

٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ : ١٩٥٧)،
ترجمة: د. عبدالرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩١.

٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث،
د . لطيفة محمد سالم، ١٩٩١ .
٤٨ ـ الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى،
د . زبيدة عطا، ١٩٩١ .
٤٩ ـ العلاقات المصرية الإسرائيلية (١٩٤٨ـ١٩٧٩)،
د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢ .
٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ـ١٩٥٤)،
د . سهير إسكندر، ١٩٩٣ .
٥١ ـ تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، فى إبريل ١٩٩١)، أعدها للنشر: د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢ .
٥٢ ـ مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر،
د . إلهام محمد على ذهنى، ١٩٩٢ .
٥٣ ـ أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة،
د . محمد كمال الدين عز الدين على، ١٩٩٢
٥٤ ـ الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى،
د . محمد عفيفى، ١٩٩٢ .
٥٥ ـ الحروب الصليبية جـ٢،
تأليف : وليم الصورى ترجمة وتعليق : د . حسن حبشى، ١٩٩٢ .
٥٦ ـ المجتمع الريفى فى عصر محمد على: دراسة عن إقليم المنوفية،
د . حلمى أحمد شلبى، ١٩٩٢ .
٥٧ ـ مصر الإسلامية وأهل الذمة،
د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٩٢ .
٥٨ ـ أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة،
د . إبراهيم عبدالله المسلمى، ١٩٩٣ .
٥٩ الرأسمالية الصناعية فى مصر، من التمصير إلى التأميم (١٩٥٧ـ١٩٦١)،
د . عبد السلام عبدالحليم عامر، ١٩٩٣ .
٦٠ ـ المعاصرون من رواد الموسيقى العربية،
عبد الحميد توفيق زكى، ١٩٩٣ .
٦١ ـ تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث،
د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٣ .
٦٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ٣،
لمعى المطيعى، ١٩٩٣ .
٦٣ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر الإسلامية،
تأليف: د. سيدة إسماعيل كاشف، جمال الدين سرور، وسعيد عبدالفتاح عاشور، أعدها للنشر: د. عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣ .
٦٤ ـ مصر وحقوق الإنسان، بين الحقيقة والإفتراء: دراسة وثائقية،
د . محمد نعمان جلال، ١٩٩٣ .
٦٥ ـ موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ـ١٩١٧)،
د . سهام نصار، ١٩٩٣ .
٦٦ ـ المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى،
د . نريمان عبد الكريم أحمد، ١٩٩٣ .
٦٧ ـ مساعى السلام العربية الإسرائيلية: الأصول التاريخية،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، بالإشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس، فى إبريل ١٩٩٣)، أعدها للنشر د. عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣ .
٦٨ ـ الحروب الصليبية جـ٣،
تأليف : وليم الصورى
ترجمة وتعليق : د . حسن حبشى، ١٩٩٣
٦٩ ـ نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ـ١٩٥١)،
د . محمد أبو الإسعاد، ١٩٩٤

٧٠ـ أهل الذمة فى الإسلام،
تأليف: أ. س. ترتون
ترجمة وتعليق: د. حسن حبشى، ط ٢، ١٩٩٤.

٧١ـ مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ـ١٩٤٦)،
إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة: د. عبد الرءوف أحمد عمرو، ١٩٩٤.

٧٢ـ رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية فى العصر الفاطمى (٣٥٨ـ٥٦٧هـ)،
د. أمينة أحمد إمام، ١٩٩٤.

٧٣ تاريخ جامعة القاهرة،
د. رءوف عباس حامد، ١٩٩٤.

٧٤ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية، جـ١، فى العصر الفرعونى،
د. سمير يحيى الجمال، ١٩٩٤.

٧٥ـ أهل الذمة فى مصر، فى العصر الفاطمى الأول،
د. سلام شافعى محمود، ١٩٩٥.

٧٦ـ دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الاحتلال البريطانى)،
د. سعيد إسماعيل على، ١٩٩٥.

٧٧ـ الحروب الصليبية جـ٤،
تأليف: وليم الصورى، ترجمة وتعليق: د حسن حبشى، ١٩٩٤.

٧٨ تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ـ١٨٩٩)،
نعمات أحمد عثمان، ١٩٩٥.

٧٩ـ تاريخ الطرق الصوفية فى مصر، فى القرن التاسع عشر
تأليف: فريد دى يونج، ترجمة: عبد الحميد فهمى الجمال، ١٩٩٥.

٨٠ـ قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوربى (١٨٨٢ـ١٩٠٤)،
د. السيد حسين جلال، ١٩٩٥

٨١ـ تاريخ السياسة والصحافة المصرية من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر
د. رمزى ميخائيل، ١٩٩٥

٨٢ـ مصر فى فجر الإسلام، من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ط ٢، ١٩٩٤.

٨٣ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ١،
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٤.

٨٤ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ٢ ـ القسم الأول،
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٥.

٨٥ ـ تاريخ الإذاعة المصرية: دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢)،
د. حلمى أحمد شلبى، ١٩٩٥.

٨٦ ـ تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤)،
د. أحمد الشربينى، ١٩٩٥.

٨٧ ـ مذكرات اللورد كليرن، جـ ٢، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦)،
إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة وتحقيق: د. عبدالرءوف أحمد عمرو ١٩٩٥.

٨٨ ـ التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية،
عبدالحميد توفيق زكى، ١٩٩٥.

٨٩ ـ تاريخ الموانئ المصرية فى العصر العثمانى،
د. عبدالحميد حامد سليمان، ١٩٩٥.

٩٠ ـ معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية،
د. نريمان عبدالكريم أحمد، ١٩٩٦.

٩١ ـ تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط،
تأليف: بيتر مانسفيلد، ترجمة: عبدالحميد فهمى الجمال، ١٩٩٦.

٩٢ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦)،
جـ ٢، د. نجوى كامل، ١٩٩٦

٩٣ ـ قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨)،
د. نبيه بيومى عبدالله، ١٩٩٦.
٩٤ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤)،
د. سهير إسكندر، ١٩٩٦.
٩٥ ـ مصر وأفريقيا الجذور التاريخية المشكلات الأفريقية المعاصرة (أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة)،
إعداد أ. د. عبد العظيم رمضان
٩٦ ـ عبدالناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠)،
تأليف: مالكولم كير، ترجمة د. عبدالرؤوف أحمد عمرو.
٩٧ ـ العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر،
د. إيمان محمد عبد المنعم عامر.
٩٨ ـ هيكل والسياسة الأسيوية،
د. محمد سيد محمد.
٩٩ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) جـ ٢،
د. سمير يحيى الجمال
١٠٠ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر القديمة،
أ. د. عبد العزيز صالح، أ. د. جمال مختار، أ. د. محمد ابراهيم بكر، أ.د. ابراهيم نصحى، أ. د. فاروق القاضى، أعدها للنشر: أ. د. عبدالعظيم رمضان
١٠١ ـ ثورة يوليو والحقيقة الغائبة،
اللواء/ مصطفى عبدالمجيد نصير، اللواء/ عبدالمجيد كفافى،
اللواء/ سعد عبدالحفيظ السيد/ جمال منصور

١٠٢ ـ المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢
د. تيسير أبو عرجة
١٠٣ ـ رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره
د. على بركات
١٠٤ ـ تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢)
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد
١٠٥ ـ السلطة السياسية فى مصر وقضية الديموقراطية ١٨٠٥ ـ ١٩٨٧ .
د. أحمد فارس عبدالمنعم
١٠٦ ـ الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد (تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن).
د. سليمان صالح
١٠٧ ـ الأصولية الإسلامية.
تأليف: دليب هيرو، ترجمة: عبدالحميد فهمى الجمال.
١٠٨ ـ مصر للمصريين جـ ٤.
سليم النقاش
١٠٩ ـ مصر للمصريين جـ ٥.
سليم النقاش
١١٠ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) جـ ١.
د. البيومى اسماعيل الشربينى.
١١١ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) جـ ٢.
د. البيومى إسماعيل الشربينى.
١١٢ ـ إسماعيل باشا صدقى
د. محمد محمد الجوادى.
١١٣ ـ الزبير باشا ودوره فى السودان (فى عصر الحكم المصرى)
د. عز الدين إسماعيل.
١١٤ ـ دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى
تأليف أحمد رشدى صالح

١١٥ ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ ٣.
أحمد شفيق باشا.

١١٦ ـ أديب إسحق (عاشق الحرية)
علاء الدين وحيد

١١٧ ـ تاريخ القضاء فى مصر العثمانية (١٥١٧ ـ ١٧٩٨)
عبد الرزاق إبراهيم عيسى

١١٨ ـ النظم المالية فى مصر والشام
د. البيومى إسماعيل الشربينى

١١٩ ـ الطبقات فى مصر الرومانية
حسين محمد أحمد يوسف

١٢٠ ـ يوميات من التاريخ المصرى الحديث
لويس جرجس

١٢١ ـ الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ ـ ١٩٥٤)
د. محمد عبد الحميد الحناوى

١٢٢ ـ مصر للمصريين جـ٦
سليم خليل النقاش

١٢٣ ـ السيد أحمد البدوى
د. سعيد عبد الفتاح عاشور

١٢٤ ـ العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن
د. محمد نعمان جلال

١٢٥ ـ مصر للمصريين جـ٧
سليم خليل النقاش

١٢٦ ـ مصر للمصريين جـ ٨
سليم خليل النقاش

١٢٧ ـ مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨)،
إبراهيم محمد محمد إبراهيم .

١٢٨ ـ معارك صحفية،
بقلم/ جمال بدوى.

١٢٩ ـ الدين العام (وأثره فى تطور الدين المصرى) (١٨٧٦-١٩٤٣).
د. يحيى محمد محمود

١٣٠ ـ تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٤٧-١٩٩٧).
سمير فريد.

١٣١ ـ الولايات المتحدة وثورة يوليه ١٩٥٢م.
ترجمة/ د. عبدالرءوف أحمد عمرو.

١٣٢ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ١.
د. ماجدة محمد حمود.

١٣٣ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ٢.
د. ماجدة محمد حمود.

١٣٤ ـ الحملة الفرنسية على مصر فى ضوء مخطوط عثمانى القازدغلى.
بقلم/ عزت حسن أفندى الدارندلى
ترجمة/ جمال سعيد عبد الغنى.

١٣٥ ـ اليهود فى مصر المملوكية
(فى ضوء وثائق الجنيزة)
(٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) د. محاسن محمد الوقاد

١٣٦ ـ أوراق يوسف صديق
تقديم/ أ. د. عبد العظيم رمضان

١٣٧ ـ تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى
د. محمد عبد الغنى الأشقر

١٣٨ ـ الإخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والإرهاب فى مصر
السيد يوسف

١٣٩ ـ موسوعة القضاء المصرى فى القرن العشرين
بقلم محمد كامل

١٤٠ ـ سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ١٢٢٦ ـ ١٢٦٥هـ / ١٨١١ ـ ١٨٤٨م.
طارق عبد العاطى غنيم البيومى

١٤١ ـ وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك.
الهامى أحمد نصار

١٤٢ ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ٣
أحمد شفيق باشا ط٢، ١٩٩٩.

١٤٣ ـ دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والأول ق . م
د. منيرة محمد الهمشرى
١٤٤ ـ كشوف مصر الافريقية فى عهد الخديوى اسماعيل
د. عبدالعليم خلاف
١٤٥ ـ النظام الادارى والاقتصادى فى مصر فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م)
د. منيرة محمد الهمشرى
١٤٦ ـ المرأة فى مصر المملوكية
د. أحمد عبدالرازق
١٤٧ ـ حسن البنا متى.. كيف ولماذا؟
د. رفعت السعيد
١٤٨ ـ القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية
تأليف / د. سمير فوزى
ترجمة / نسيم مجلى
١٤٩ ـ العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن عشر
حسام محمد عبد المعطى
١٥٠ ـ تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها)
د. سمير يحيى الجمال
١٥١ ـ جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة
السيد يوسف
١٥٢ـ الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
د. محاسن محمد الوقاد
١٥٣ـ الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)
د. علية عبد السميع الجنزورى
١٥٤ـ هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية فى العصور الوسطى
د. علية عبد السميع الجنزورى
١٥٥ـ عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر
(١٨٠٥ ـ ١٨٨٣م)
د. عبد الحميد البطريق
١٥٦ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية
الجزء الثالث
فى العصر الإسلامى
د. سمير يحيى الجمال
١٥٧ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية
الجزء الرابع
فى العصر الإسلامى والحديث
د. سمير يحيى الجمال
١٥٨ـ نائب السلطنة المملوكية فى مصر
(٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
د. محمد عبد الغنى الأشقر
١٥٩ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢)
الجزء الأول
د. محمد فريد حشيش
١٦ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢)
الجزء الثانى
د. محمد فريد حشيش
١٦١ـ السيف والنار فى السودان
تأليف / سلاطين باشا
١٦٢ـ السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ ـ ١٩٥٣م)
د. تمام همام تمام
١٦٣ـ مصر والحملة الفرنسية
المستشار/ محمد سعيد العشماوى
١٦٤ـ الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ
(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى الثقافة) بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ٢٠ ـ ٢١ ديسمبر ١٩٩٧م.
إعداد / د. عبدالعظيم رمضان
١٦٥ـ التعليم والتغير الاجتماعى فى مصر
(فى القرن التاسع عشر)
سامى سليمان محمد السهم

١٦٦ـ مذكرات محتقل سياسي (صفحة من تاريخ مصر)
السيد يوسف

١٦٧ـ الحركة العلمية والأدبية في الفسطاط منذ الفتح العربي إلى نهاية الدولة الأخشيدية
د. صفي علي محمد عبدالله

١٦٨ـ مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات
يسري عبد الغني

١٦٩ـ مدن مصر الصناعية في العصر الإسلامي إلى نهاية عصر الفاطميين (٢١ ـ ٥٦٧هـ / ٦٤٢ ـ ١١٧١م)
د. صفي علي محمد عبد الله

١٧٠ـ القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
مجدي عبد الرشيد بحر

١٧١ـ تاريخ الجالية الأرمنية في مصر القرن التاسع عشر
تأليف / محمد رفعت

١٧٢ـ تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية (من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي) الجزء الأول
تأليف / فاطمة مصطفى عامر

١٧٣ـ تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية (من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي) الجزء الثاني
تأليف / فاطمة مصطفى عامر

١٧٤ـ مصر وليبيا فيما بين القرن السابع والقرن الرابع ق.م
د. أحمد عبد الحليم دراز

١٧٥ ـ محمد توفيق نسيم باشا ودوره في الحياة السياسية
عادل إبراهيم الطويل

١٧٦ ـ الملاحة النيلية في مصر العثمانية ١٥١٧ ـ ١٧٩٨م
د. عبدالحميد حامد سليمان

١٧٧ ـ سياسة مصر العسكرية ازاء حروب الشرق الأوسط
لواء دكتور/ صلاح سالم

١٧٨ ـ العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى في القرن الثامن عشر
د. سحر علي حنفي

١٧٩ ـ دور الحامية العثمانية في تاريخ مصر (١٥٦٤ ـ ١٦٠٩ م)
د. عفاف مسعد السيد العبد

١٨٠ ـ الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس
بقلم / د. عبدالعظيم رمضان

١٨١ ـ الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد جـ١)
ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حبشي

١٨٢ ـ الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد جـ٢)
ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حبشي

١٨٣ ـ شاهد على العصر
مذكرات محمد لطفي جمعة

١٨٤ ـ المنوفية في القرن الثامن عشر
ياسر عبد المنعم محاريق

١٨٥ ـ تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري
د. أحمد أحمد سيد أحمد

١٨٦ ـ العقائد الدينية في مصر الاسلامية (بين الاسلام والتصوف)
د· أحمد صبحى منصور

١٨٧ ـ نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧م/ ٦٤٨ ـ ٨٢٣ هـ) جـ ١
د· عادل عبد الحافظ حمزة

١٨٨ ـ نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧م/ ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ) جـ ٢
د· عادل عبد الحافظ حمزة

١٨٩ ـ يهود مصر منذ عصر الفراعنة حتى عام ٢٠٠٠ م
عرفه عبده على

١٩٠ ـ العلاقات السياسية بين مصر والعراق ١٩٥١ ـ ١٩٦٣م ·
د· عبد الحميد عبد الجليل أحمد شلبى ·

١٩١ ـ اليهود فى مصر العثمانية حتى اوائل القرن التاسع عشر جـ ١
د· محسن على شومان

١٩٢ ـ اليهود فى مصر العثمانية حتى اوائل القرن التاسع عشر جـ ٢
د· محسن على شومان

١٩٣ ـ الامام محمد عبده (بين المنهج الدينى والمنهج الاجتماعى)
د· عبد الله شحاته

١٩٤ ـ تاريخ الآلات الموسيقية الشعبية المصرية
د· فتحى الصنقاوى

١٩٥ ـ مجتمع افريقية فى عصر الولاة
د· نريمان عبد الكريم أحمد

١٩٦ ـ تاريخ تطور الرى فى مصر (١٨٨٢ ـ ١٩١٤م)
عبد العظيم محمد سعودى

١٩٧ ـ القدس الخالدة
د· عبد الحميد زايد

١٩٨ ـ العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية ·
د· عادل عبد الحافظ حمزة

١٩٩ ـ العبيد فى الدولة الحديثة فى مصر الفرعونية
د· بهاء الدين ابراهيم محمود

٢٠٠ ـ تاريخ سواحل مصر الشمالية عبر العصور
(أعمال الندوة التى اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة • بالاشتراك مع كلية الآداب جامعة الاسكندرية من ٢٢ ـ ٢٣ ابريل ١٩٩٨)
اعداد : د• عبد العظيم رمضان •

٢٠١ ـ امارة الحج فى مصر العثمانية
(٩٢٣ـ١٢١٣هـ / ١٥١٧ـ ١٧٩٨ م)
سميرة فهمى على عمر

٢٠٢ ـ المندوبون الساميون فى مصر
د• ماجدة محمد حمود

٢٠٣ ـ الصراع الدولى على عمان والدور المصرى
فتحى أبو طالب

٢٠٤ ـ العلاقات الاقتصادية بين مصر وبريطانيا (١٩٣٥ ـ ١٩٤٥م)
مرفت صبحى غالى

٢٠٥ ـ تاريخ الغربية واعمالها فى العصر الاسلامى
(٢١ ـ ٥٦٧هـ / ٦٤٢ ـ ١١٧١م)
السيد محمد احمد عطا

٢٠٦ ـ مصر للمصريين ج ٩
سليم خليل النقاش

٢٠٧ ـ الظاهر بيبرس
د• سعيد عبد الفتاح عاشور

٢٠٨ ـ الدور المصرى والعربى فى حرب تحرير الكويت ج ١
لواء / د• كمال أحمد عامر

٢٠٩ ـ الدور المصرى والعربى فى حرب تحرير الكويت ج ٢
لواء / د• كمال أحمد عامر

٢١٠ ـ قبرص والحروب الصليبية
د• سعيد عبد الفتاح عاشور

٢١١ ـ امارة الرها الصليبية
د• علية عبد السميع الجنزورى

٢١٢ ـ العامة فى مصر فى العصر الأيوبى
(٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ / ١١٧١ ـ ١٢٥٠م)
شلبى ابراهيم الجعيدى

٢١٣ ـ الأزمات الاقتصادية فى مصر فى العصر المملوكى وأثرها السياسى والاقتصادى والاجتماعى (٦٤٨ هـ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
عثمان على محمد عطا

٢١٤ ـ الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى
د· علية عبد السميع الجنزورى

٢١٥ ـ الفتح الاسلامى لمدينة كابول (٣١هـ / ٦٥١م)
د· صلاح عبد الحميد ريحان

٢١٦ ـ الراسمالية الاجنبية فى مصر (١٩٣٧ ـ ١٩٥٧)
الجزء الاول
د· فرغلى تسن هريدى ·

٢١٧ ـ العيب فى الذات الملكية (١٨٨٢ ـ ١٩٥٢)
د· سيد عشماوى

٢١٨ ـ اقليم الغربية فى عصر الأيوبيين والمماليك (٥٦٧ ـ ٩٢٣هـ/١١٧١ ـ ١٥١٧م)
د· السيد محمد أحمد عطا

٢١٩ ـ ثورة ١٩١٩ فى ضوء مذكرات سعد زغلول (١٩٥٣ ـ ١٩٦١) ·
د· عبد العظيم رمضان

٢٢٠ ـ التنظيمات السياسية لثورة يوليو
د· حمادة حسنى أحمد محمد

٢٢١ ـ حرب النهر
ونستون تشرشل · ترجمة عز الدين اسماعيل

٢٢٢ ـ مصر الخالدة (مقدمة فى تاريخ مصر الفرعونية منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق·م· جـ ١
د· عبد الحميد زايد

٢٢٣ ـ مصر الخالدة (مقدمة فى تاريخ مصر الفرعونية منذ اقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق·م جـ ٢
د· عبد الحميد زايد

٢٢٤ ـ الدور الوطنى للكنيسة المصرية عبر العصور
(اعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الاعلى للثقافة)
اعداد وتقديم ا·د· عبد العظيم رمضان

٢٢٥ ـ مصر ودول حوض النيل
د· سيد محمد موسى حمد

٢٢٦ ـ السخرة فى حفر قناة السويس
د· عبد العزيز محمد الشناوى

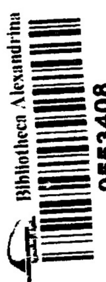
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٠٢/١٧٩٩٦

ISBN — 977 — 01 — 8254 — 0

هذا الكتاب «تاريخ الجيش المصرى فى عصور ماقبل التاريخ» الذى كتبه الدكتور عز الدين اسماعيل أحمد ويقدم عرضاً شاملاً لحياة مصر العسكرية والاجتماعية فى عصر ماقبل التاريخ.

فتحدث عن أهمية وأسلوب دراسة التاريخ العسكرى وتاريخ فن الحرب، ونشأة الحضارات القديمة فى المنطقة، وعناصر ومؤثرات القوة الذاتية فى مصر. وتكوين مصر عبر عصور ماقبل التاريخ، وظهور مملكتى الشمال والجنوب وتوحيد القطرين. وتحدث أيضاً عن الأحوال العسكرية فى مصر. وأسباب وأشكال الصراع مع الإشارة إلى أمثلة تاريخية قديمة.



٤٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب